المكتبة الصوفية



عوارف المعارف

للسهروردي

(المتوفى سنة ٦٣٢هـ)

تحقيق وضبط

أ. د/ أحمد عبد الرحيم السايح المستشار/ توفيق علي وهبة

المجلد الأول

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الأولى
١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦م
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة
ت : ٥٩٢٢٦٢٠ ـ ٥٩٣٨٤١١ / فاكس : ٥٩٣٦٢٧٧
ص.ب ٢١ توزيع الظاهر ـ القاهرة
E-mail:alsakafa_alDinaya@hotmail.com

رقم الإيداع	٢٠٠٦/٥٦٠٣
الترقيم الدولي I.S.B.N.	977-341-263-6

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين. نحمده - سبحانه وتعالى - حمداً كثيراً طيباً. والصلاة والسلام على سيدنا محمد المرسل رحمة وهداية للناس أجمعين. وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

أما بعد

فإن كتاب: "عوارف المعارف" للإمام السهروردي المتوفى سنة ٦٣٢هـ من الكتب الجليلة التي جاءت في التصوف..

وعوارف المعارف. دافع أصيل للمعارف الصوفية، ومعرفة من كل الوجوه. لا يستغنى عنه عالم متبحر، ولا باحث متلهف، ولا طالب علم، ولا داعية يبذل ما في وسعه ليبلغ الحق إلى الناس.

وقد يكون واضحاً : أن التصوف الإسلامي باعتباره علماً كسائر العلوم الإسلامية، لا بد له من تعريف يميزه عن غيره.

ولما كانت مدارس التصوف متعددة، فاختلافهم فيه ليس اختلاف التغاير في المفهوم، ولكنه الاختلاف في الإحاطة بأطراف الحقيقة.

فمنهم من يجمع منها طرفاً واحداً، ومنهم من يجمع أكثر من طرف. ومنهم من يشير إشارة، أو يلوح تلويحاً.

ومنهم من يرنوا إلى الغاية. ومنهم من يتحدث عن الوسيلة. كل حسب وقته وحاله وحسب المناسبة التي ورد الحديث في شأنها، والتركيز على ناحية من نواحي التصوف تبعاً لذلك.

فهو راجع إلى منازل أصحاب السلوك في معارج السلوك. فكل واحد منهم ترجم إحساسه في مقامه. وهو لا يعارض أبداً مقام سواه. فالحقيقة واحدة، وهي كالبستان الجامع. كل سالك وقف تحت شجرة منه، فوصفها.

ولم يقل إنه ليس بالبستان شجرة سواها. ومهما أختلفت التعريفات فإنها تلتقى عن رتبة من التزكي والتقوى عن طريق الهجرة إلى الله.

يقول أبو القاسم القشيري: "وتكلم الناس في التصوف، ما معناه؟ وفي الصوفي: من هو؟ فكل عبر بما وقع له".

ويتجه الكثير من الناس - في تعريف التصوف - إلى الجانب الخلقي.

وهذا الاتجاه شائع عند الصوفية أنفسهم، وعند غيرهم من الباحثين في التصوف والمؤرخين.

والجانب الخلقي يسيطر على كثير من التعاريف التي جاءت في التصوف.

يقول أبو بكر الكتاني المتوفي سنة ٢٣٣ هـ: "التصوف خلق. فمن زاد عليك في الخلق، فقد زاد عليك في الصفاء".

ويقول أبو محمد الحريرى المتوفي سنة ٣١١ هـ: "التصوف الدخول في كل خلق سني، والخروج من كل خلق دني" .

ويذكر أبو الحسين النوري أن: "التصوف ليس رسماً، ولا علماً ولو كان علماً لحصل بالتعليم، ولكنه تخلق بأخلاق الله، ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق بعلم أو رسم".

فهذه التعريفات - كما ترى - وغيرها كثير. تنطق بمعنى الأخلاق، ويتردد فيها معنى الصفاء. فعماد التصوف تصفية القلب من أوضار المادة، وقوامه صلة الإنسان بالخالق سبحانه وتعالى.

ومن هذا المنطلق اتجه كثير من الصوفية في تعريفهم للتصوف إلى ملاحظة الجانب الخلقي إدراكاً لأهمية تحقيق ذلك الجانب.

والتعريفات التي لا تذكر فيها ألفاظ الأخلاق نصاً تئول في نهاية الأمر إلى الناحية الخلقية إن لم تكن بعناصرها كلها، فبالعناصر الغالبة فيها، ومن هذا بيان لوجهة نظر الكثير في اعتبار الأخلاق وجهاً أساسياً من وجوه التصوف، بل لا تتحقق حقيقة التصوف بغير وجودم، لا من الناحية النظرية، ولا من الناحية العملية.

وفي هذا المقام يقول ابن عربي: إن حرص الصوفية بالمجاهدة للوصول إلى مكارم الأخلاق، لأن بها تتطهر النفوس من أدوائها، وتتخلص من أمراضها.

ولذلك كان التخلص من شكل الأخلاق المذمومة فرضاً عند الصوفية، لأن الأخلاق المذمومة شكلاً كالنجاسة التي تحول بين النفوس وصفائها.

وقد أقر التصوف بهذه الصفة، واحد من أكبر مفكري السلف، وهو الإمام ابن قيم الجوزية، فأنت تراه يقول: "واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم على أن التصوف هو الخلق".

وأيضاً يقول أبو حفص الحداد: "التصوف كله آداب لكل وقت أدب، ولكل حالة أدب، ولكل مقام أدب. فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الآداب، فهو بعيد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يرجو القبول"

وحسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن لأن النبي ﷺ قال: "لو خشع قلبه لخشعت جوارحه".

ويقول الهجويري: فاعلم أن زينة وحلية جميع الأمور الدينية والدنيوية، متعلقة بالآداب، ولكل مقام من مقامات أصناف الخلق أدب. والكافر والمسلم، والموحد والملحد، والسني والمبتدع، متفقون على أن حسن الأدب في المعاملات طيب، ولا يثبت أي رسم في العالم بدون استعمال الأدب.

والأدب في الناس: حفظ المروءة، وفي الدين: حفظ السنة. وفي المحبة: حفظ الحرمة. وهذه الثلاثة مرتبطة ببعضها البعض، لأن كل من ليست له مروءة لا يكون متابعاً للسنة، وكل من لا يحفظ السنة لا يرعى الحرمة.

وحفظ الأدب في المعاملة يحصل من تعظيم المطلوب في القلب، وتعظيم الحق وشعائره في التقوى، ومن يدنس تعظيم شواهد الحق بلا حرمة، لا يكن له اي نصيب في طريق التصوف، ولا يمنع السكر، والغلبة الطالب من حفظ الآداب بأي حال. لأن الأدب يكون لهم عادة، والعادة تكون قرين الطبيعة، وسقوط الطبائع عن الحيوان في أي حال محال ما دامت الحياة قائمة.

فطالما كانت أشخاصهم قائمة فإنهم في كل الأحوال، تجرى عليهم آداب المتابعة أحياناً بالتكلف، وأحياناً بدون تكلف.

فحين يكون حالهم الصحو. فإنهم يحفظون الآداب بالتكلف. وعندما يكون حالهم السكر. فإن الحق تعالى يحفظ الأدب عليهم وتارك الأدب لا يكون بأية صفة ولياً لأن المودة عند الآداب، وحسن الآداب صفة الأحباب.

فالتصوف أدب وأخلاق، في جميع الأوقات، وفي سائر الأحوال والمقامات. فمن لم يتحقق بآدابه وأخلاقه باء بالخسران.

يقول الجنيد: "الصوفي كالأرض، يطرح عليها كل قبيح، ولا يخرج منها إلا كل مليح".

ويقول أبو تراب النخشبي: "الصوفي لا يكدره شيء ويصفو به كل شيء".

فالتصوف باعتباره آداباً تراعى في كل لحظة وطرفة، وحركة وسكنة، تنعكس على نفس صاحبها. فتطبعها بطابعها الأخلاقي العام. بحيث يصبح صفاء في نفسه، وعالم صفاء فيمن يحيط به. إنه رحب الصدر، يسع الجميع برحابة صدره على أي أخلاق كانوا من البر أو الفجور. وهو معطاء من ذات نفسه. فهو لا يمنع بره وخيره ونوره من حوله. يشع هدىً وصلاحاً. وهو لا يبالى من نصيب بخيره من الناس أبراراً كانوا أم فجاراً. لأن بره يُطْغي ويغطى فيعمل في تحويل الناس عن غيهم وفجورهم.

ومن لم يستجب منهم فليس ذلك إليه. وإنما هو إليهم، وهذا متفق مع قول عائشة رضي الله عنها حين قيل لها: أخبرينا عن خلق النبي ﷺ؟ فقالت: اقرأ من القرآن قول الله تعالى: : ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [سورة الأعراف آية: ١٩٩]

ومن هنا كان المتصوف لا يركن إلى حسن الخلق فحسب، بل إنه لا يقنع إلا بما هو أحسن.

ولعل كل هذه الأمور، توضح للباحثين والدارسين، مدى الجهد في السلوك، للتخلق بالأخلاق الطيبة. وقد سئل محمد بن على القصاب أستاذ الجنيد، عن التصوف، ما هو؟ فقال: "أخلاق كريمة، ظهرت في زمان كريم، من رجل كريم، مع قوم كرام". أي أن التصوف من أهم أسسه العامة: التحلي بالأخلاق الفاضلة، التي حث عليها الإسلام.

وأخيراً فالتصوف عبارة عن أخلاق، والأخلاق عنصر لا بد أن يشترك مع كافة العناصر الصوفية، حتى يمكن أن تتكون منها حقيقة التصوف. فإذا خلا وقت من أوقات الصوفي، من هذا العنصر الأخلاقي كان ذلك ضعفاً في سلوكه، وخروجاً من مقتضى الطريق الصوفي الذي يلزمه.

وهذه الأخلاق ليست عملاً ظاهراً فحسب تتزين بالجوارح، وتتصور فيه الأعمال، ولكنه مسألة قلبية، تظهر آثارها على الجوارح والأعمال. وهذا سبب صعوبتها ومشقتها، والداعي لاستمرار اليقظة والجهد في معالجتها.

ويذكر العلماء: أن الاتجاه الأخلاقي في تعريف التصوف، شائع في الشرق، وفي الغرب، وهو أيضاً شائع في الزمن القديم، وفي الزمن الحديث. ومع

ذلك، فإنه لا يعبر عن التصوف تعبيراً دقيقاً، على أن هؤلاء الذين ذكروا التعاريف الأخلاقية للتصوف، ذكروا هم انفسهم تعاريف أخرى.

وذلك -على الأقل - يدل دلالة لا لبس فيها على أنهم: لم يروا كفاية الجانب الأخلاقي في تحديد التصوف وتعريفه.

على انه من الطبيعي: ان تكون الأخلاق الكريمة، أساساً من أسس التصوف، وأن تكون الأخلاق في أسمى صورة من صورها ثمرة للتصوف. ومن الطبيعي أيضاً ان تكون الأخلاق الكريمة شعار الصوفي فيما بين الأساس والثمرة.

فالأخلاق إذن ملازمة للتصوف والصوفي، ملازمة تامة، لا تتخلى عنه، ولا يتخلى عنها. ولكنه ليس معنى ذلك أنها هي التصوف.

والباحث في التصوف ومعانيه يجد أن هناك اتجاه أكثر شيوعاً من تعريف التصوف بالأخلاق: وهو تعريف التصوف بالزهد. وحينما يسمع كثير من الناس كلمة التصوف يفهم منها معنى "الزهد" ولا يفهم من كلمة "صوفي" إلا الزاهد في الدنيا. ويعد الصوفي التعلق بالدنيا رأس كل خطيئة، وترك الدنيا ينبوعاً لكل خير. والزهاد ثلاث طبقات.

الطبقة الأولى: المبتدئون. وهم أولئك الزهاد الذين قصرت يدهم عن الدنيا، وخلا قلبهم من طمع الدنيا مثل أيديهم. سئل الجنيد: ما الزهد؟ فقال: خلو اليد من ملك الدنيا، وخلو القلب من الطمع.

الطبقة الثانية: وهم المتحققون في الزهد الذين هم مصداق قول رويم بن احمد حيث يقول: "الزهد هو ترك حظوظ النفس من كل ما في الدنيا" ذلك لأن في الزهد لذة نفسية.

بمعنى أن الزهد يسبب راحة الخاطر، واستراحة الضمير. كما يجلب المدح، وإعجاب الناس بالنسبة للزاهد، ويجعله عزيزاً محترماً في نظرهم. فالزهد الواقعي بحسب ما يراه رويم يتحقق عندما يترك القلب كل لذة.

الطبقة الثالثة: طبقة الزهاد الخواص. الذين رموا كل شيء وراءهم ظهرياً، قال ذو النون المصري: الزهاد ملوك الآخرة، والعرفاء هم ملوك الزهاد.

وقال أيضاً: آية حب الله. هي أن يترك العبد كل ما يشغله عنه تعالى حتى يبقى هو شغل الله فقط.

وقال سفيان الثوري: الزاهد هو الذي يحقق الزهد بفعله في الدنيا، والمتزهد من كان زهده بلسانه.

وقال أيضاً: ليس الزهد في الدنيا ارتداء الخرقة، واكل خبز الشعير، ولكنه عدم تعلق القلب بالدنيا وتقصير الأمل.

وما من شك في أن الصوفي لا يتعلق قلبه بالدنيا، ولو كان عنده الآلاف والملايين. بيد أن الزهد في الدنيا شيء، والتصوف شيء آخر، ولا يلزم عن كون الصوفي زاهداً أن يكون التصوف هو الزهد.

ولخلط الناس بين الزهد، والعابد، والصوفي، حاول ابن سينا أن يفرق بينهم وبين أهداف كل منهم، يقول في كتابه: "الإشارات".

١- المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص باسم "الزاهد".

٢- المواظب على فعل العبادات، من القيام والصيام ونحوهما. يخص باسم "العابد".

٣- المنصرف بفكره إلى قدس الجبروت، مستديماً لشروق نور الحق في سره، يخص باسم "العارف".

والعارف عند ابن سينا هو الصوفي. ويتحدث ابن سينا - كما يذكر غيره- أن الزاهد قد يكون عابداً، والعابد قد يكون زاهداً، فيمتزج الزهد والعبادة في شخص واحد، ولا يكون بعبادته وزهده معاً، صوفياً، ولكن الصوفي لا محالة "زاهد عابد".

وهناك تعريفات كثيرة جاءت عن علماء الصوفية، يحسن أن نذكر بعضاً منها.

قال أبو سعيد الخراز المتوفي سنة ٢٦٨هـ. "الصوفي من صفى ربه قلبه، فامتلأ قلبه نوراً، ومن دخل في عين اللذة بذكر الله".

وقال الجنيد البغدادي المتوفي سنة ٢٩٧هـ: "التصوف هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به"..

وقال أبو بكر الكتاني المتوفي سنة ٣٢٢ هـ: "التصوف صفاء ومشاهدة".

وقال جعفر الخلدي المتوفي سنة ٣٤٨هـ: "التصوف طرح النفس في العبودية، والخروج من البشرية، والنظر إلى الحق بالكلية".

وهناك تعريفات أخرى كثيرة، يجدها الباحث منثورة في كتب التصوف.. وهي على كثرتها تعبر في أغلب الأحايين عن زاوية من زوايا التصوف، تتصل بالوسيلة، أو تتصل بالغاية.

والباحث في تعريفات التصوف الإسلامي يجد أنها تقوم على ما يلي:

١- تعريفات تتحدث عن البداية، ويقصد بها ما تحس النفس بفطرتها إلى أن هناك حقيقة تتوق إليها الروح، وتطلب السير إليها غير أن هذا لا يتأتى إلا لمن أوتي حظاً كبيراً من العزم وصدق التوبة.

٢- وهناك تعريفات تتحدث عن المجاهدات، ويقصد بها الجانب العملي في المجاهدة المرتبطة بالشريعة.

٣- وهناك تعريفات تتحدث عن المذاقات، ويقصد بها ثمرة المجاهدات المرجوة. إلا أن جميع التعريفات التي تتصل بالأخلاق والمقامات والأحوال تعتبر جماع التربية الخلقية الصوفية.

وذلك لأن إصلاح الباطن عند الصوفية يتوقف على ثلاثة أمور:

الأمر الأول: معرفة النفس ونوازعها ورغباتها.

الأمر الثاني: تطهير القلب، وتصفية الروح من الرذائل، وذلك عن طريق المجاهدات.

الأمر الثالث: التحلي بالفضائل والمكارم الخلقية، ومن شأن هذه الأخلاق والمقامات، أن تجعل من الصوفي إنساناً مشغول القلب بالله، مطيلاً للجلوس بين يديه، متنعماً بعز الطاعة له، شاعراً بالثقة والأمن واليقين في رحابه.

والأخلاق عند الصوفية، تصفية النفس، وتجملها بكل المكارم والفضائل الخلقية، وتزكيتها، بحيث تصبح النفس في جميع تصرفاتها، وفقاً لمراد الله تعالى.

من هنا كان كتاب: "عوارف المعارف" زاخراً بالمعارف التي ترشد إلى كل ما يفيد فمن لم يقرأ كتاب عوارف المعارف للسهروردى فقد جهل كثيراً من علم التصوف وأحوال أهل الطريق..

نسأل الله أن ينفع به.

الأستاذ الدكتور
أحمد عبد الرحيم السايح

المستشار
توفيق على وهبه

مقدمة المؤلف

الحمد لله العظيم شأنه ، القوى سلطانه ، الظاهر إحسانه ، الباهر حجته وبرهانه، المحتجب بالجلال والمنفرد بالكمال، والمتردى بالعظمة فى الآباد والآزال، لا يصوره وهم وخيال، ولا يحصره حد ومثال، ذى العز الدائم السرمدى، والملك القائم اليدمومى، والقدرة المتنع إدراك كنهها، والسطوة المستوعر طريق استيفاء وصفها،

نطقت الكائنات بأنه الصانع المبدع، ولاح من صفحات ذرات الوجود بأنه الخالق المخترع، وسم عقل الإنسان بالعجز والنقصان، وألزم فصيحات الالسن وصف الحصر فى حلبة البيان، وأحرقت سبحات وجهه الكريم أجنحة طائر الفهم، وسدت تعززا وجلالا مسالك الوهم، وأطرق طامح البصيرة تعظيما وإجلالا، ولم يجد من فرط الهيبة فى فضاء الجبروت مجالا ، فعاد البصر كليلا، والعقل عليلا، ولم ينتهج إلى كنه الكبرياء سبيلا.

فسبحان من عزت معرفته لولا تعريفه، وتعذر على العقول تحديده وتكييفه، ثم ألبس قلوب الصفوة من عباده ملابس العرفان، وخصهم من بين عباده بخصائص الإحسان، فصارت ضمائرهم من مواهب الأنس مملوءة، ومرائى قلوبهم بنور القدس مجلوة.

فتهيأت لقبول الإمداد القدسية، واستعدت لورود الأنوار العلوية، واتخذت من الأنفاس العطرية بالأذكار جلاسا، وأقامت على الظاهر والباطن من التقوى حراسا، وأشعلت فى ظلم البشرية من اليقين نبراسا، واستحقرت فوائد الدنيا ولذاتها، وأنكرت مصايد الهوى وتبعاتها، وامتطت غوارب الرغبوت والرهبوت، واستفرشت بعلو همتها بساط الملكوت، وامتدت إلى المعالى أعناقها، وطمحت إلى اللامع العلوى أحداقها، واتخذت من الملأ الأعلى مسامرا ومحاورا، ومن النور الأغر الأقصى مزاورا ومجاورا.

أجساد أرضية بقلوب سماوية، وأشباح فرشية بأرواح عرشية ، نفوسهم فى منازل الخدمة سيارة، وأرواحهم فى فضاء القرب طيارة، مذاهبهم فى العبودية مشهورة، وأعلامهم فى أقطار الأرض منشورة، يقول الجاهل بهم فقدوا وما فقدوا، ولكن سمت أحوالهم فلم يدركوا، وعلا مقامهم فلم يملكوا، كائنين بالجثمان، بائنين بقلوبهم عن أوطان الحدثان، لأرواحهم حول العرش تطواف، ولقلوبهم من خزائن البر أسعاف، يتنعمون بالخدمة فى ا لدياجر، ويتلذذون من وهج الطلب بظما الهواجر.

تسلوا بالصلوات عن الشهوات، وتعوضوا بحلاوة التلاوة عن اللذات، يلوح من صفحات وجوههم بشر الوجان، وينم على مكنون سرائرهم نضارة العرفان.

لا يزال فى كل عصر منهم علماء، بالحق دعاة للخلق، منحوا بحسن التابعة رتبة الدعوة، وعلوا للمتقين قدوة، فلا يزال تظهر فى الخلق آثارهم، وتزهر فى الآفاق أنوارهم.

من اقتدى بهم اهتدى، ومن أنكرهم ضل واعتدى.

فلله الحمد على ما هيأ للعباد من بركة خواص حضرته من أهل الوداد، والصلاة على نبيه ورسوله محمد، وآله وأصحابه الأكرمين الأمجاد.

ثم إن إيثارى لهدى هؤلاء القوم ، ومحبتى لهم علما بشرف حالهم، وصحة طريقتهم المبنية على الكتاب والسنة، المتحقق بهما من الله الكريم الفضل والمنة، حدانى أن أذب عن هذه العصابة بهذه الصبابة، وأؤلف أبوابا فى الحقائق والآداب، معرفة عن وجه الصواب فيما اعتمدوه، مشعرة بشهادة صريح العلم لهم فيما اعتقدوه، حيث كثر المتشبهون واختلفت أحوالهم، وتستر بزيهم المتسترون وفسدت أعمالهم، وسبق إلى قلب من لا يعرف أصول سلفهم سوء ظن، وكاد لا يسلم من وقيعة فيهم وطعن، ظنا منه أن حاصلهم راجع إلى مجرد رسم، وتخصصهم عائد إلى مطلق اسم.

ومما حضرنى فيه من النية، أن أكثر سواد القوم بالاعتزاء إلى طريقهم، والإشارة إلى أحوالهم، وقد ورد "من كثر سواد قوم فهو منهم" وأرجو من الله الكريم صحة النية فيه، وتخليصها من شوائب النفس.

وكل ما فتح الله تعالى على فيه ، منح من الله الكريم وعوارف، وأجل المنح عوارف المعارف.

والكتاب يشتمل على نيف وستين بابا . والله المعين .

فهذه الأبواب تحررت بعون الله تعالى، مشتملة على بعض علوم الصوفية وأحوالهم ومقاماتهم، وآدابهم وأخلاقهم، وغرائب مواجيدهم، وحقائق معرفتهم وتوحيدهم، ودقيق إشاراتهم، ولطيف إصطلاحاتهم.

فعلومهم كلها أنباء عن وجدان، واعتزاء إلى عرفان، وذوق تحقق بصدق الحال، ولم يف باستيفاء كنهه صريح المقال، لأنها مواهب ربانية، ومناهج حقانية، استنزلها صفاء السرائر، وخلوص الضمائر، فاستعصت بكنهها على الإشارة، وطفحت على العبارة، وتهادتها الأرواح بدلالة التسام والائتلاف، وكرعت حقائقها من بحر الألطاف، وقد اندرس كثير من دقيق علومهم، كما انطمس كثير من حقائق رسومهم.

وقد قال الجنيد رحمه الله : علمنا هذا قد طوى بساطة منذ كذا سنة، ونحن نتكلم في حواشيه.

بدا هذا القول منه في وقته مع قرب العهد بعلماء السلف وصالحي التابعين، فكيف بنا مع بعد العهد وقلة العلماء الزاهدين، والعارفين بحقائق علوم الدين.

والله المأمول أن يقابل جهد المقل بحسن القبول، والحمد لله رب العالمين.

الباب الأول
فى ذكر منشأ علوم الصوفية

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام ابو النجيب عبد القاهر بن عبد الله بن محمد السهروردى إملاء من لفظه فى شوال سنة ستين وخمسمائة، قال انبانا الشريف نور الهدى ابو طالب الحسين بن محمد الزينبى، قال أخبرتنا كريمة بنت احمد بن محمد المروزية المجاورة بمكة حرسها الله تعالى، قالت أخبرنا ابو الهيثم محمد بن مكى الكشميهنى، قال انبأنا ابو عبد الله محمد بن يوسف الفربرى، قال أخبرنا ابو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى، قال حدثنا ابو كريب، قال حدثنا ابو اسامة عن بريد عن ابى بردة عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: "إنما مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل اتى قوماً فقال يا قومى إنى رأيت الجيش بعينى، وإنى أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة من قومه فادلجوا، فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من اطاعنى فاتبع ما جئت به، ومثل من عصانى وكذب بما جئت به من الحق".

وقال ﷺ : "مَثلُ ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير اصاب أرضاً فكانت طائفة منها طيبة قبلت الماء فانبتت الكلا والعشب الكثير، وكانت منها طائفة اخاذات امسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وكانت منها طائفة اخرى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من تفقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به".

قال الشيخ : أعد الله تعالى لقبول ما جاء به رسول الله ﷺ أصفى القلوب وأزكى النفوس، فظهر تفاوت الصفاء واختلاف التزكية فى تفاوت الفائدة والنفع، فمن القلوب ما هو بمثابة الأرض الطيبة التى أنبتت الكلأ والعشب الكثير، وهذا مثل من انتفع بالعلم فى نفسه واهتدى، ونفعه علمه وهداه إلى الطريق القويم من متابعة رسول الله ﷺ .

ومن القلوب ما هو بمثابة الأخاذات، أى الغدران جمع أخاذة، وهو المصنع والغدير الذى يجتمع فيه الماء. فنفوس العلماء الزاهدين من الصوفية والشيوخ تزكت، وقلوبهم صفت فاختصت بمزيد الفائدة فصاروا أخاذات.

قال مسروق : صحبت أصحاب رسول الله ﷺ فوجدتهم كالأخاذات، لأن قلوبهم كانت واعية، فصارت أوعية للعلوم بما رزقت من صفاء الفهوم.

أخبرنا الشيخ الإمام رضى الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل القزوينى إجازة، قال أنبأنا أبو سعيد محمد الخليلى، قال أنبأنا القاضى أبو سعيد محمد الفرخزاذى، قال أنبأنا أبو اسحاق بن محمد، قال حدثنا أبى، قال حدثنا إبراهيم بن عيسى، قال: حدثنا على بن على، قال: حدثنا أو حمزة الثمالى، قال: حدثنى عبد الله بن الحسن، قال: حين نزلت هذه الآية: ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ [1] قال رسول الله ﷺ لعلي: «سألت الله سبحانه وتعالى أن يجعلها أذنك يا على»، قال على: فما نسيت شيئاً بعد وما كان لى أن انسى.

قال أبو بكر الواسطى : آذان وعت عن الله تعالى أسراره.

وقال أيضاً : واعية فى معادنها ، ليس فيها غير ما شهدته شىء، فهى الخالية عما سواه، فما اضطراب الطبائع إلا ضرب من الجهل.

فقلوب الصوفية واعية لأنهم زهدوا فى الدنيا بعد أن أحكموا أساس التقوى، فبالتقوى زكت نفوسهم، وبالزهد صفت قلوبهم، فلما عدموا

---

(١) سورة الحاقة: الآية ١٢.

شواغل الدنيا بتحقيق الزهد، انفتحت مسام بواطنهم، وسمعت آذان قلوبهم، وأعانهم على ذلك زهدهم فى الدنيا. فعلماء التفسير، وأئمة الحديث، وفقهاء الإسلام، احاطوا علماً بالكتاب والسنة، واستنبطوا منها الأحكام، وردوا الحوادث المتجددة إلى أصول من النصوص، وحمى الله بهم الدين.

وعرف علماء التفسير وجه التفسير، وعلم التأويل، ومذاهب العرب فى اللغة، وغرائب النحو والتصريف، وأصول القصص، واختلاف وجوه القراءة، وصنفوا فى ذلك الكتب، فاتسع بطريقتهم علوم القرآن على الأمة.

وأئمة الحديث ميزوا بين الصحاح والحسان، وتفردوا بمعرفة الرواة وأسامى الرجال، وحكموا بالجرح والتعديل، ليتبين الصحيح من السقيم، ويتميز المعوج من المستقيم، فيتحفظ بطريقتهم طريق الرواية والسند حفظاً للسنة.

وانتدب الفقهاء لاستنباط الأحكام، والتفريع فى المسائل، ومعرفة التعليل، ورد الفروع إلى الأصول بالعلل الجوامع، واستيعاب الحوادث بحكم النصوص.

وتفرع من علم الفقه والأحكام علم أصول الفقه، وعلم الخلاف، وتفرع من علم الخلاف علم الجدل. وأحوج علم أصول الفقه إلى شىء من علم أصول الدين، وكان من علمهم علم الفرائض، ولزم منه علم الحساب والجبر والمقابلة، إلى غير ذلك، فتمهدت الشريعة، وتأيدت ، واستقام الدين الحنيفى، وتفرع وتأصل الهدى ا لنبوى المصطفوى، فأنبتت أراضى قلوب العلماء الكلأ والعشب، بما قبلت من مياه الحياة من الهدى والعلم.

قال الله تعالى : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾[1].

قال ابن عباس رضى الله عنهما : الماء العلم ، والأدوية القلوب .

---

(١) سورة الرعد: الآية ١٧.

قال أبو بكر الواسطى ﷺ : خلق الله تعالى درة صافية، فلاحظها بعين الجلال، فذابت حياء منه، فسالت، فقال (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها) فصفاء القلوب من وصول ذلك الماء إليها.

وقال ابن عطاء: (أنزل من السماء ماء) هذا مثل ضربه الله تعالى للعبد، وذلك إذا سال السيل فى الأودية، لا يبقى فى الأودية نجاسة إلا كنسها وذهب بها، كذلك إذا سال النور الذى قسمه الله تعالى للعبد فى نفسه، لا تبقى فيه غفلة ولا ظلمة (أنزل من السماء ماء) يعنى قسمة النور (فسالت أودية بقدرها) يعنى فى القلوب الأنوار على ما قسم الله تعالى لها فى الأزل: (فأما الزبد فيذهب جفاء) فتصير القلوب منورة لا تبقى فيها جفوة (وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) تذهب البواطل وتبقى الحقائق.

وقال بعضهم: (أنزل من السماء ماء) أنواع الكرامات، فأخذ كل قلب بحظه ونصيبه، فسالت أودية قلوب علماء التفسير والحديث، والفقه بقدرها، وسالت أودية قلوب الصوفية من العلماء الزاهدين فى الدنيا، المتمسكين بحقائق التقوى بقدرها. فمن كان فى باطنه لوث محبة الدنيا من فضول المال والجاه ، وطلب المناصب والرفعة، سال وادى قلبه بقدره، فأخذ من العلم طرفاً صالحاً ولم يحط بحقائق العلوم، ومن زهد فى الدنيا اتسع وادى قلبه، فسالت فيه مياه العلوم، واجتمعت وصارت أخاذات.

قيل للحسن البصرى : هكذا قال الفقهاء، فقال : وهل رأيت فقيهاً قط، إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا.

فالصوفية أخذوا حظاً من علم الدراسة فأفادهم علم الدراسة العمل بالعلم، فلما عملوا بما علموا أفادهم العمل علم الوارثة، فهم مع سائر العلماء فى علومهم، وتميزوا عنهم بعلوم زائدة، هى علوم الوراثة، وعلم الوراثة هو الفقه فى الدين.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ ...﴾[1].

فصار الإنذار مستفادا من الفقه، والإنذار إحياء المنذر بماء العلم، والإحياء بالعلم رتبة الفقه فى الدين ، فصار الفقه فى الدين من أكمل المراتب وأعلاها، وهو علم العالم الزاهد فى الدنيا، المتقى، الذى يبلغ رتبة الإنذار بعلمه.

فمورد العلم والهدى رسول الله ﷺ أولاً، ورد عليه الهدى والعلم من الله تعالى، فارتوى بذلك ظاهرا وباطناً، فظهر من ارتواء ظاهره الدين، والدين هو الانقياد والخضوع، مشتق من الدون، فكل شىء أتضع فهو دون، فالدين ان يضع الإنسان نفسه لربه.

قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ...﴾[2].

فبالتفرق في الدين يستولى الذبول على الجوارح، وتذهب عنها نضارة العلم، والنضارة في الظاهر بتزيين الجوارح بالانقياد في النفس والمال، مستفاد من ارتواء القلب، والقلب في ارتوائه بالعلم بمثابة البحر، فصار قلب رسول الله ﷺ بالعلم والهدي بحرا مواجاً، ثم وصل من بحر قلبه إلى النفس، فظهر على نفسه الشريفة نضارة العلم وريه، فتبدلت نعوت النفس وأخلاقها، ثم وصل إلى الجوارح جدول فصارت ريانة ناضرة، فلما استتمت نضارة وامتلأت رياً بعثه الله تعالى إلى الخلق، فأقبل على الأمة بقلب مواج بمياه العلوم، واستقبل

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٢.
(٢) سورة الشورى: الآية ١٣.

جداول الفهوم، وجرى من بحره في كل جدول قسط ونصيب، وذلك القسط الواصل إلى الفهوم هو الفقه في الدين.

روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «ما عبد الله عز وجل بشيء أفضل من فقه في الدين، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، ولكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه».

حدثنا شيخ الإسلام أبو النجيب إملاء، قال حدثنا سعيد بن حفص، قال حدثنا أبو طالب الزيني، قال أخبرتنا ريمة بنت أحمد بن محمد المروزية، قالت أخبرنا أبو الهيثم، قال أخبرنا الفربري، قال أخبرنا البخاري، قال حدثنا ابن وهب، عن يونس، عن ابن شهاب، عن حميد بن عبد الرحمن، قال: سمعت معاوية خطيباً يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي».

قال الشيخ: إذا وصل العلم إلى القلب انفتح بصر القلب، فأبصر الحق والباطل، وتبين له الرشد من الغي.

ولما قرأ رسول الله ﷺ على الأعرابي «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره»، قال الأعرابي: حسبي حسبي، فقال رسول الله ﷺ: «فقه الرجل».

وروى عبد الله بن عباس: أفضل العبادة الفقه في الدين.

والحق سبحانه وتعالى جعل الفقه صفة القلب، فقال: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ ﴾[1] فلما فقهوا علموا، ولما علموا عملوا، ولما عملوا عرفوا، ولما عرفوا اهتدوا، فكل من كان أفقه كانت نفسه أسرع إجابة، وأكثر انقياداً لمعالم الدين، وأوفر حظاً من نور اليقين.

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٧٩.

فالعلم جملة موهوبة من الله للقلوب، والمعرفة تميز تلك الجملة، والهدى وجدان القلوب ذلك، فالنبي ﷺ لما قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم» أخبر أن وجد القلب النبوي العلم، وكان هادياً مهدياً، وعلمه صلوات الله عليه منهما وراثة معجونة فيه من آدم أبي البشر ﷺ حيث علم الأسماء كلها، والأسماء سمة الأشياء، فكرمه الله تعالى بالعلم.

وقال تعالى: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1].

فآدم لما ركب من العلم والحكمة صار ذا الفهم والفطنة والمعرفة، والرأفة واللطف، والحب والبغض، والفرح والغم، والرضا والغضب، والكياسة. ثم اقتضاه استعمال كل ذلك، وجعل لقلبه بصيرة واهتداء إلى الله تعالى بالنور الذي وهب له.

فالنبي ﷺ بعث إلى الأمة بالنور الموروث والموهوب له خاصة.

وقيل: لما خاطب الله السموات والأرض بقوله: «اتينا طوعاً أو كرهاً قالتا اتينا طائعين» نطق من الأرض وأجاب موضع الكعبة، ومن السماء ما يحاذيها.

وقد قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أصل طينة رسول الله ﷺ من سرة الأرض بمكة.

فقال بعض العلماء: هذا يشعر بأن ما أجاب من الأرض ذرة المصطفى محمد ﷺ، ومن موضع الكعبة دحيت الأرض، فصار رسول الله ﷺ هو الأصل في التكوين، والكائنات تبع له. وإلى هذا الإشارة بقوله ﷺ «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين»[2]، وفي رواية «بين الروح والجسد» وقيل لذلك سمي أمياً، لأن مكة أم القرى، وذرته أم الخليقة وتربة الشخص مدفنه، فكان يقتضي ان يكون مدفنه بمكة حيث كانت تربته منها، ولكن قيل الماء لما تموج رمى

---

(١) سورة العلق: الآية ٥.

(٢) أي قدر الله نبوته كما قدر الأشياء كلها.

الزبد إلى النواحي فوقعت جوهرة النبي ﷺ إلى ما يحاذي تربته بالمدينة، وكان رسول الله ﷺ مكيا مدنيا، حنينه إلى مكة، وتربته بالمدينة [(١)].

والإشارة فيما ذكرناه من ذرة رسول الله ﷺ هو ما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ...﴾[(٢)] ورد في الحديث أن الله تعالى مسح ظهر آدم وأخرج ذريته منه كهيئة الذر، استخرج الذر من مسام شعر آدم، فخرج الذر كخروج العرق.

وقيل: كان المسح من بعض الملائكة، فأضاف الفعل إلى المسبب.

وقيل: معنى القول بأنه مسح أي أحصى كما تحصى الأرض بالمساحة، وكان ذلك ببطن نعمان، وإذ بجنب عرفة بين مكة والطائف. فلما خاطب الذر وأجابوا ببلى كتب العهد في ورق أبيض، وأشهد عليه الملائكة، وألقم الحجر الأسود فكانت ذرة رسول الله ﷺ هي المحببة من الأرض، والعلم والهدى فيه معجونان، فبعث بالعلم والهدى موروثا له وموهوبا[(٣)].

---

(١) هذا تعسف فى التأويل لا مبرر له فلم يخلق من الطين، إلا آدم عليه السلام فالخلق على أربعة أصناف:

أ- من الطين لقوله جل وعز: ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝ ﴾ [سورة السجدة آية: ٧] وهو آدم عليه السلام.

ب - من أب بدون أم وهى حواء خلقت من آدم عليها السلام لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [سورة النساء آية: ١].

جـ - من أم بلا أب وهو المسيح عليه السلام لقوله جل وعلا: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [سورة التحريم آية: ١٢]. ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ ﴾ [سورة آل عمران آية: ٤٥]

د- من رجل وإمراة وهم سائر البشر ومنهم الأنبياء لقوله جل وعز: ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [سورة النساء آية: ١] أى من آدم وحواء ثم من جاءوا بعدهم وهكذا حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٧٢.

(٣) علم الرسول ﷺ من الله سبحانة وتعالى إما بطريق الوحى أو الإلهام.

وقيل: لما بعث الله جبرائيل وميكائيل ليقبضا قبضة من الأرض فأبت، حتى بعث الله تعالى عزرائيل، فقبض قبضة من الأرض، وكان إبليس قد وطئ الأرض بقدميه، فصار بعض الأرض بين قدميه، وبعض الأرض بين موضع اقدامه، فخلقت النفس مما مس قدم إبليس، فصارت مأوى الشر[١]، وبعضها لم يصل إليه قدم إبليس، فمن تلك التربة أصل الأنبياء والأولياء.

وكانت ذرة رسول الله ﷺ موضع نظر الله تعالى من قبضة عزرائيل، لم يمسها قدم إبليس، فلم يصبه حظ الجهل، بل صار منزوع الجهل، موفرا حظه من العلم، فبعثه الله تعالى بالهدى والعلم، وانتقل من قلبه إلى القلوب، ومن نفسه إلى النفوس، فوقعت المناسبة في أصل طهارة الطينة، ووقع التأليف بالتعارف الأول.

فكل من كان أقرب مناسبة بنسبة طهارة الطينة، كان أوفر حظا من قبول ما جاء به، فكانت قلوب الصوفية أقرب مناسبة، فأخذت من العلم حظا وافرا وصارت بواطنهم أخاذات، فعلموا وعملوا، كالأخاذ الذي يسقى منه ويزرع منه، وجمعوا بين فائدة علم الدراسة وعلم الوراثة بأحكام أساس التقوى.

ولما تزكت النفوس، انجلت مرايا قلوبهم، بما صقلها من التقوى، فانجلى فيها صور الأشياء على هيئتها وماهيتها، فبانت الدنيا بقبحها فرفضوها، وظهرت الآخرة بحسنها فطلبوها. فلما زهدوا في الدنيا، انصبت إلى بواطنهم أقسام العلوم انصبابا، وانضاف إلى علم الدراسة علم الوراثة.

---

(١) هذه امور غيبية لم يشهدها احد لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [سورة الكهف اية: ٥١]. فليس هناك دليل يسند مثل هذه الحكايات. وما ذنب الإنسان الذى خلقه الله مما مس قدم الشيطان حتى تكون نفسه ماوى للشر.

واعلم أن كل حال شريف نعزوه إلى الصوفية في هذا الكتاب، هو حال المقرب، والصوفي هو المقرب، وليس في القرآن اسم الصوفي، واسم الصوفي ترك ووضع للمقرب على ما سنشرح ذلك في بابه.

ولا يعرف في طرفي بلاد الإسلام شرقاً وغرباً هذا الاسم لأهل القرَب، وإنما يعرف للمترسمين وكم من الرجال المقربين في بلاد المغرب وبلاد تركستان وما وراء النهر لا يسمون صوفية، لأنهم لا يتزيون بزي الصوفية، ولا مشاحة في الألفاظ فيعلم أنا نعني بالصوفية المقربين.

فمشايخ الصوفية الذين أسماؤهم في الطبقات وغير ذلك من الكتب كلهم كانوا في طريق المقربين، وعلومهم علوم أحوال المقربين، ومن تطلع إلى مقام المقربين من جملة الأبرار هو متصوف ما لم يتحقق بحالهم، فإذا تحقق بحالهم صار صوفياً، ومن عداهما ممن تميز بزي ونسب إليهم فهو متشبه، وفوق كل ذي علم عليم.

الباب الثاني
في تخصص الصوفية بحسن الاستماع

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجي ب السهروردي إملاء، قال أنا أبو منصور المقرى، قال أنا الإمام الحافظ أبو بكر الخطيب، قال أنا أبو عمرو الهاشمي، قال أنا أبو على اللؤلؤى، قال أنا ابو داود السجستاني، قال حدثنا مسدد، قال حدثنا يحيى، عن شعبه، قال حدثني عمر بن سليمان من ولد عمر ابن الخطاب، عن عبد الرحمن بن أبان، عن أبيه، عن زيد بن ثابت، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نضر امرا سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره، فرُب حامل فقه إلى من هو افقه منه، ورُب حامل فقه وليس بفقيه».

اساس كل خير حسن الاستماع.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ...﴾[1].

يقول بعضهم: علامة الخير في السماع أن يسمع العبد بغناء أوصافه ونعوته ويسمعه بحق من حق.

وقال بعضهم: لو علمهم أهلاً للسماع لفتح آذانهم للاستماع. فمن تملكته الوساوس وغلب على باطنه حديث النفس لا يقدر على حسن الاستماع.

فالصوفية وأهل القرب لما علموا أن كلام الله تعالى ورسائله إلى عباده ومخاطباته إياهم، راوا كل آية من كلامه تعالى بحرا من ابحر العلم، بما تتضمن من ظاهر العلم وباطنه، وجليه وخفيه، وباباً من أبواب الجنة، باعتبار ما تنبه أو تدعو إليه من العمل.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٣.

وراوا كلام رسول الله ﷺ الذي لا ينطق به عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، من عند الله تعالى، يتعين الاستماع إليه، فكان من أهم ما عندهم الاستعداد للاستماع، وراوا أن حسن الاستماع قرع باب الملكوت، واستنزال بركة الرغبوت والرهبوت.

وراوا أن الوساوس أدخنة ثائرة من نار النفس الأمارة بالسوء، وقتام يتراكم من نفث الشيطان، وأن الخطوط العاجلة والأقسام الدنيوية التي هي مناط الهوى ومثار الردى، بمثابة الحطب الذي تزداد النار به تأججاً، ويزداد القلب به تحرجاً، فرفضوا الدنيا وزهدوا فيها.

فلما انقطعت عن نار النفس أحطابها، وفترت نيرانها، وقل دخانها، شهدت بواطنهم وقلوبهم ومصادر العلوم، فهيئوا مواردها بصفاء الفهوم، فلما شهدوا سمعوا. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[1].

قال الشبلي رحمه الله: موعظة القرآن لمن قلبه حاضر مع الله لا يغفل عنه طرفة عين.

قال يحيى بن معاذ الرازي: القلب قلبان:

قلب قد احتشى بأشغال الدنيا، حتى إذا حضر أمر من أمور الطاعة لم يدر صاحبه ما يصنع من شغل قلبه بالدنيا.

وقلب قد احتشى بأحوال الآخرة، حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر صاحبه ما يصنع لذهاب قلبه في الآخرة.

فانظر كم بين بركة تلك الأفهام الثابتة، وشؤم هذه الأشغال الفانية التي أقعدتك عن الطاعة.

وقال بعضهم: لمن كان له قلب سليم من الأغراض والأمراض.

---

(١) سورة ق: الآية ٣٧.

قال الحسين بن منصور: [1]لمن كان له قلب لا يخطر فيه إلا شهود الرب وأنشد:

أنعى إليك قلوباً طالما هطلت سحائب الوحي فيها أبحر الحكم

وقال ابن عطاء: قلب لاحظ الحق بعين التعظيم، فذاب له وانقطع له عما سواه.

وقال الواسطي: أي لذكرى لقوم مخصوصين لا لسائر الناس، لمن كان له قلب أي في الأزل وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ...﴾[2].

وقال أيضاً: المشاهدة تذهل، والحجبة تفهم، لأن الله تعالى إذا تجلى لشيء خضع له وخشع.

وهذا الذي قاله الواسطى صحيح في حق أقوام. وهذه الآية تحكم بخلاف هذا لأقوام آخرين، وهم أرباب التمكين، يجمع لهم بين المشاهدة والفهم. فموضع الفهم محل المحادثة والمكالمة، وهو سمع القلب، وموضوع المشاهدة بصر القلب. وللسمع حكة وفائدة، وللبصر حكمة وفائدة. فمن هو في سكر الحال يغيب سمعه في بصره، ومن هو في حال الصحو والتمكين لا يغيب سمعه في بصره، لتملكه ناصية الحال، ويفهم بالوعاء الوجودى المستعد المقال، لأن الفهم لفهم مورد الإلهام والسماع.

والإلهام والسماع يستدعيان وعاء وجودياً، وهذا الوجود موهوب منشأ إنشاء ثانياً للتمكن في مقام الصحو، وهو غير الوجود الذي يتلاشى عند لمعان نور المشاهدة لمن حاز على ممر الفناء إلى مقار البقاء.

---

(١) الحلاج.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٢٢.

وقال ابن سمعون: إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب يعرف آداب الخدمة وآداب القلب، وهي ثلاثة أشياء:

فالقلب إذا ذاق طعم العبادة عتق من رق الشهوة، فمن وقف على شهوته وجد ثلث الأدب.

ومن افتقر إلى ما لم يجد من الأدب بعد الاشتغال بما وجد فقد وجد ثلثي الأدب.

والثالث امتلاء القلب بالذي بدأ بالفضل عند الوفاء تفضلاً، فقد وجد كل الأدب.

وقال محمد بن على الباقر: موت القلب من شهوات النفس، فكلما رفض شهوة نال من الحياة بقسطها، فالسماع للأحياء لا للأموات. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ... ﴾[1].

قال سهل بن عبد الله: القلب رقيق تؤثر فيه الخطوات المذمومة، وأثر القليل عليه كثير. قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾[2]، فالقلب عمال لا يفتر، والنفس يقظانه لا ترقد، فإن كان العبد مستمعاً إلى الله تعالى، وإلا فهو مستمع إلى الشيطان والنفس.

فكل شيء سد باب الاستماع فمن حركة النفس، وفي حركتها يطرق الشيطان. وقد ورد: لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السموات.

وقال الحسين: بصائر المبصرين، ومعارف العارفين، ونور العلماء الربانيين، وطرق السابقين الناجين، والأزل والأبد وما بينهما من الحدث لمن كان له قلب أو ألقى السمع.

---

(١) سورة النمل: الآية ٨٠.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٣٦.

وقال ابن عطاء: هو القلب الذي يلاحظ الحق ويشاهده ولا يغيب عنه خطرة ولا فترة، فيسمع به، بل يسمع منه، ويشهد به، بل يشهده، فإذا لاحظ القلب الحق بعين الجلال، فزع وارتعد، وإذا طالعه بعين الجمال هدأ واستقر.

وقال بعضهم: لمن كان له قلب بصير يقوى على التجريد مع الله تعالى، والتفريد له، حتى يخرج من الدنيا والخلق والنفس، فلا يشتغل بغيره، ولا يركن إلى سواه، فقلب الصوفي مجرد عن الاكوان، ألقى سمعه، وشهد بصره.

فسمع المسموعات، وأبصر المبصرات، وشاهد المشهودات، لتخلصه إلى الله تعالى، واجتماعه بين يدي الله. والأشياء كلها عند الله، وهو عنده، فسمع وشاهد، فأبصر وسمع جملها، ولم يسمع ويشاهد تفاصيلها، لأن الجمل تدرك لسعة عين الشهود، والتفاصيل لا تدرك لضيق وعاء الوجود. والله تعالى هو العالم بالجمل والتفاصيل.

وقد مثل بعض الحكماء تفاوت الناس في الاستماع وقال: إن الباذر خرج ببذره فملأ منه كفه، فوقع منه شيء على ظهر الطريق فلم يلبث أن انحط عليه الطير فاختطفه، ووقع منه شيء على الصفوان وهو الحجر الأملس عليه تراب يسير وندى قليل فنبت، حتى إذا وصلت عروقه إلى الصفا لم تجد مساغاً تتنفذ فيه فيبس.

وقع منه شيء في أرض طيبة فيها شوك فنبت، فلما ارتفع خنقه الشوك فأفسده واختلط به، ووقع منه شيء على أرض طيبه ليست على ظهر الطريق ولا على الصفوان ولا فيها شوك فنبت ونما وصلح.

فمثل الباذر مثل الحكيم، ومثل البذر كمثل صواب الكلام، ومثل ما وقع على ظهر الطريق مثل الرجل يسمع الكلام وهو لا يريد أن يسمعه، فما يلبث الشيطان أن يختطفه من قلبه فينساه.

ومثل الذي وقع على الصفوان مثل الرجل يستمع الكلام فيستحسنه ثم تفضي الكلمة إلى قلب ليس فيه عزم على العمل فينسخ من قلبه.

ومثل الذي وقع في أرض طيبه فيها شوك، مثل الرجل يسمع الكلام وهو ينوي أن يعمل به، فإذا اعترضت له الشهوات قيدته عن النهوض بالعمل، فيترك ما نوى عمله لغلبة الشهوة، كالزرع يختنق بالشوك.

ومثل الذي وقع في أرض طيبه مثل المستمع الذي ينوي عمله فيفهمه ويعمل به ويجانب هواه.

وهذا الذي جانب الهوى انتهج سبيل الهدى هو الصوفي، لأن للهوى حلاوة والنفس إذا تشربت حلاوة الهوى فهى تركن إليه وتستلذه، واستلذاذ الهوى هو الذي يخنق النبت كالشوك، وقلب الصوفي نازله حلاوة الحب الصافي، والحب الصافي تعلق الروح بالحضرة الإلهية، ومن قوة انجذاب الروح إلى الحضرة الإلهية بداعية الحب تستتبع القلب والنفس.

وحلاوة الحب للحضرة الإلهية تغلب حلاوة الهوى، لأن حلاوة الهوى كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، لكونها لا ترتقي عن حد النفس، وحلاوة الحب كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، لأنها متأصلة في الروح، فرعها عند الله تعالى وعروقها ضاربة في أرض النفس، فإذا سمع الكلمة من القرآن أو من كلام رسول الله ﷺ يتشربها بالروح والقلب والنفس، ويفديها بكليته ويقول:

أشم منك نسيماً لست اعرفه ... أظن الماء جرت فيك أردانا

فتعمه الكلمة وتشمله، وتصير كل شعرة منه سمعاً، وكل ذرة منه بصراً، فيسمع الكل بالكل، ويبصر الكل بالكل، ويقولون:

إن تأملتكم فكلي عيون ... أو تذكرتكم فكلي قلوب

قــال الله تعــالى: ﴿ ... فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[1].

قال بعضهم: اللب والعقل مائة جزء، تسعة وتسعون في النبي ﷺ وجزء في سائر المؤمنين، والجزء الذي في سائر المؤمنين أحد وعشرون سهماً، فسهم يتساوى المؤمنون كلهم فيه، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وعشرون جزءاً يتفاضلون فيها على مقادير حقائق إيمانهم.

قيل: في هذه الآية فضيلة رسول الله ﷺ، أي الأحسن ما يأتي به، لأنه لما وقعت له صحبة التمكين، ومقارنة الاستقرار قبل خلق الكون، ظهرت عليه الأنوار في الأحوال كلها، وكان معه أحسن الخطاب، وله السبق في جميع المقامات. ألا تراه ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون» يعني الآخرون وجوداً، السابقون في الخطاب الأول في الفضل في محل القدس.

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ ... ﴾[2].

قال الجنيد: تنسموا روح ما دعاهم إليه، فأسرعوا إلى محو العلائق الشغلة، وهجموا بالنفوس على معانقة الحذر، وتجرعوا مرارة المكابدة، وصدقوا الله في المعاملة، وأحسنوا الأدب فيما توجهوا إليه، وهانت عليهم المصائب، وعرفوا قدر ما يطلبون، وسجنوا هممهم عن التفلت إلى مذكور سوى وليهم، فحيوا حياة الأبد بالحي الذي لم يزل ولا يزال.

وقال الواسطي رحمه الله تعالى: حياً بما تصفيها عن كل معلول لفظاً وفعلاً.

---

(١) سورة الزمر: الآيات ١٧ - ١٨.
(٢) سورة الأنفال: الآية ٢٤.

وقال بعضهم: استجيبوا لله بسرائركم، وللرسول بظواهركم، فحياة النفوس بمتابعة الرسول ﷺ، وحياة القلوب بمشاهدة الغيوب، وهو الحياء من الله تعالى برؤية التقصير.

وقال ابن عطاء: في هذه الآية الاستجابة على أربعة أوجه: أولها إجابة التوحيد، والثاني إجابة التحقيق، والثالث إجابة التسليم، والرابع إجابة التقريب. فالاستجابة على قدر السماع، والسماع من حيث التفهم، والفهم على قدر المعرفة بقدر الكلام، والمعرفة بالكلام على قدر المعرفة والعلم بالمتكلم، ووجوه الفهم لا تنحصر، لأن وجوه الكلام لا تنحصر.

قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾[1] فالله تعالى في كل كلمة من القرآن كلماته التي ينفد دون نفاذها، فكل الكلام كلمة نظرا إلى ذات التوحيد، وكل كلمة كلمات نظرا لسعة العلم الأزلي.

حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردي، قال: أنبأنا الرئيس أبو علي بن نبهان، قال: أنا الحسن بن شاذان، قال: أنا دعلج بن أحمد، قال: أنا أبو الحسن ابن عبد العزيز البغوي، قال: أنا أبو عبيد بن القاسم بن سلام، قال: حدثنا حجاج عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن الحسن، يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «ما نزل من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع»، فقال: فقلت يا أبا سعيد ما المطلع؟ قال: يطلع قوم يعملون به. قال أبو عبيد: أحسب أن قول الحسن هذا إنما ذهب إلى قول عبد الله ابن مسعود، قال أبو عبيد، حدثني حجاج، عن شعبة، عن عمرو بن مرة، عن مرة، عن عبد الله بن مسعود، قال: ما من حرف أو آية إلا وقد عمل بها قوم أو لها قوم سيعملون بها. فالمطلع المصعد يصعد إليه من معرفة علمه، فيكون المطلع الفهم يفتح الله تعالى على كل قلب بما يرزق من النور.

---

(١) سورة الكهف: الآية ١٠٩.

واختلف الناس في معنى الظهر والبطن.

قال قوم: الظهر لفظ القرآن، والبطن تأويله.

وقيل: الظهر صورة القصة مما أخبر الله تعالى عن غضبه على قوم وعقابه إياهم، فظاهر ذلك إخبار عنهم، وباطنه عظة وتنبيه لمن يقرأ ويسمع من الامة.

وقيل: ظاهره تنزيله الذي يجب الإيمان به، وباطنه وجوب العمل به.

وقيل: ظهره تلاوته كما انزل. قال الله تعالى: ﴿ ...وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴾[1].

وبطنه التدبر والتفكير فيه. قال الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[2].

وقيل: قوله لكل حرف حد، أي في التلاوة لا يجاوز المصحف الذي هو الإمام، وفي التفسير لا يجاوز المسموع المنقول.

وفرق بين التفسير والتأويل. فالتفسير علم نزول الآية وشأنها وقصتها والأسباب التي نزلت فيها، وهذا محظور على الناس كافة القول إلا بالسماع والأثر. وأما التأويل فصرف الآية إلى معنى تحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه يوافق الكتاب والسنة. فالتأويل يختلف باختلاف حال المؤول على ما ذكرناه من صفاء الفهم ورتبة المعرفة ومنصب القرب من الله تعالى.

قال ابو الدرداء: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة.

فما اعجب قول عبد الله بن مسعود: ما من آية إلا ولها قوم سيعملون بها.

---

(١) سورة المزمل: الآية ٤.
(٢) سورة ص: الآية ٢٩.

وهذا الكلام محرض لكل طالب صاحب همة أن يصفي موارد الكلام، وبفهم دقيق معانيه وغامض أسراره من قلبه.

فللصوفي بكمال الزهد في الدنيا، وتجريد القلب عما سوى الله تعالى، مطلع من كل آية، وله بكل مرة في التلاوة مطلع جديد وفهم عتيد، وله بكل فهم عمل جديد، ففهمهم يدعو إلى العمل، وعملهم يجلب صفاء الفهم ودقيق النظر في معاني الخطاب. فمن العلم علم، ومن العلم عمل، والعلم والعمل يتناوبان فيه.

وهذا العمل آنفاً إنما هو عمل القلوب، وعمل القلوب غير عمل القالب، وأعمال القلوب للطفها وصداقتها مشاكلة للعلوم، لأنها نيات وطويات وتعلقات روحية، وتأدبات قلبية، ومسامرات سرية.

وكلما أتوا بعمل من هذه الأعمال رفع لهم علم من العلم، واطلعوا على مطلع من فهم الآية جديد. ويخالج سرى أن يكون المطلع ليس بالوقوف بصفاء الفهم على دقيق المعنى وغامض السر في الآية، ولكن المطلع أن يطلع عند كل آية على شهود المتكلم بها، لأنها مستودع وصف من أوصافه، ونعت من نعوته، فيتجدد له التجليات بتلاوة الآيات وسماعها، ويصير له مراء منبئة عن عظيم الجلال.

ولقد نقل عن جعفر الصادق رضى الله عنه أنه قال: لقد يجلي الله تعالى لعباده في كلامه ولكن لا يبصرون، فيكون كل آية مطلع من هذا الوجه، فالحد حد الكلام، والمطلع الترقي عن حد الكلام إلى شهود المتكلم.

وقد نقل عن جعفر الصادق أيضاً أنه خر مغشياً عليه وهو في الصلاة، فسئل عن ذلك فقال: ما زلت أردد الآية حتى سمعتها من المتكلم بها.

فالصوفي لما لاح له نور ناصية التوحيد، والقى سمعه عند سماع الوعد والوعيد، وقلبه بالتخلص عما سوى الله تعالى، صار بين يدي الله حاضراً شهيداً يرى لسانه أو لسان غيره فى التلاوة كشجرة موسى عليه السلام

حيث أسمعه الله منها خطابه إياه بأني أنا الله. فإذا كان سماعه من الله تعالى واستماعه إلى الله، صار سمعه بصره، وبصره سمعه، وعلمه عمله، وعمله علمه، وعاد آخره أوله، وأوله آخره. ومعنى ذلك أن الله تعالى خاطب الذر بقوله.

ويحتاج المطالع للعلوم والأخبار وسير أهل الصلاح وحكاياتهم وأنواع الحكم والأمثال التي فيها نجاة من عذاب الآخرة أن يكون في ذلك كله متأدباً بآداب حسن الاستماع، لأنه نوع من ذلك.

وكما أن القلب استعد بحسن الاستماع بالزهادة والتقوى حتى أخذ من كل ما سمعه أحسنه فيكون آخذاً بالمطالعة من كل شيء أحسنه.

ومن الأدب في المطالعة أن العبد إذا أراد أن يطالع شيئاً من الحديث والعلم يعلم أنه قد تكون مطالعة ذلك بداعية النفس وقلة صبرها على الذكر والتلاوة والعمل فتستروح بالمطالعة كما تتراوح بمجالسة الناس ومكالمتهم.

فليتفقد المتفطن نفسه في ذلك، ولا يستحلى مطالعة الكتب إلى حد يأخذ ذلك من وقته، ويراعي الإفراط فيه، فإذا أراد مطالعة كتاب أو شيء من العلم لا يبادر عليه إلا بعد التثبت والإنابة والرجوع إلى الله تعالى، وطلب التأييد من رحمة الله تعالى فيه، فإنه قد يرزق بالمطالعة ما يكون من مزيد حاله، ولو قدم الاستخارة لذلك كان حسناً، فإن الله تعالى يفتح عليه باب الفهم والتفهيم موهبة من الله، زيادة على ما يتبين من صورة العلم، فللعلم صورة ظاهرة وسر باطن وهو الفهم.

والله تعالى نبه على شرف الفهم بقوله: ﴿ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ... ﴾[1] أشار إلى الفهم بمزيد اختصاص وتمييز عن الحكم والعلم. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ﴾[1].

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٧٩.

فإن كان المسمع هو الله تعالى يسمع تارة بواسطة اللسان، وتارة بما يرزق بمطالعة الكتب من التبيان، فصار ما يفتح الله تعالى بمطالعة الكتب على معنى ما يرزق من المسموع ببركة حسن الاستماع، ليتفقد العبد حاله في ذلك، ويتعلم علمه وأدبه، فإنه باب كبير من أبواب الخير، وعمله صالح من أعمال المشايخ والصوفية والعلماء الزاهدين المتبتلين لاستفتاح أبواب الرحمة والمزيد من كل شيء ينفع سلوك الآخرة.

---

(١) سورة فاطر: الآية ٢٢.

الباب الثالث
في بيان فضيلة علوم الصوفية والإشارة إلى أنموذج منها

حدثنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردي رحمه الله، قال أنبأنا أبو عبد الرحمن الصوفي، قال: أنا عبد الرحمن بن محمد، قال: أنا أبو محمد عبد الله بن أحمد السرخسي، قال: أنا أبو عمران السمرقندي، قال: أنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، قال: حدثنا نعيم بن حماد، قال: حدثنا بقية عن الأحوص بن حكيم، عن أبيه قال: سأل رجل النبي ﷺ عن الشر فقال: «لا تسألوني عن الشر وسلوني عن الخير، يقولها ثلاثاً، ثم قال: إن شر الشر شرار العلماء، وإن خير الخير خيار العلماء».

فالعلماء أدلاء الأمة، وعمد الدين، وسرج ظلمات الجهالات الجبلية، ونقباء ديوان الإسلام، ومعادن حكم الكتاب والسنة، وأمناء الله تعالى في خلقه وأطباء العباد، وجهابذة الملة الحنفية، وحملة عظيم الأمانة. فهم أحق الخلق بحقائق التقوى، وأحوج العباد إلى الزهد في الدنيا، لأنهم يحتاجون إليها لنفسهم ولغيرهم، ففسادهم فساد متعمد، وصلاحهم صلاح متعد.

قال سفيان بن عيينة: أجهل الناس من ترك العمل بما يعلم، وأعلم الناس من علم بما يعلم، وأفضل الناس أخشعهم لله تعالى.

وهذا قول صحيح، يحكم بأن العالم إذا لم يعمل بعمله فليس بعالم، فلا يغرك تشدقه واستطالته، وحذاقته وقوته في المناظرة والمجادلة، فإنه جاهل وليس بعالم، إلا أن يتوب الله عليه ببركة العلم، فإن العلم في الإسلام لا يضيع أهله، ويرجى عود العالم ببركة العلم.

والعلم فريضة وفضيلة، فالفريضة ما لا بد للإنسان من معرفته، ليقوم بواجب حق الدين. والفضيلة ما زاد على قدر حاجته مما يكسبه

فضيلة في النفس موافقة للكتاب والسنة. وكل علم لا يوافق الكتاب والسنة، وما هو مستفاد منهما، أو معين على فهمهما، أو مستند إليهما كائناً ما كان، فهو رذيلة وليس بفضيلة، يزداد الإنسان به هواناً ورذيلة في الدنيا والآخرة.

فالعلم الذي هو فريضة لا يسع الإنسان جهله، على ما حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب، قال: أنا الحافظ أبو القاسم المستملي، قال: أنا الشيخ العالم أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، قال: أنا أبو محمد عبد الله ابن يوسف الأصفهاني، قال أنا أبو سعيد بن الأعرابي، قال: حدثنا جعفر بن عامر العسكري، قال: حدثنا الحسن بن عطية، قال: حدثنا أبو عاتكة، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ «اطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم».

واختلف العلماء في العلم الذي هو فريضة.

قال بعضهم: هو طلب علم الإخلاص، ومعرفة آفات النفوس وما يفسد الأعمال، لأن الإخلاص مأمور به، كما أن العمل مأمور به. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ ...﴾[1] .

فالإخلاص مأمور به. وخدع النفس وغرورها ودسائسها وشهواتها الخفية تخرب مباني الإخلاص المأمور به، فصار علم ذلك فرضاً حيث كان الإخلاص فرضاً، وما لا يصل العبد إلى الفرض إلا به صار فرضاً.

وقال بعضهم: معرفة الخواطر وتفصيلها فريضة، لأن الخواطر هي أصل الفعل ومبدؤه ومنشؤه، وبذلك يعلم الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان، فلا يصح الفعل إلا بصحتها، فصار علم ذلك فرضاً حتى يصح الفعل من العبد لله.

---

(١) سورة البينة: الآية ٥.

وقال بعضهم: هو طلب علم الوقت.

وقال سهل بن عبد الله: هو طلب علم الحال، يعني حكم حاله الذي بينه وبين الله تعالى في دنياه وأخرته.

وقيل: هو طلب علم الحلال حيث كان أكل الحلال فريضة. وقد ورد طلب الحلال فريضة بعد الفريضة، فصار علمه فريضة من حيث إنه فريضة.

وقيل: هو طلب علم الباطن، وهو ما يزداد به العبد يقيناً. وهذا العلم هو الذي يكتسب بالصحبة ومجالسة الصالحين من العلماء الموقنين، والزهاد المقربين، الذين جعلهم الله تعالى من جنوده، يسوق الطالبين إليهم، ويقويهم بطريقتهم، ويرشدهم بهم، فهم وارث علم النبي عليه السلام، ومنهم يتعلم علم اليقين.

وقال بعضهم: هو علم البيع والشراء، والنكاح والطلاق، إذا أراد الدخول في شيء من ذلك يجب عليه طلب علمه.

وقال بعضهم: هو أن يكون العبد يريد عملاً يجهل ما لله عليه في ذلك، فلا يجوز له أن يعمل برأيه، إذ هو جاهل فيما له وعليه في ذلك، فيراجع عالماً يسأله عنه ليجيبه على بصيرة ولا يعمل برأيه، وهذا علم يجب طلبه حيث جهل.

وقال بعضهم: طلب علم التوحيد فرض، فمن قائل يقول طريقه النظر والاستدلال، ومن قائل يقول إن طريقه النقل.

وقال بعضهم: إن كان العبد على سلامة الباطن وحسن الاستسلام والانقياد في الإسلام، ولا يحيك في صدره شيء فهم سالم، فإن حاك في صدره شيء او توسوس بشيء يقدح في العقدية، أو ابتلي بشبهة لا تؤمن غائلتها أن

تجره إلى بدعة أو ضلالة، فيجب عليه أن يستكشف عن الاشتباه، ويراجع أهل العلم ومن يفهمه طريق الصواب.

وقال الشيخ أبو طالب المكي رحمه الله: هو علم الفرائض الخمس التي بني عليها الإسلام، لأنها افترضت على المسلمين، وإذا كان عملها فرضاً صار علم العمل بها فرضاً. وذكر أن علم التوحيد داخل في ذلك، لأن أولها الشهادتان، والإخلاص داخل في ذلك، لأن ذلك من ضرورة الإسلام. وعلم الإخلاص داخل في صحة الإسلام.

وحيث أخبر رسول الله ﷺ: أنه فريضة على كل مسلم يقتضي أن لا يسع مسلماً جهله، وكل ما تقدم من الأقاويل أكثرها ما يسع المسلم جهله لأنه قد لا يعلم علم الخواطر، وعلم الحال، وعلم الحلال بجميع وجوهه، وعلم اليقين المستفاد من علماء الآخرة كما ترى، وأكثر المسلمين على الجهل بهذه الأشياء. ولو كانت هذه الأشياء فرضت عليهم لعجز عنها أكثر الخلق إلا ما شاء الله.

وميلي في هذه الأقاويل إلى قول الشيخ أبي طالب أكثر، وإلى قول من قال يجب عليه علم البيع والشراء والنكاح والطلاق إذا أراد الدخول فيه. وهذا لعمري فرض على المسلم علمه، وهكذا الذي قاله الشيخ أبو طالب. وعندي في ذلك حد جامع لطلب العلم المفترض، والله أعلم، فأقول:

العلم الذي طلبه فريضة على كل مسلم، علم الأمر والنهي، والمأمور ما يثاب على فعله ويعاقب على تركه، والنهي ما يعاقب على فعله ويثاب على تركه. والمأموريات والمنهيات منها ما هو مستمر لازم للعبد بحكم الإسلام، ومنها ما يتوجه الأمر فيه والنهي عنه عند وجود الحادثة.

فما هو لازم مستمر لزومه متوجه بحكم الإسلام علمه به واجب من ضرورة الإسلام، وما يتجدد بالحوادث ويتوجه الأمر والنهي فيه فعلمه عند

تجدده فرض، لا يسع مسلما على الإطلاق أن يجهله. وهذا الحد أعم من الوجوه التي سبقت والله أعلم.

ثم إن المشايخ من الصوفية وعلماء الآخرة الزاهدين في الدنيا شمروا عن ساق الجد في طلب العلم المفترض حتى عرفوه، وأقاموا الأمر والنهي، وخرجوا من عهدة ذلك بحسن توفيق الله تعالى. فلما استقاموا في ذلك متابعين لرسول الله ﷺ حيث أمره الله تعالى بالاستقامة فقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ...﴾[1] فتح الله عليهم أبواب العلوم التي سبق ذكرها.

قال بعضهم: من يطيق مثل هذه المخاطبة بالاستقامة إلا من أيد من المشاهدات القوية، والأنوار البينة، والآثار الصادقة، بالتثبيت ببرهان عظيم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ ﴾[2] ثم حفظ في وقت المشاهدة ومشافهة الخطاب، وهو المزين بمقام القرب، والمخاطب على بساط الأنس محمد ﷺ، وبعد ذلك خوطب بقوله: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ...﴾ ولولا هذه المقامات ما أطاق الاستقامة التي أمر بها.

قيل لأبي حفص: أي الأعمال أفضل؟

قال: الاستقامة، لأن النبي ﷺ يقول: «استقيموا ولن تحصوا».

وقال جعفر الصادق في قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ...﴾ أى افتقر إلى الله بصحة العزم.

ورأى بعض الصالحين رسول الله ﷺ في المنام قال: قلت يا رسول الله روي عنك أنك قلت شيبتنى سورة هود وأخواتها، فقال نعم، قال: فقلت له: ما الذي شيبك منها، قصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ فقال لا، ولكن قوله: : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ...﴾.

---

(١) سورة هود: الآية ١١٢.
(٢) سورة الاسراء: الآية ٧٤.

فكما أن النبي ﷺ بعد مقدمات المشاهدات خوطب بهذا الخطاب، وطولب بحقائق الاستقامة، فكذلك علماء الآخرة الزاهدون ومشايخ الصوفية المقربون، منحهم الله تعالى من ذلك بقسط ونصيب، ثم ألهمهم طلب النهوض بواجب حق الاستقامة، ورأوا الاستقامة أفضل مطلوب وأشرف مأمور.

قال أبو علي الجوزجاني: كن طالب الاستقامة لا طالب الكرامة، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة وربك يطلب منك الاستقامة.

وهذا الذي ذكره أصل كبير في الباب، وسر غفل عن حقيقته كثير من أهل السلوك والطلب، وذلك أن المجتهدين والمتعبدين سمعوا بسير الصالحين المتقدمين، وما منحوا به من الكرامات وخوارق العادات، فأبداً نفوسهم لا تزال تتطلع إلى شيء من ذلك، ويحبون أن يرزقوا شيئاً من ذلك.

ولعل أحدهم يبقى منكسر القلب، متهماً لنفسه في صحة عمله، حيث لم يكشف بشيء من ذلك، ولو علموا سر ذلك لهان عليهم الأمر فيه، فيعلم أن الله سبحانه وتعالى قد يفتح على بعض المجتهدين الصادقين من ذلك باباً. الحكمة فيه أن يزداد بما يرى من خوارق العادات وآثار القدرة يقيناً، فيقوى عزمه على الزهد في الدنيا، والخروج من دواعي الهوى. وقد يكون بعض عباده يكاشف بصرف اليقين، ويرفع عن قلبه الحجاب.

ومن كوشف بصرف اليقين استغنى بذلك عن رؤية خوارق العادات، لأن المراد منها كان حصول اليقين وقد حصل اليقين، فلو كوشف هذا المرزوق صرف اليقين بشيء من ذلك ما ازداد يقيناً، فلا تقتضي الحكمة كشف القدرة بخوارق العادات لهذا الموضع لاستغنائه، وتقتضي الحكمة كشف ذلك للآخر لموضع حاجته، فكأن هذا الثاني يكون أتم استعداداً وأهلية من الأول حيث رزق حاصل ذلك وهو صرف اليقين بغير واسطة من رؤية قدره، فإن فيه آفة وهو العجب، فأغنى عن رؤية شيء من ذلك.

فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة فهي كل الكرامة. ثم إذا وقع في طريقة شيء من ذلك جاز وحسن، وإن لم يقع فلا يبالى ولا ينقص بذلك، وإنما ينقص بالإخلال بواجب حق الاستقامة. فليعلم هذا لأنه اصل كبير للطالبين.

فالعلماء الزاهدون ومشايخ الصوفية والمقربون حيث أكرموا بالقيام بواجب حق الاستقامة، رزقوا سائر العلوم التي اشار إليها المتقدمون كما ذكرنا، وزعموا أنها فرض، فمن ذلك علم الحال، وعلم القيام، وعلم الخواطر.

وسنشرح علم الخواطر وتفصيلها في باب إن شاء الله تعالى، وعلم اليقين، وعلم الإخلاص، وعلم النفس ومعرفتها ومعرفة اخلاقها.

وعلم النفس ومعرفتها من اعز علوم القوم، وأقوم الناس بطريق المقربين والصوفية أقومهم بمعرفة النفس، وعلم معرفة أقسام الدنيا، ووجود دقائق الهوى، وخفايا شهوات النفس وشرها وشرها، وعلم الضرورة ومطالبة النفس بالوقوف على الضرورة قولاً وفعلاً، ولبساً وخلعاً، واكلاً ونوماً.

ومعرفة حقائق التوبة، وعلم خفي الذنوب، ومعرفة سيئات هي حسنات الأبرار، ومطالبة النفس بترك ما لا يعني، ومطالبة الباطن بحصر خواطر المعصية، ثم بحصر خواطر الفصول، ثم علم المراقبة، وعلم ما يقدح في المراقبة، وعلم المحاسبة والرعاية، وعلم حقائق التوكل، وذنوب المتوكل في توكله، وما يقدح في التوكل وما لا يقدح، والفرق بين التوكل الواجب بحكم الإيمان وبين التوكل الخاص المختص بأهل العرفان.

وعلم الرضا وذنوب مقام الرضا، وعلم الزهد وتحديده بما يلزم من ضرورته وما لا يقدح في حقيقته، ومعرفة الزهد في الزهد، ومعرفة زهد ثالث بعد الزهد في الزهد، وعلم الإنابة والالتجاء، ومعرفة أوقات الدعاء،

ومعرفة وقت السكوت عن الدعاء، وعلم المحبة، والفرق بين المحبة العامة المفسرة بامتثال الأمر والمحبة الخاصة.

وقد أنكر طائفة من علماء الدنيا دعوى علماء الآخرة المحبة الخاصة، كما أنكروا الرضا وقالوا: ليس إلا الصبر وانقسام المحبة الخاصة إلى محبة الذات وإلى محبة الصفات، والفرق بين محبة القلب، ومحبة الروح، ومحبة العقل ومحبة النفس، والفرق بين مقام المحب والمحبوب، والمريد والمراد، ثم علوم المشاهدات، كعلم الهيبة والأنس، والقبض والبسط، والفرق بين القبض والهم والبسط والنشاط، وعلم الفناء والبقاء، وتفاوت أحوال الفناء، والاستتار والتجلي، والجمع والفرق، واللوامع والطوالع، والبوادى والصحو والسكر، إلى غير ذلك، لو اتسع الوقت ذكرناها وشرحناها فى مجلدات، ولكن العمر قصير، والوقت عزيز، ولولا سهم الغفلة، لضاق الوقت عن هذا القدر أيضاً.

وهذا المختصر المؤلف يحتوى من علوم القوم على طرف صالح نرجو من الله الكريم أن ينفع به ويجعله حجة لنا لا حجة علينا. وهذه كلها علوم من ورائها علوم عمل بمقتضاها وظفر بها علماء الآخرة الزاهدون، وحرم ذلك علماء الدنيا الراغبون، وهى علوم ذوقية لا يكاد النظر يصل إليها إلا بذوق ووجدان، كالعلم بكيفية حلاوة السكر لا يحصل بالوصف، فمن ذاقه عرفه.

وينبئك عن شرف علم الصوفية وزهاد العلماء أن العلوم كلها لا يتعذر تحصيلها مع محبة الدنيا والإخلال بحقائق التقوى، وربما كان محبة الدنيا عوناً على اكتسابها لأن الاشتغال بها شاق على النفوس، فجبلت النفوس على محبة الجاه والرفعة، حتى إذا استشعرت حصول ذلك بحصول العلم أجابت إلى تحمل الكلف، وسهر الليل، والصبر على الغربة والأسفار، وتعذر الملاذ والشهوات.

وعلوم هؤلاء القوم لا تحصل مع محبة الدنيا، ولا تنكشف إلا بمجانبة الهوى، ولا تدرس إلا فى مدرسة التقوى. قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾(١) جعل العلم ميراث التقوى.

وغير علوم هؤلاء القوم متيسر من غير ذلك بلا شك. فعلم فضل علم علماء الآخرة حيث لم يكشف النقاب إلا لأولى الألباب، وأولوا الألباب حقيقة هم الزاهدون فى الدنيا.

قال بعض الفقهاء : إذا أوصى رجل بماله لأعقل الناس يصرف إلى الزهاد، لأنهم أعقل الخلق.

قال سهل بن عبد الله التسترى : للعلم ألف اسم، ولكل اسم منه ألف اسم، وأول كل اسم منه ترك الدنيا.

حدثنا الشيخ الصالح ابو الفتح محمد بن عبد الباقى ، قال : أنا أبو الفضل احمد بن أحمد، قال أنا الحافظ أبو نعيم الأصفهانى ، قال حدثنا محمد بن احمد بن محمد، قال حدثنا العباس بن احمد الشاشى، قال حدثنا ابو عقيل الوصافى، قال أنا عبد الله الخواص، وكان من أصحاب حاتم، قال: دخلت مع أبى عبد الرحمن حاتم الأصم الرى ومعه ثلثمائة وعشرون رجلاً يريدون الحج، وعليهم الصوف والزرمانقات، ليس معهم جراب ولا طعام.

فدخلنا الرى على رجل من التجار متنسك يحب المتقشفين، فأضافنا تلك الليلة، فلما كان من الغد قال لحاتم: يا أبا عبد الرحمن آلك حاجة فإنى اريد أن اعود فقيهاً لنا هو عليل؟ فقال حاتم: إن كان لكم فقيه عليل فعيادة الفقيه لها فضل، والنظر إلى الفقيه عبادة، فأنا أيضاً أجئ معك. وكان العليل محمد بن مقاتل قاضى الرى، فقال : سر بنا يا أبا عبد الرحمن.

(١) سورة البقرة، الآية ٢٨٢.

فجاءوا إلى الباب فإذا باب مشرف حسن، فبقى حاتم متفكراً يقول باب عالم على هذا الحال؟ ثم أذن لهم فدخلوا، فإذا دار قوراء، وإذ بزة ومنعة وستور وجمع، فبقى حاتم متفكراً، ثم دخلوا إلى المجلس الذى هو فيه، فإذا بفرش وطيئة، وإذا هو راقد عليها، وعند رأسه غلام وبيده مذبة.

فقعد الرازى يسائله وحاتم قائم، فأومأ إليه ابن مقاتل أن اقعد، فقال لا أقد، فقال له ابن مقاتل: لعل لك حاجه ؟ قال : نعم ، قال : وما هى؟ قال : مسألة أسألك عنها، قال : سلنى، قال: فقم فاستو جالساً حتى أسألكها، فأمر غلمانه فأسندوه، فقال له حاتم: علمك هذا من أين جئت به؟ قال: الثقات حدثونى به، قال: عمن ؟ قال : عن أصحاب رسول الله ﷺ. قال : وأصحاب رسول الله ﷺ عمن ؟ قال : عن رسول الله ﷺ. قال : رسول الله من أين جاء به ؟ قال: عن جبرائيل.

قال حاتم : ففيما أداه جبرائيل عن الله ، وأداه إلى رسول الله ، وأداه رسول الله إلى أصحابه، وأداه أصحابه إلى الثقات، وأداه الثقات إليك؟ هل سمعت فى العلم من كان فى داره أميراً ومنعته أكثر، كانت له المنزلة عند الله أكثر؟ قال: لا. قال : فكيف سمعت؟ قال: من زهد فى الدنيا، ورغب فى الآخرة، وأحب المساكين، وقدم لآخرته، كان له عند الله المنزلة أكثر.

قال حاتم : فأنت بمن اقتديت، بالنبى وأصحابه الصالحين، أم بفرعون ونمروذ أول من بنى بالجص والآجر ؟ يا علماء السوء مثلكم يراه الجاهل الطالب للدنيا الراغب فيها فيقول : العالم على هذه الحالة لا أكون أنا شراً منه. وخرج من عنده .

فازداد ابن مقاتل مرضاً. فبلغ أهل الرى ما جرى بينه وبين ابن مقاتل، فقالوا له: يا أبا عبد الرحمن بقزوين عالم أكبر شأناً من هذا، وأشاروا به إلى الطنافسى. قال فسار إليه معتمداً فدخل عليه، فقال: رحمك الله أنا رجل

اعجمى، احب ان تعلمنى اول مبتدى دينى ومفتاح صلاتى كيف أتوضأ للصلاة، قال نعم وكرامة.

يا غلام هات إناء فيه ماء، فأتى بإناء فيه ماء فقعد الطنافسى فتوضأ ثلاثاً ثلاثاً ثم قال هكذا فتوضأ، فقعد فتوضأ حاتم ثلاثاً ثلاثاً، حتى إذا بلغ غسل الذراعين غسل أربعاً، فقال له الطنافسى: يا هذا أسرفت، فقال له حاتم فى ماذا ؟ قال: غسلت ذراعيك أربعاً، قال حاتم: يا سبحان الله أنا فى كف ماء أسرفت وأنت فى هذا الجمع كله لم تسرف؟ فعلم الطنافسى أنه أراده بذلك ولم يرد منه التعلم ، فدخل البيت ولم يخرج إلى الناس اربعين يوماً.

وكتب تجار الرى وقزوين ما جرى بينه وبين ابن مقاتل والطنافسى، فلما دخل بغداد اجتمع إليه أهل بغداد، فقالوا له : يا أبا عبد الرحمن أنت رجل ألكن أعجمى ليس يكلمك احد إلا وقطعته، قال : معى ثلاث خصال بهن اظهر على خصمى، قالوا: أى شىء هى ؟ قال: أفرح إذا أصاب خصمى، وأحزن إذا أخطأ، وأحفظ نفسى ألا أجهل عليه.

فبلغ ذلك أحمد بن حنبل ، فجاء إليه وقال : سبحان الله ما أعقله. فلما دخلوا عليه قالوا يا أبا عبد الرحمن ما السلامة من الدنيا؟ قال حاتم: يا أبا عبد الله لا تسلم من الدنيا حتى يكون معك أربع خصال، قال : أى شىء هى يا أبا عبد الرحمن؟ قال: تغفر للقوم جهلهم، وتمنع جهلك عنهم، وتبذل لهم شيئك، وتكون من شيئهم آيساً، فإذا كان هذا سلمت. ثم سار إلى المدينة.

قال الله تعالى : ﴿ ...إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ...﴾[1] ذكر بكلمة إنما، فينتفى العلم عمن لا يخشى الله، كما إذا قال إنما يدخل الدار بغدادى ينتقى دخول غير البغدادى الدار. فلاح لعلماء الآخرة أن الطريق مسدود إلى أنصبة المعارف ومقامات القرب إلا بالزهد والتقوى.

---

(١) سورة فاطر: الآية ٢٨.

قال أبو يزيد رحمه الله يوماً لأصحابه : بقيت البارحة إلى الصباح أجهد أن أقول لا إله إلا الله ما قدرت عليه. قيل ولم ذلك ؟ قال : ذكرت كلمة قلتها فى صباى فجاءتنى وحشة تلك الكلمة فمنعتنى عن ذلك، واعجب ممن يذكر الله تعالى وهو متصف بشىء من صفاته. فبصفاء التقوى وكمال الزهادة يصير العبد راسخاً فى العلم.

قال الواسطى : الراسخون فى العلم هم الذين رسخوا بأرواحهم فى غيب الغيب فى سر السر فعرفهم ما عرفهم، وخاضوا فى بحر العلم بالفهم لطلب الزيادات، فانكشف لهم من مدخور الخزائن ما تحت كل حرف من الكلام من الفهم وعجائب الخطاب، فنطقوا بالحكم.

وقال بعضهم: الراسخ من اطلع على محل المراد من الخطاب.

وقال الخراز: هم الذين كملوا فى جميع العلوم وعرفوها، واطلعوا على همم الخلائق كلهم اجمعين.

وهذا القول من أبى سعيد لا يعنى به أن الراسخ فى العلم ينبغى أن يقف على جزئيات العلوم ويكمل فيها، فإن عمر بن الخطاب ﷺ كان من الراسخين فى ا لعلم ووقف فى معنى قوله تعالى: ﴿ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾[1]، وقال ما الأب ؟ ثم قال : إن هذا إلا تكلف.

ونقل أن هذا الوقوف فى معنى الأب كان من ابى بكر رضى الله تعالى عنه وإنما عنى بذلك ابو سعيد ما يفسر أول كلامه بآخره وهو قوله : أطلعوا على همم الخلائق كلهم، لأن المتقى حق التقوى، والزاهد حق الزهادة فى الدنيا. صفا باطنه، وانجلت مرآة قلبه، ووقعت له محاذاة بشىء من اللوح المحفوظ، فأدرك بصفاء الباطن أمهات العلوم، وأصولها .

---

(١) سورة عبس: الآية ٣١.

فيعلم منتهى أقدام العلماء في علومهم، وفائدة كل علم، والعلوم الجزئية متجزئة في النفوس بالتعليم والممارسة، فلا يغنيه عامة الكلي أن يراجع في الجزئي أهله الذين هم أو عيته، فنفوس هؤلاء امتلأت من الجزئي واشتغلت به، وانقطعت بالجزئي عن الكلي.

ونفوس العلماء الزاهدين بعد الأخذ مما لابد لهم منه في أصل الدين وأساسه من الشرع أقبلوا على الله، وانقطعوا إليه، وخلصت أرواحهم إلى مقام القرب منه، فأفاضت أرواحهم على قلوبهم أنوارا تهيأت بها قلوبهم لإدراك العلوم. فأرواحهم ارتفعت عن حد إدراك العلوم، بعكوفها على العالم الأزلي، وتجردت عن وجود يصلح أن يكون وعاء للعلم، وقلوبهم بنسبة وجهها الذي يلي النفوس صارت أوعية وجودية، تتناسب وجود العلم بالنسبة الوجودية، فألفت العلوم، وتألفتها العلوم بمناسبة انفصال العلوم باتصالها باللوح المحفوظ. والمعنى بالانفصال انتقاشها في اللوح لا غير، وانفصال القول عن مقام الأرواح لوجود انجذابها إلى النفوس، فصار بين المنفصلين نسبة اشتراك موجب للتألف، فحصلت العوم لذلك، وصار العالم الرباني راسخاً في العلم،

أوحي الله تعالى في بعض الكتب المنزلة: يا بني إسرائيل لا تقولوا العلم في السماء من ينزل به، العلم مجمول في قلوبهم، تأدبوا بين يدي بآداب الروحانيين، وتخلقوا إلى بأخلاق الصديقين، نهر العلم من قلوبكم حتى يغطيكم أو يغمركم .

فالتأدب بآداب الروحانيين حصر النفوس عن تقاضي جبلاتها، وقمعها بصريح العلم في كل قول وفعل، ولا يصح ذلك إلا لمن علم وقرب وتطرق إلى الحضور بين يدي الله تعالي فيحتفظ بالحق للحق،

أخبرنا شيخنا ابو النجيب عبد القاهر السهروردي إجازة، قال أخبرنا أبو منصور ابن خيرون إجازة، قال أنا أبو محمد الحسن بن على الجوهري إجازة، قال أنا أبو عمر محمد بن العباس، قال حدثنا أبو محمد يحي بن صاعد، قال حدثنا الحسين بين الحسن المروزي ، قال أنا عبد الله بن المبارك، قال أنا

الأوزاعي، عن حسان بن عطية، بلغني أن شداد بن أوس رضي الله عنه نزل منزلا فقال: أئتونا بالسفرة نعبث بها، فأنكر منه ذلك، فقال ما تكلمت بكلمة منذ اسلمت إلا وأنا أخطمها ثم أزمها غير هذه فلا تحفظوها على فمثل هذا يكون التأدب بآداب الروحانيين.

مكتوب في الإنجيل: لا تطلبوا علم ما لم تعلموا حتى تعملوا بما قد علمتم. وقد ورد في خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الشيطان ربما يسوقكم بالعلم" قلنا يارسول الله كيف يسوقنا بالعلم؟قال " يقول اطلب العلم ولا تعمل حتى تعلم فلا يزال العبد في العلم قائلا وللعمل مسوفاً حتى يموت وما عمل"

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العلم الخشية.

وقال الحسن: إن الله تعالى لا يعبأ بذي علم ورواية، إنما يعبأ بذي فهم ودراية،

فعلوم الوراثة مستخرجة من علم الدراسة. ومثال علوم الدراسة كاللبن الخالص السائغ للشاربين، ومثلا علوم الوراثة كالزبد المستخرج منه، فلو لم يكن زبد، ولكن الزبد هو الدهنية المطلوبة من اللبن. والمائية في اللبن جسم قام به روح الدهنية، والمائية بها القوام. قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [١]

وقال تعالي: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [٢] اي كان ميتا بالكفر فأحييناه بالإسلام. فالإيحاء بالإسلام هو القوام الأول والأصل الأول.

وللإسلام علوم وهي علوم مباني الإسلام، والإسلام بعد الإيمان، نظرا إلى مجر التصديق، ولكن للإيمان فروع بعد التحقيق بالإسلام، وهي مراتب كعلم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، فقد تقال للتوحيد، والمعرفة، والمشاهدة.

---

(١) سورة الأنبياء آية ٣٠.

(٢) سورة الأنعام اية ١٢٢.

وللإيمان في كل فرع من فروعه علوم، فعلوم الإسلام علوم اللسان، وعلوم الإيمان علوم القلوب. ثم علوم القلوب. لها وصف خاص، ووصف عام، فالوصف العام علم اليقين، وقد يتوصل إليه بالنظر والاستدلال، ويشترك فيه علماء الدنيا مع علماء الآخرة، وله وصف خاص يختص به علماء الآخرة، وهي السكينة التي أنزلت في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم.

فعلى هذا جميع الرتب يشملها اسم الإيمان بوصفه الخاص، ولا يشملها بوصفه العام، فبالنظر إلى الوصف الخاص اليقين ومراتبه من الإيمان، وإلى وصفه العام اليقين زيادة على الإيمان، والمشاهدة وصف خاص في اليقين، وهو عين اليقين. وعين اليقين وصف خاص وهو حق اليقين، فحق اليقين إذن فوق المشاهدة، وحق اليقين موطنه ومستقره في الآخرة، وفي الدنيا منه لمح يسير لأهله، وهو من أعز ما يوجد من أقسام العلم بالله لأنه وجدان.

فصار علم الصوفية وزهاد العلماء نسبته إلى علم علماء الدنيا الذين ظفروا باليقين بطريق النظر والاستدلال، كنسبة ما ذكرناه من علم الوارثة والدراسة علمهم بمثابة اللبن، ففضيلة الإنسان بفضيلة العلم، ووزانة الأعمال على قدر الحظ من العلم .

وقد ورد في الخبر " فضل العالم على العابد كفضلي على أمتي".

والإشارة في هذا العلم ليس إلى علم البيع والشراء، والطلاق والعتاق، وإنما الإشارة إلى العلم بالله تعالى وقوة اليقين.

وقد يكون العبد عالماً بالله تعالى، ذا يقين كامل، وليس عنده علم من فروض الكفايات، وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم من علماء التابعين بحقائق اليقين ودقائق المعرفة، وقد كان علماء التابعين فيهم من هو أقوم بعلم التقوى والأحكام من بعضهم.

روي أن عبد الله بن عمر كان إذا سئل عن شئ يقول: سلوا سعيد بن المسيب.

وكان عبد الله بن عباس يقول: سلوا جابر بن عبد الله، لو نزل أهل البصرة على فتياه لوسعهم.

وكان أنس بن مالك يقول: سلوا مولانا الحسن، فإنه قد حفظ ونسينا.

فكانوا يردون الناس إليهم في علم الفتوى والأحكام، ويعلمونهم حقائق اليقين ودقائق المعرفة، وذلك لأنهم كانوا أقوم بذلك من التابعين، صادفتهم طراوة الوحي المنزل، وغمرهم غزير العلم المجمل والمفصل، فتلقى منهم طائفة مجملة ومفصلة، وطائفة مفصلة دون مجملة. والمجمل أصل العلم، ومفصلة المكتسب بطهارة القلوب وقوة الغريزة وكمال الاستعداد، وهو خاص بالخواص. قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾[1] .
وقال تعالى: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾[2].

فلهذه السبيل سابلة، ولهذه الدعوات قلوب قابله، فمنها نفوس مستعصية جامدة، باقية على خشونة طبيعتها وجبلتها، فلينها بنار الإنذار والموعظة والحذار، ومنها نفوس زكية من تربة طيبة، موافقة للقلوب، قريبة منها، فمن كانت نفسه ظاهرة على قلبه دعاه بالحكمة.

فالدعوة بالموعظة أجاب بها الأبرار، وهي الدعوة بذكر الجنة والنار، والدعوة بالحكمة أجاب بها المقربون ، وهي الدعوة بتلويح منح القرب، وصفو المعرف، وإشارة التوحيد. فلما وجدوا التلويحات الحقانية، والتعريفات الربانية، أجابوا بأرواحهم وقلوبهم ونفوسهم، فصارت متابعة، الأقوال إجابتهم نفساً، ومتابعة، الأعمال إجابتهم قلباً، والتحقق بالأحوال إجابتهم روحاً. فإجابة الصوفية بالكل، وإجابة غيرهم بالبعض.

قال عمر رضي الله عنه: رحم الله تعالى صيباً لو لم يخف الله لم يعصه، يعني لو كتب له كتاب الأمان من النار حمله صرف المعرفة بعظيم أمر الله على القيام بواجب حق العبودية أداء لما عرف من حق العظمة.

---

(١) سورة النحل آيه ١٢٥
(٢) سورة يوسف آيه ١٠٨

فإجابة الصوفية إلى الدعوة إجابة المحب للمحبوب على اللذاذة وذهاب العسر،وإجابة غيرهم على المكابدة والمجاهدة، وهذه الإجابة يظهر مع الساعات أثرها في القيام بحقائق الاستقامة والعبودية.

قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ ﴾[1].

قال بعضهم: أعطى الدارين ولم ير شيئاً، واتقى اللغو والسيئات، وصدق بالحسنى: أقام على طلب الزلفى.

والآية قيل نزلت في أبى بكر الصديق رضي الله عنه.

ويلوح في الآية وجه آخر: (أعطى) بالمواظبة على الأعمال، (واتقى) الوساوس والهواجس، (وصدق بالحسنى) لازم البطن بتصفية مراد الشهود عن مزاحمة لوث الوجود (فسنيسره لليسرى) تفتح عليه باب السهولة في العمل والعيش والأنس (واما من بخل) بالإعمال (واستغنى) امتلأ بالأحوال (وكذب بالحسنى) لم يكن في الملكوت بنفوذ بصيرته بالجوال فسنيسره لليسرى) نسد عليه باب اليسر في الأعمال.

قال بعضهم: إذا أراد الله بعبد سوءاً سد عليه باب العمل، وفتح عليه باب الكسل.

فلما أجابت نفوس الصوفية وقلوبهم وأرواحهم الدعوة ظاهرا وباطناً، كان حظهم من العلم أوفر ، ونصيبهم من المعرفة أكمل، فكانت أعمالهم أزكى وأفضل.

جاء رجل إلى معاذ قال: اخبرني عن رجلين أحدهما مجتهد في العبادة، كثير العمل، قليل الذنوب، إلا أنه ضعيف اليقين، يعتوره الشك. قال معاذ: ليحبطن شكه عمله. قال: فأخبرني عن رجل قليل العمل إلا أنه قوى اليقين، وهو في ذلك كثير الذنوب ، فسكت معاذ فقال الرجل الله لئن أحبط شك الأول أعمال بره، ليحبطن يقين هذا ذنوبه كلها. قال فأخذ معاذ بيده وقال: ما رأيت الذي هو أفقه من هذا.

---

(١) سورة الليل من آيه ٥ إلي آية ٧

وفي وصية لقمان لابنه: يا بني لا يستطاع العمل إلا باليقين، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه، فكان اليقين أفضل العلم، لأنه أدعى إلى العمل، وما كان أدعى إلى العمل كان أدعى إلى العبودية وما كان أدعى إلى العبودية كان أدعى إلى القيام بحق الربوبية، وكمال الحظ من اليقين والعلم بالله للصوفية والعلماء الزاهدين، فبان بذلك فضلهم وفضل علمهم.

ثم إني أصور مسألة يستبين بها المعتبر فضل العالم الزاهد، ، العارف بصفات نفسه على غيره:

عالم دخل مجلساً وقعد، وميز لنفسه مجلساً يجلس فيه، كما في نفسه من اعتقاده في نفسه لمحله وعلمه، فدخل داخل من أبناء جنسه وقعد فوقه، فانعصر العالم واظلمت عليه الدنيا، ولو أمكنه لبطش بالداخل. فهذا عارض عرض له ، ومرض اعتراه وهو لا يفطن أن هذه علة غامضة، ومرض يحتاج إلى المداواة، ولا يتفكر في منشا هذا المرض. ولو علم أن هذه نفس ثارت وظهرت بجهلها، لوجود كبرها، وكبرها برؤية نفسها خيراً من غيرها.

فعلم الإنسان أنه أكبر من غيره كبر، وإظهاره ذلك إلى الفعل تكبر، فحيث أنعصر صار فعلاً به تكبر الزاهد لا يميز نفسه بشيء دون المسلمين ، ولا يرى نفسه في مقام تمييز يميزها بمجلس .

فالصوفي العالم مخصوص مميز، ولو قدر له أن يبتلي بمثل هذه الواقعة، وينعصر من تقدم غيره عليه وترفعه، يرى النفس وظهرها، ويرى أن هذا داء وأنه إن استرسل فيه بالإصغاء إلى النفس وإنعصارها صار ذلك ذنب حاله، فيرفع في الحال داءه إلى الله تعالى ، ويشكو إليه ظهور نفسه ، ويحسن الإنابة ، ويقطع دابر ظهور النفس، ويرفع القلب إلى الله تعالى مستغيثاً من النفس، فيشغله اشتغاله برؤية داء النفس في طلب دوائها من الفكر فيمن قعد فوقه، وربما أقبل على من قعد فوقه بمزيد التواضع و الأنكسار، تكفيراً للذنب الموجود، وتداوياً لدائه الحاصل. فتبين بهذا الفرق بين الرجلين

فإذا اعتبر المعتبر، وتفقد حال نفسه في هذا المقام، يرى نفسه كنفوس عوام الخلق، وطالبي المناصب الدنيوية. فأي فرق بينه وبين غيره ممن لا علم له،

ولو اكثرنا تصوير المسائل لتبرهن فضيلة الزاهدين، ونقصان الراغبين، لأورث الملال. وهذا من أوئل العلوم الصوفية، فما ظنك بنائس علومهم، وشرائف أحوالهم .

والله الموفق للصواب.

الباب الرابع
في شرح حال الصوفية واختلاف طريقهم

اخبرانا الشيخ العالم ضياء الدين أبو احمد عبد الوهاب بن على، قال اخبرنا أبو الفتح عبد الملك بن أبي القاسم الهروي، قال أنا أبو نصر عبد العزيز بن محمد الترياقي، قال أنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي، قال أنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبي، قال أنا أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، قال حدثنا مسلمة بن حاتم الأنصاري، قال حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، عن أبيه، عن على بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: قال أنس بن مالك رضي الله عنه: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم "يا بني إن قدرت أن تصبح وتمسي وليس في قلبك غش لأحد فافعل" ثم قال" يا بني وذلك من سنتي، ومن أحيا سنتي فقد احياني، ومن احياني كان معي في الجنة"

وهذا أتم شرف واكمل فضل، اخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم في حق من أحيا سنته.

فالصوفية هم الذين أحيوا هذه السنة، وطهارة الصدور من الغل والغش عماد أمرهم، وبذلك ظهر جوهرهم، وبان فضلهم، وإنما قدروا على إحياء هذه السنة، ونهضوا بواجب حقها لزهدهم في الدنيا، وتركها لأربابها وطلابها، لأن مثار الغل والغش محبة الدنيا، ومحبة الرفعة و المذلة عند الناس، والصوفية زهدوا في ذلك كله، كما قال بعضهم: طريقنا هذا لا يصلح إلا لأقوام كنست بأرواحهم المزابل، فلما سقط عن قلوبهم محبة الدنيا وحب الرفعة اصبحوا وامسوا وليس في قلوبهم غش لأحد

فقول القائل: كنست بأرواحهم المزابل، إشارة منه إلى غاية التواضع، وأن لا يرى نفسه تتميز عن أحد من المسلمين لحقارته عند نفسه، وعند هذا ينسد باب الغش والغل .

وجرت هذه الحكاية، فقال بعض الفقراء من أصحابنا:

وقع لي أن معنى كنست بأرواحهم المزابل أن الإشارة بالمزابل إلى النفوس، لأنها مأوى كل رجس ونجس كالمزبلة، وكنسها بنور الروح الواصل إليه، لأن الصوفية أروحهم في مجال القرب، ونورها يسري إلى النفوس، وبوصول نور الروح إلى النفس تطهر النفس، ويذهب عنها المذموم من الغل والغش والحقد والحسد، فكأنها تكنس بنور الروح وهذا صحيح وإن لم يرد القائل بقوله ذلك.

قال الله تعالى في وصف أهل الجنة ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [١].

قال أبو حفص: كيف يبقى الغل في قلوب ائتلفت بالله، واتفقت على محبته، واجتمعت على مودته، وأنست بذكره، إن تلك قلوب صافية من هواجس النفوس وظلمات الطبائع، بل كحلت بنور التوفيق، فصارت إخواناً، فالخلق حجابهم عن القيام بإحياء سنة رسول الله صلى الله علية وسلم قولا وفعلا وحالا صفات نفوسهم، فإذا تبدلت نعوت النفس، ارتفع الحجاب، وصحت المتابعة، ووقعت الموفقة في كل شيء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووجبت المحبة من الله تعالى عند ذلك.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴿٣١﴾﴾

جعل متابعة الرسول صلى الله علية وسلم آيه محبة العبد ربه، وجعل جزاء العبد على حسن متابعة الرسول محبة الله إياه.

فأوفر الناس حظاً من متابعة الرسول أوفرهم حظاً من محبة الله تعالى.

والصوفية من بين طوائف الإسلام ظفروا بحسن المتابعة، لأنهم اتبعوا أقواله، فقاموا بما أمرهم، ووقفوا عما نهاهم.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴿٧﴾﴾ [٢]

---

(١)سورة الحجر آية: ٤٧.
(٢)سورة الحشر آية: ٧.

ثم أتبعوه فى أعمالهم من الجد والاجتهاد في العبادة، والتهجد والنوافل من الصوم والصلاة وغير ذلك، ورزقوا ببركة المتابعة في الأقوال والأفعال التخلق بأخلاقه، من الحياء والحلم، والصفح والعفو، والرأفة والشفقة، والمداراة والنصيحة والتواضع، ورزقوا قسطاً من أحواله من الخشية والسكينة، والهيبة والتعظيم، والرضا والصبر، والزهد والتوكل، فاستوفوا جميع أقسام المتابعات، وأحيوا سنته بأقصى الغايات.

قيل لعبد الواحد بن زيد: من الصوفية عنك؟ قال: القائمون بعقولهم على فهم السنة، والعا كفون عليها بقلوبهم، والمعتصمون بسيدهم من شر نفوسهم هم الصوفية.

وهذا وصف تام وصفهم به،

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم الافتقار إلى مولاه حتى يقول « لا تكلني إلى نفسي طرفة عين، اكلأني كلاءة الوليد »

ومن أشرف ما ظفر به الصوفي من متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الوصف، وهو دوام الافتقار ودوام الالتجاء.

ولا يتحقق بهذا الوصف من صدق الافتقار إلا عبد كوشف باطنه بصفاء المعرفة، وأشرق صدره بنور اليقين، وخلص قلبه إلى بساط القرب، وخلا سره بلذاذة المسامرة، فبقيت نفسه بين هذه الأشياء كلها أسيرة مأمورة، ومع ذلك كله يراها مأوي كل شر، وهي بمثابة النار لو بقيت منها شرارة أحرقت عالماً، وهي وشيكة الرجوع، سريعة الانفلات والانقلاب.

فالله تعالى بكمال لطفه عرفها إلى الصوفي، وكشفها له على شيء من معنى ما كشفه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو دائم الاستغاثة إلى مولاه من شرها، وكأنها جعلت سوطاً للعبد، تسوقه لمعرفته، بشرها، مع اللحظات إلى جناب الالتجاء، وصدق الافتقار والدعاء، فلا يخلو الصوفي عن مطالعتها أدنى ساعة، كما لا يخلو عن ربه أدنى ساعة، وربط معرفتها.

بمعرفة الله تعالى، فيما ورد: من عرف نفسه فقد عرف ربه، كربط معرفة الليل بمعرفة النهار.

ومن الذي يقوم بإحياء هذه السنة من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير الصوفي العالم بالله، الزاهد في الدنيا، المتمسك من التقوى بأوثق العرى.

ومن الذي يهتدي إلى فائدة هذه الحال غير الصوفي، فدوام افتقاره إلى ربه تمسك بجانب الحق وليذ به، وفي هذا اللياذ استغراق الروح واستتباع القلب إلى محل الدعاء، وفي انجذاب القلب إلى محل الدعاء بلسان الحال والكون فيه نبو النفس عن مستقرها من الأقسام العاجلة، ونزولها إليها في مدراج العلم، محفوفة بحراسة الله تعالى ورعايته. والنفس المدبرة بهذا التدبير من حسن تدبير الله تعالى مأمونة الغائلة من الغل والغش والحقد والحسد وسائر المذمومات. فهذا حال الصوفي.

ويجمع جمال حال الصوفي شيآن هما وصف الصوفية، وإليهما الإشارة بقوله تعالى:

﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [1].

فقوم من الصوفية خصوا بالاجتباء الصرف، وقوم منهم خصوا بالهداية بشرط مقدمة الإنابة، فالاجتباء المحض غير معلل بكسب العبد، وهذا حال المحبوب المراد يبادئه الحق بمنحه، ومواهبه من غير سابقة كسب منه يسبق كشوف اجتهاده، وفي هذا أخذ بطائفة الصوفية رفعت الحجب عن قلوبهم، وبادرهم سطوع نوع اليقين، فأثار نازل الحال فيهم شهوة الاجتهاد والأعمال، فأقبلوا على الأعمال باللذاذة والعيش فيها قرة أعينهم، فسهل الكشف عليهم الاجتهاد كما سهل على سحرة فرعون لذاذة والعيش فيه

---

(١) سورة الشورى آية: ١٣.

قرة أعينهم، فسهل الكشف عليهم الاجتهاد كما سهل على سحرة فرعون لذاذة النازل لهم من صفو العرفان تحمل وعيد فرعون، فقالوا : ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴿٧٢﴾ ﴾[1]

قال جعفر الصادق رضي الله عنه: وجدوا أرواح العناية القديمة بهم، فالتجأوا إلى السجود شكرا وقالوا : ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾[2]

أخبرانا أبو زرعة طاهر بن أبي الفضل إجازة، قال أنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف إجازة، قال أنا عبد الرحمن السلمي، قال سمعت منصورا يقول، سمعت أبا موسى الزقاق يقول، سمعت أبا سعيد الخراز يقول: أهل الخاصة الذين هم المرادون، اجتباهم مولاهم، وأكمل لهم النعمة، وهيأ لهم الكرامة، فأسقط عنهم حركات الطلب، فصارت حركاتهم في العمل والخدمة على الألفة والذكر، والتنعم بمناجاته، والانفراد بقربه.

وبهذا الإسناد إلى أبي عبد الرحمن السلمي قال: سمعت على بن سعيد يقول : سمعت أحمد بن الحسن الحمصي يقول: سمعت فاطمة المعرفة بجويرية تلميذة أبي سعيد تقول: سمعت الخراز يقول: المراد محمول في حالة، معان على حركاته، وسعيه في الخدمة، مكفى مصون عن الشواهد والنواظر.

وهذا الذي قاله الشيخ أبو سعيد هو الذي اشتبه حقيقته على طائفة من الصوفية، ولم يقولوا بالإكثار من النوافل، وقد رأوا جميع من المشايخ قلت نوافلهم، فظنوا أن ذلك حال مستمر على الإطلاق، ولم يعلموا أن الذين تركوا النوافل واقتصروا على الفرائض، كانت بداياتهم بدايات المريدين ، فلما وصلوا إلى روح الحال، وأدركتهم الكشوف بعد الاجتهاد، امتلؤا بالحال، فطرحوا نوافل الأعمال.

---

(١)سورة طة آية: ٧٣.
(٢)سورة الشعراء آية: ٤٧.

فأما المرادون فتبقى عليهم الأعمال والنوافل وفيها قرة أعينهم. وهذا اتم واكمل من الأول.

فهذا الذي اوضحناه احد طريقي الصوفية.

فأما الطريق الآخر، طريق المريدين، وهم الذين شرطوا لهم الإنابة فقال الله تعالى:

﴿ وَيَهْدِيَ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾[1].

فطولبوا بالاجتهاد أولا قبل الكشوف قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[2]. يدرجهم الله تعالى في مدارج الكسب، بأنواع الرياضيات والمجاهدات، وسهر الدياجر طما الهواجر، تتأجج فيهم نيران الطلب، وتتحجب دونهم لوامع الإرب، يتقلبون في رمضاء الإرادة، وينخلعون عن كل مألوف وعادة، وهي الإنابة التي شرطها الحق سبحانه وتعالى لهم، وجعل الهداية مقرونة بها، وهذه الهداية آنفا هداية خاصة، واهتدوا إليه بعد أن اهتدوا له بالمكابدات، فخلصوا من مضيق العسر إلى فضاء اليسر، وبرزوا من وهج الاجتهاد إلى روح الأحوال، فسبق اجتهادهم كشوفهم، والمريدون سبق كشوفهم اجتهادهم.

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقي قال: أنا أبوا الفضل أحمد ابن أحمد، قال: سمعت محمد بن عبد الله الرازي يقول: سمعت أبا محمد الجريري يقول: سمعت الجنيد رحمة الله عليه يقول: ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، ولكن عن الجوع، وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسنات.

فقال محمد بن خفيف: الإرادة سمو القلب لطلب المراد، وحقيقة الإرادة استدامة الجد وترك الراحة.

---

(١)سورة الشورى آية: ١٣.
(٢)سورة العنكبوت آية: ٦٩.

وقال أبو عثمان: المريد الذي مات قلبه عن كل شيء دون الله تعالى فيريد الله وحده يريد قربه ويشتاق إليه، حتى تذهب شهوات الدنيا عن قلبه لشدة شوقه إلى ربه.

وقال أيضاً: عقوبة قلب المريدين أن يحجبوا عن حقيقة المعاملات والمقامات إلى أضدادها.

فهذان الطريقان يجمعان أحوال الصوفية.

دونهما طريقان آخران ليسا من طرق التحقق بالتصوف:

أحدهما: مجذوب أبقى على جذبته ما رد إلى الاجتهاد بعد الكشف.

والثاني: مجتهد متعبد ما خلص إلى الكشف بعد الاجتهاد.

وللصوفية في طريقهما باب مريدهم، وصحة طريقهم بحسن المتابعة . ومن ظن أن يبلغ غرضاً أو يظفر بمراد لا من طريق المتابعة فهو مخذول مغرور.

أخبرنا شيخنا أبو النجيب السهروردي قال: أنا عصام الدين عمر بن حمد الصفار، قال: أنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف، قال: أنا أبو عبد الرحمن، قال: سمعت نصر بن أبي نصر يقول: سمعت قسيما غلام الزقاق يقول: سمعت أبا سعيد السكري يقول: سمعت أبا سعيد الخراز يقول: كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل.

وكان يقول: الجنيد رحمه :الله علمنا هذا مشتبك بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال بعضهم: من أمر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة.

حكى أن أبا يزيد البسطامي رحمه الله قال ذات يوم لبعض أصحابه: قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية، وكان الرجل في ناحيته مقصودا ومشهورا بالزهد والعبادة، فمضينا إليه، فلما خرج من بيته

يقصد المسجد رمى بزاقة نحو القبلة، فقال أبو يزيد: انصرفوا، فانصرف ولم يسلم عليه، وقال: هذا رجل ليس بمأمون على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه من مقامات الأولياء والصديقين.

وسأل خادم الشبلي رحمه الله ماذا رأيت منه عند موته؟ فقال: لما أمسك لسانه، وعرق جبينه أشار إلى أن وضئني للصلاة، فوضأته، فنسيت تخليل لحيته، فقبض على يدي وأدخل أصابعي في لحيته يخللها.

وقال سهل بن عبد الله: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فباطل.

هذا حال الصوفية وطريقهم. وكل من يدعى حالا على غير هذا الوجه فمدع مفتون كذاب.

الباب الخامس
في ماهية التصوف

أخبرنا الشيخ ابو زرعه طاهر ابي الفضل في كتابه قال: انا ابو بكر احمد بن على بن خلف الشيرازي إجازة، قال: انا الشيخ ابو عبد الرحمن السلمي، قال: أنا إبراهيم بن محمد بن رجاء، قال: حدثنا عبد الله بن أحمد البغدادي، قال: حدثنا عمر بن أسد، عن مالك بن أنس، عن نافع، عن ابن عمر، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لكل شيء مفتاح، ومفتاح الجنة حب المساكين. والفقراء الصبر هم جلساء الله يوم القيامة.

فالفقر كائن في ماهية التصوف وهو اساسه، وبه قوامه.

قال رويم: التصوف مبنى على ثلاث خصال: التمسك بالفقر والافتقار، والتحقق بالبذل والإيثار بالفقر لم يتحقق بالتصوف.

وسئل الشبلي عن حقيقة الفقر فقال: أن لا يستغني بشيء دون الحق.

وقال أبوا الحسين النوري: نعت الفقير السكون عند العدم ، والبذل والإيثار عند الوجود.

وقال بعضهم: إن الفقير الصادق ليحترز من الغني حزر أن يدخل عليه الغني فيفسد فقره، كما أن الغني يحترز من الفقير حزر أن يدخل عليه الفقر فيفسد عليه غناه.

وبالإسناد الذي سبق إلى أبي عبد الرحمن، قال: سمعت ابا عبد الرحمن الرازي يقول: سمعت مظفرا القرميسني يقول: الفقير الذي لا يكون له إلى الله حاجة.

قال: وسمعته يقول: سألت ابا بكر المصري عن الفقير، فقال: الذي لا يملك ولا يملك .

قوله: لا يكون له إلى الله حاجة، معناه أنــه مشغول بوظائف عبوديتـه، تام الثقة بربه، عالم بحسـن كلاءته بـه، لا يحوجه إلى رفـع الحاجـة لعلمـه بعلم الله بحاله ، فيرى السؤال في البين زيادة.

وأقوال المشايخ تتنوع معانيها، لأنهم أشاروا فيها إلى أحوال في أوقات دون أوقات، ونحتاج في تفصيل بعضها من البعض إلى الضوابط، فقد تذكر أشـياء في معنى التصوف ذكر مثلها في معنى الفقر، وتذكـر أشـياء في معنـى الفقـر ذكر مثلها في معنى التصوف.

وحيث وقع الاشتباه فلا بد من بيان فاصل ، فقد تشـتبه الإشـارات في الفقر بمعاني الزهد تارة، وبمعاني التصوف تارة، ولا يتبين للمسترشد بعضها من البعض، فنقول:

التصوف غير الفقر، والزهد غير الفقر، والتصوف غير الزهد.

فالتصوف اســم جامع لمعـاني الفقـر ومعـاني الزهـد، مـع مزيـد أوصـاف وإضافات لا يكون بدونها الرجل صوفياً وإن كان زاهداً وفقيراً

قال أبـو حفـص: التصـوف كلـه آداب، لكـل وقـت أدب، ولكـل حـال أدب ولكل مقام أدب .

فمن لزم آداب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الآداب فهو بعيـد من حيث يظن القرب، ومردود من حيث يرجو القبول.

وقال أيضاً: حسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب البـاطن، لأن النـبي صلـى الله عليه وسلم قال « لو خشع قلبه لخشعت جوارحه ».

أخبرنا الشيخ رضى الدين أحمد بن إسماعيل إجازة، قـال: أنـا الشـيخ أبـو المظفر عبد المنعم، قال: أخبرني والدي أبو القاسم القشيري، قال سمعت محمـد بن أحمد بن يحيى الصوفي يقـول: سمعـت عبـد الله بـن علي يقـول: سـئل أبـو محمد الجريري عن المتصوف فقال: الدخول في كل خلق سني، والخروج عن كل خلق دني.

فإذا عرف هذا المعنى في التصوف، من حصول الأخلاق وتبديلها واعتبر حقيقته، يعلم أن التصوف فوق الزهد وفوق الفقر.

وقيل: نهاية الفقر مع شرفه هو بداية التصوف، وأهل الشام لا يفرقون بين التصوف والفقر، يقولون قال الله تعالى:

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [1]. هذا وصف الصوفية، والله تعالى سماهم فقراء.

وساوضح معنى يفترق الحال به بين التصوف والفقر نقول: الفقير في فقره متمسك به، متحقق بفضله، يؤثره على الغنى، متطلع إلى ما تحقق من العوض عند الله، حيث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام»

فكلما لا حظ العوض الباقي، أمسك عن الحاصل الفاني، وعانق الفقر، وعانق الفقر والقلة، وخشى زوال الفقر لفوات الفضيلة والعوض، وهذا عين الاعتلال في طريق الصوفية، لأنه تطلع إلى الأعواض وترك الإجهاد، والصوفي يترك الأشياء لا للأعواض الموعودة، بل للأحوال الموجودة، فإنه ابن وقته.

وأيضا ترك الفقير الحظ العاجل واغتنامه الفقر اختيار منه وإرادة، والاختيار والإرادة علة في حال الصوفي، لأن الصوفي صار قائماً في الأشياء بإرادة الله تعالى لا بإرادة نفسه، فلا يرى فضيلة في صورة فقر ولا في صورة غنى، وإنما يرى الفضيلة فيما يوقفه الحق فيه، ويدخله عليه، ويعلم الإذن من الله تعالى، في الدخول في الشيء، وقد يدخل في صورة سعة مباينة للفقر بإذن من الله تعالى، ويرى الفضيلة حينئذ في السعة لمكان الإذن من الله فيه، ولا يفسح في السعة والدخول فيها الصادقين إلا بعد إحكامهم علم الإذن، وفي هذا مزلة لأقدام، وباب دعوى للمدعين. وما من حال يتحقق به صاحب الحال إلا وقد يحكيه راكب المحال، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيى عن بينة.

---

[1] سورة البقرة آية: ٢٧٣.

فإذا اتضح ذلك ظهر الفرق بين الفقر والتصوف، وعلم أن الفقر أساس التصوف وبه قوامه، على معنى أن الوصول إلى رتب التصوف طريقه الفقر، لا على معنى أنه يلزم من وجود التصوف وجود الفقر.

قال الجنيد رحمة الله عليه: التصوف هو أن يمتك الحق عنك، ويحييك به.

وهذا المعنى هو الذي ذكرناه من كونه قائما في الأشياء بالله لا بنفسه.

والفقير والزاهد مكنان في الأشياء بنفسهما، واقفان مع إرادتهما، مجتهدان مبلغ علمهما. والصوفي متهم لنفسه، مستقل لعلمه، غير راكن إلى معلومه، قائم بمراد ربه لا بمراد نفسه.

قال ذو النون المصري رحمة الله عليه: الصوفي من لا يتعبه طلب، ولا يزعجه سلب.

وقال أيضا: الصوفية آثروا الله تعالى على كل شيء، فآثرهما الله على كل شيء.

فكان من إيثارهم أن آثروا علم الله على علم نفوسهم، وإرادة الله على إرادة نفوسهم.

قيل لبعضهم: من أصحب من الطوائف ؟ قال: الصوفية، فإن للقبيح عندهم وجها من المعاذير ، وليس للكبير من العمل عندهم وقع يرفعونك به فتعجبك نفسك، وهذا علم لا يوجد عند الفقير والزاهد، لان الزاهد يستعظم الترك، ويستقبح الأخذ، وهكذا الفقير، وذلك لضيق وعائهم، ووقوفهم على حد علمهم.

وقال بعضهم: الصوفي من إذا استقبله حالان حسنان أو خلقان حسنان يكون مع الأحسن، والفقير والزاهد لا يميزان كل التمييز بين الخلقين الحسنين، بل يختاران من الأخلاق أيضا ما هو أدعى إلى الترك، والخروج عن شواغل الدنيا، حاكمان في ذلك بعلمهم، والصوفي هو المستبين الأحسن من

عنـد الله، بصـدق التجائـه، وحسـن إنابتـه، وحـظ قربـه، ولطيـف الوجـه، وخروجه إلى الله تعالى، لعلمه بربه، وحظه من محادثته ومكالمته.

قال رويم: التصوف استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد.

وقـال عمـرو بـن عثمـان المكي: التصوف أن يكـون العبـد في كـل وقـت مشغولا بما هو أولى في الوقت.

وقال بعضهم: التصوف أوله علم، وأوسطه عمل، وآخره موهبة مـن الله تعالى.

وقيل: التصوف فكر مع اجتماع، ووجد مع استماع، وعمل مع اتباع.

وقيل التصوف ترك التكلف، وبذل الروح.

وقال سهل بن عبد الله: الصوفي مـن صفـا مـن الكـدر، وامتـلأ مـن الفكـر، وانقطع إلى الله من البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر.

وسئل بعضهم عن التصوف فقـال: تصفيـة القلـب عـن موافقـة البريـة، ومفارقـة الأخـلاق الطبيعيـة، وإخمـاد صفـات البشـرية، ومجانبـة الدواعـي النفسـانية، ومنازلـة الصفـات الروحانيـة والتعلـق بعلـوم الحقيقـة، واتبـاع الرسول في الشريعة.

قال ذو النون المصري: رأيت فى بعض سواحل الشام امـرأة، فقلت: مـن أين أقبلت؟ قالت: من عند أقوام تتجافى جنوبهم عـن المضاجع، فقلت: وأيـن تريديـن؟ قـالت: إلى رجـال لا تلهيهم تجارة ولا بيـع عـن ذكـر الله، فقلـت: صفيهم لي، فأنشأت :

قـوم همومـهم بـالله قـد علقـت ... فمـا لهـم تسـمو إلى أحـد
فمطلب القوم مولاهـم وسيدهم ... ياحسن مطلبـهم للواحد الصمـد
مـا إن تنازعـهم دنيـا ولا شـرف ... مـن المطـاعم واللـذات والولـد
ولا للبـس ثيـاب فـائق أنـق ... ولا لـروح سـرور حـل في بلـد
إلا مسـارعة في إثـر منزلـة ... قد قـارب الخطوفيها باعد الأبد
فـهم رهـائن غـدوان وأوديـة ... في الشـوامخ تلقـاهم مـع العـدد

قال الجنيد: الصوفي كالأرض، يطرح عليه كل قبيح، ولا يخرج منها إلا كل مليح.

وقال أيضا هو كالأرض ، يطؤها البر والفاجر، وكالسحاب،يظل كل شيء وكالقطر يسقي كل شيء وأقوال المشايخ في ماهية التصوف تزيد على ألف قول، ويطول نقلها، ونذكر ضابطا يجمع جمل معانيها، فإن الألفاظ وإن اختلفت متقاربة المعاني.

فنقول:

الصوفي هو الذي يكون دائم التصفية، ولا يزال يصفي الأوقات عن شواب الأكدار، بتصفية القلب عن شوب النفس، ويعينه على هذه التصفية دوام افتقاره إلى مولاه، فبدوام الافتقار ينقي من الكدر، وكلما تحركت النفس وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته الناقدة ، وفر منها إلى ربه.

فبدوام تصفيته جمعيته، وبحكمة نفسه تفرقته وكدره، فهو قائم بربه على قلبه، وقائم بقلبه على نفسه. قال الله تعالى: ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾[1]. وهذه القوامية لله على النفس هو التحقق بالتصوف.

قال البعض: التصوف كله اضطراب، فإذا وقع السكون فلا تصوف.

والسر فيه أن الروح مجذوبة إلى الحضرة الالهية، يعني أن روح الصوفي متطلعة منجذبة إلى مواطن القرب ، وللنفس بوضعها رسوب إلى عالمها، وانقلاب على عقبها، ولا بد للصوفي من دوام الحركة، بدوام الافتقار، ودوام الفرار، وحسن التفقد لمواقع إصابات النفس. ومن وقف على هذا المعنى يجد في الصوفي جميع المتفرق في الإشارات.

---

(١)سورة المائدة آية: ٨.

الباب السادس
في ذكر تسميتهم بهذا الاسم

أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر بن محمد بن طاهر، قال: أخبرني والدي، قال: أنا أبو علي الشافعي بمكة حرسها الله تعالى، قال: أنا أحمد بن إبراهيم قال: أنا أبو جعفر محمد بن إبراهيم، قال أنا أبو عبد الله المخزومي، قال: حدثنا سفيان، عن مسلم، عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يجيب دعوة العبد، ويركب الحمار، ويلبس الصوف.

فمن هذا الوجه ذهب قوم إلى أنهم سموا صوفية، نسبة لهم إلى ظاهر اللبسة، لأنهم اختاروا لبس الصوف لكونه أرفق، ولكونه كان لباس الأنبياء عليهم السلام.

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال « مر بالصخرة من الروحاء سبعون نبيا حفاة عليهم العباء يؤمون البيت الحرام ».

وقيل: إن عيسى عليه السلام كان يلبس الصوف والشعر، ويأكل من الشجر، ويبيت حيث أمسى.

وقال الحسن البصرى رضي الله عنه: لقد أدركت سبعين بدريا كان لباسهم الصوف.

ووصفهم أبوا هريرة وفضالة بن عبيد فقال: كانوا يخرون من الجوع تحسبهم الأعراب مجانين، وكان لباسهم الصوف، حتى إن بعضهم كان يعرق في ثوبه فيوجد منه رائحة الضأن إذا أصابه الغيث.

وقال بعضهم: إنه ليؤذيني ريح هؤلاء أما يؤذيك ريحهم؟ يخاطب رسول الله ﷺ بذلك.

فكان اختيارهم للبس الصوف لتركهم زينة الدنيا، وقناعتهم بسد الجوعة، وستر العورة ، واستغراقهم في أمر الآخرة، فلم يتفرغوا لملاذ النفوس وراحاتها، لشدة شغلهم بخدمة مولاهم، وانصراف هممهم إلى أمر الآخرة.

وهذا الاختيار يلائم ويناسب من حيث الاشتقاق، لأنه يقال: تصوف إذا لبس الصوف، كما يقال تقمص إذا لبس القميص.

ولما كان حالهم بين سير وطير، لتقلبهم في الأحوال، وارتقائهم من عال إلى أعلى منه، لا يقيدهم وصف، ولا يحبسهم نعت، وأبواب المزيد علما وحالا عليهم مفتوحة، بواطنهم معدن الحقائق، ومجمع العلوم.

فلما تعزر تقلدهم بحال تقيدهم لتنوع وجدانهم، وتجنس مزيدهم، نسبوا إلى ظاهر اللبسة، و كان ذلك أبين في الإشارة إليهم، وأدعى إلى حصر وصفهم، لأن لبس الصوف كان غالبا على المتقدمين من سلفهم.

وأيضا لأن حالهم حال المقربين كما سبق ذكره.

ولما كان الاعتزاء إلى القرب وعظم الإشارة إلى قرب الله تعالى أمر صعب، يعز كشفه والإشارة إليه، وقعت الإشارة إلى زيهم سترا لحالهم، وغيرة على عزيز مقامهم أن تكثر الإشارة إليه وتتداوله الألسنة ، فكان هذا أقرب إلى الأدب، والأدب في الظاهر والباطن ، والقول والفعل، عماد أمر الصوفية.

وفيه معنى آخر، وهو أن نسبتهم إلى اللبسة تنبئ عن تقللهم من الدنيا، وزهدهم فيما تدعوا النفس إليه بالهوى من الملبوس الناعم، حتى إن المبتدي المريد الذي يؤثر طريقهم، ويحب الدخول في أمرهم، يوطن نفسه على التقشف والتقلل، ويعلم أن المأكول أيضا من جنس الملبوس، فيدخل في طريقهم على بصيرة. وهذا أمر مفهوم معلوم عند المبتدي، والإشارة إلى شئ من حالهم في تسميتهم بذلك أبعد من فهم أرباب البدايات، فكأن تسميتهم بهذا أنفع وأولى.

وأيضا غير هذا المعنى مما يقال إنهم سموا صوفية لذلك يتضمن دعوى.

وإذا قيل سموا صوفية للبسهم الصوف كان أبعد من الدعوى، وكل ما كان أبعد من الدعوى كان أليق بحالهم.

وايضا لأن لبس الصوف حكم ظاهر على الظاهر من أمرهم، ونسبتهم إلى امر آخر من حال أو مقام امر باطن، والحكم بالظاهر أوفق وأولى . فالقول: بأنهم سموا صوفية للبسهم الصوف اليق وأقرب إلى الوضع.

ويقرب أن يقال: لما آثروا الذبول والخمول، والتواضع والانكسار، والتخفي والتواري، كانوا كالخرقة الملقاة، والصوفة المرمية التي لا يرغب فيه، ولا يلتفت إليها، فيقال صوفي نسبة إلى الصوفة. كما يقال كوفي نسبة إلى الكوفة.

وهذا ما ذكره بعض اهل العلم، والمعنى المقصود به قريب ، ويلائم الاشتقاق، ولم يزل لبس الصوف اختيار الصالحين والزهاد، والمتقشفين والعباد.

اخبرنا ابو زرعة طاهر، عن ابيه قال: انا عبد الرازق بن عبد الكريم، قال: انا ابوالحسن محمد بن محمد، قال: حدثنا ابو على إسماعيل بن محمد، قال: حدثنا الحسن بن عرفة، قال: حدثنا خلف بن خليفة، عن حميد بن الأعرج، عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال.

قال رسول الله ﷺ « يوم كلم الله تعالى موسى عليه السلام كان عليه جبة صوف، وسراويل صوف، وكساء صوف، وكمه من صوف، ونعلاه من جلد حمار غير مذكي ».

وقيل: سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل لارتفاع هممهم، وإقبالهم على الله تعالى بقلوبهم، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه.

وقيل: كان هذا الاسم في الأصل صفوى فاستثقل ذلك وجعل صوفيا.

وقيل سموا صوفية نسبة إلى الصفة التي كانت لفقراء المهاجرين على عهد رسول الله ﷺ الذين قال تعالى فيهم ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴿٢٧٣﴾﴾[1].

---

(١)سورة البقرة آية: ٢٧٣.

وهذا إن كان لا يستقيم من حيث الاشتقاق اللغوي، ولكن صحيح من حيث المعنى، لأن الصوفية يشاكل حالهم حال أولئك، لكونهم مجتمعين متآلفين، متصاحبين لله وفي الله، كأصحاب الصفة، وكانوا نحوا من أربعمائة رجل، لم تكن لهم مساكن بالمدينة، ولا عشائر، جمعوا أنفسهم في المسجد كاجتماع الصوفية قديما وحديثا في الزوايا والربط، وكانوا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع ولا إلى تجارة، كانوا يحتطبون ويرضخون النوء بالنهار، وبالليل يشتغلون بالعبادة وتعلم القرآن وتلاوته، وكان رسول الله ﷺ يواسيهم، ويحث الناس على مواساتهم، ويجلس معهم، ويأكل معهم، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴿٢٨﴾ ﴾[2]. ونزل في ابن ام مكتوم قوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ ﴾[3].

كان من أهل الصفة فعوتب النبي ﷺ لأجله. وكان رسول الله ﷺ إذا صافحهم لا ينزع يده من أيديهم، وكان يفرقهم على أهل الجدة والسعة، يبعث مع واحد ثلاثة، ومع الآخر أربعة.

وكان سعد بن معاذ يحمل إلى بيته منهم ثمانين يطعمهم.

---

(١)سورة الأنعام آية: ٥٢.
(٢)سورة الكهف آية: ٢٨.
(٣)سورة عبس آية: ٢،١.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: لقد رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون في ثوب واحد ، منه من لا يبلغ ركبته، فإذا ركع أحدهم قبض بيديه مخافة أن تبدو عورته.

وقال بعض أهل الصفة: جئنا جماعة إلى رسول الله ﷺ وقلنا يا رسول الله أحرق بطوننا التمر، فسمع بذلك رسول الله ﷺ ، فصعد المنبر ثم قال « ما بال أقوام يقولون أحرق بطوننا التمر ، أما علمتم أن هذا التمر هو طعام أهل المدينة، وقد واسونا به وواسيناكم مما واسونا به، والذي نفس محمد بيده إن منذ شهرين لم يرتفع من بيت رسول الله ﷺ دخان للخبز، وليس لهم إلا الأسودان: الماء والتمر ».

أخبرنا الشيخ أبو الفتح محمد بن عبد الباقي في كتابه قال: أنا الشيخ أبو بكر بن زكريا الطريثيثي قال: أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا محمد بن سعيد الأنماطي قال: حدثنا الحسن بن يحي بن سلام قال حدثنا محمد بن على الترمذي قال: حدثني سعيد بن حاتم البلخي قال: حدثنا سهل بن اسلم عن خلاد بن محمد عن أبي عبد الرحمن السكري، عن يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهم قال: وقف رسول الله ﷺ يوما على أهل الصفة فرأي فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم فقال: « أبشروا يا أصحاب الصفة، فمن بقى منكم على النعت الذي أنتم عليه اليوم راضيا بما هو فيه فإنه من رفقائي يوم القيامة » .

وقيل: كان منهم طائفة بخراسان يأوون إلى الكهوف والمغارات، ولا يسكنون القرى والمدن ، يسمونهم في خراسان شكفتية، لأن شكفت اسم الغار، ينسبونهم إلى المأوى والمستقر.

وأهل الشام يسمونهم جوعيه.

والله تعالى ذكر في القرآن طوائف الخير والصلاح، فسمى قوما أبرارا، وآخرين مقربين. ومنهم الصابرون والصادقون، والذاكرون والمحبون، واسم الصوفي مشتمل على جميع المتفرق في هذه الأسماء المذكورة.

وهذا الاسم لم يكن في زمن رسول الله ﷺ وقيل كان في زمن التابعين.

ونقل عن الحسن البصري رحمة الله عليه أنه قال: رأيت صوفيا في الطواف فاعطيته شيئا فلم يأخذه وقال: معي أربع دوانيق، يكفيني ما معي. ويسند هذا ما روي عن سفيان أنه قال: لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء. وهذا يدل على أن هذا الاسم كان يعف قديما.

وقيل: لم يعرف هذا الاسم إلى المائتين من اللهجرة النبوية، لأن في زمن رسول الله ﷺ كان أصحابه ﷺ يسمون الرجل صحابيا، لشرف صحبة رسول الله ﷺ، وكون الإشارة إليها أولى من كل إشارة.

وبعد انقراض عهد رسول الله ﷺ من أخذ منهم العلم سمي تابعيا.

ثم لما تقادم زمان الرسالة، وبعد عهد النبوة، وانقطع الوحي السماوي، وتواري النور المصطفوي، واختلفت الآراء،وتنوعت الأنحاء، وتفرد كل ذي راي رايه، وكدر شرب العلوم شوب الأهوية، وتزعزعت أبنية المتقين، واضطربت عزائم الزاهدين، وغلبت الجهالات، وكثف حجابها، وكثرت العادات وتملكت اربابها، وتزخرفت الدنيا، وكثر خطابها، تفرد طائفة بأعمال صالحة، واحوال سنية، وصدق في العزيمة، وقوة في الدين وزهدوا في الدنيا ومحبتها، واغتنموا العزلة والوحدة واتخذوا لنفوسهم زوايا يجتمعون فيها تارة، وينفردون أخرى، أسوة بأهل الصفة، تاركين للأسباب، متبتلين إلى رب الأرباب.

فأثمر لهم صالح الأعمال سنى الأحوال، وتهيأ لهم صفاء الفهوم لقبول العلوم، وصارلهم بعد اللسان لسان، وبعد العرفان عرفان، وبعد الإيمان إيمان، كما قال حارثة: أصبحت مؤمنا حقا، حيث كوشف برتبة في الإيمان غير ما يتعاهدها، فصار لهم بمقتضى ذلك علوم يعرفونها، وإشارات يتعاهدونها، فحرروا لنفوسهم اصطلاحات تشير إلى معان يعرفونها، وتعرب عن أحوال يجدونها ، فأخذ ذلك الخلف عن السلف حتى صار ذلك رسما مستمرا، وخيرا مستقرا في كل عصر وزمان، فظهر هذا الاسم بينهم، وتسموا به وسموا به. فالاسم سمتهم، والعلم بالله صفتهم، والعبادة حليتهم، والتقوى شعارهم، وحقائق الحقيقة أسرارهم، نزاع القبائل، وأصحاب الفضائل، سكان قباب الغيرة، وقطان ديار الحيرة، لهم مع الساعات من إمداد فضل الله مزيد ، ولهيب شوقهم يتأجج ويقول هل من مزيد. اللهم احشرنا في زمرتهم، وارزقنا حالاتهم . والله أعلم .

الباب السابع
في ذكر المتصوف والمتشبه به

أخبرنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السروردي إجازة قال: أنا الشيخ أبو منصور بن خيرون قال: أنا أبو محمد الحسن بن على الجوهري إجازة قال: أنا محمد بن العباس بن زكريا قال: أنا أبو محمد يحي بن محمد بن صاعد الأصفهاني قال: أنا المعتمر بن سليمان قال: أنا حميد الطويل عن أنس بن مالك قال: جاء رجل إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال: يا رسول الله متى قيام الساعة؟ فقال امن ؟ فقال لرجل: أنا يا رسول الله، قال: « ما أعددت له ؟ » قال ما أعددت له كثير صلاة ولا صيام، أو قال: ما أعددت له كبير عمل، إلا أني أحب الله ورسوله، فقال النبي عله الصلاة والسلام : « المرء مع من أحب، أو أنت مع من احببت » قال انس: فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بهذا .

فالمتشبه بالصوفية ما اختار التشبه بهم دون غيرهم من الطوائف إلا لمحبته إياهم، وهو مع تقصيره عن القيام بما هم فيه يكون معهم لموضع إرادته ومحبته.

وقد ورد بلفظ آخر أوضح من الخبر الذي رويناه في المعنى.

روي عبادة بن الصامت عن أبي ذر الغفارى قال: قلت يا رسول الله: الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل كعملهم، قال « انت يا أبا ذر مع من أحببت. قال: قلت فإنى أحب الله ورسوله. قال: فإنك مع من احببت ».

قال: فأعادها أبوذر ، فأعادها رسول ﷺ.

فمحبة المتشبه إياهم لا تكون إلا لتنبه روحه لما تنبهت له أرواح الصوفية، لأن محبة أمر الله وما يقرب إليه ومن يقرب منه تكون بجاذب الروح، غير أن المتشبه تعوق بظلمة النفس، والصوفي تخلص من ذلك. والمتصوف متطلع إلى حال الصوفي ، وهو مشارك ببقاء شئ من صفات نفسه

عليه للمتشبه، وطريق الصوفية أوله إيمان، ثم علم ، ثم ذوق. فالتشبه صاحب إيمان، والإيمان بطريق الصوفية أصل كبير.

قال الجنيد رحمة الله عليه: الإيمان بطريقنا هذا ولاية.

ووجه ذلك أن الصوفية تميزوا بأحوال عزيزة، وآثار مستغربة عند أكثر الخلق، لأنهم مكاشفون بالقدر وغرائب العلوم، وإشاراتهم إلى عظيم أمر الله والقرب منه ، والإيمان بذلك إيمان بالقدرة.

وقد أنكر قوم من أهل الملة كرامات الأولياء، والإيمان بذلك إيمان بالقدرة، ولهم علوم من هذا القبيل فلا يؤمن بطريقهم إلا من خصه الله تعالى بمزيد عنايته.

فالمتشبه صاحب إيمان، والمتصوف صاحب علم، لأنه بعد الإيمان اكتسب مزيد علم بطريقهم، وصار له من ذلك مواجيد يستدل له على سائرها.

والصوفي صاحب ذوق، فالمتصوف وهكذا سنة الله تعالى جارية أن كل صاحب حال له ذوق فيه لا بد أن يكشف له علم بحال أعلى مم هو فيه، فيكون في الحال الأول صاحب ذوق، وفي الحال الذي كوشف به صاحب علم، وبحال فوق ذلك صاحب إيمان، حتى لا يزال طريق الطلب مسلوكا، فيكون في حال الذوق صاحب قدم، وفي حال العلم صاحب نظر، وفي حال فوق ذلك صاحب إيمان، قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾[1].

﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[2].

فكان لشراب الأبرار مزج من شراب المقربين وللمقربين ذلك صرفاً.

---

(١)سورة الانفطار آية: ١٣.

(٢)سورة المطففين آية : ٢٧، ٢٨ .

فلصوفى شراب صرف، وللمتصوف من مزج في شرابه، وللمتشبه مزج من شراب التصوف فالصوفي سبق إلى مقار الروح من بساط القرب، والمتصوف بالنسبة إلى الزاهد، لأنه تفعل وتعمل وتسبب، إشارة إلى ما بقي عليه من وصفه، فهو مجتهد في طريقه سائر على ربه.

قال رسول الله ﷺ « سيروا سبق المفردون، والمتصوف في مقام السائرين، واصل في سيره إلى مقار القلب من ذكر الله عز وجل ومراقبته بقلبه، وتلذذه بنظره إلى نظر الله إليه .

فالصوفي في مقار الروح صاحب مشاهدة والمناصب في مقار صاحب مراقبة. والمتشبه في مقاومة النفس، وصاحب مجاهدة، وصاحب محاسبة فتلوين الصوفي بوجود قلبه. وتلوين المتصوف بوجود نفسه، والمتشبه لا تلوين له، لأن التلوين لأرباب الأحوال، والمتشبه مجتهد سالك لم يصل بعد إلى الأحوال، والكل تجمعهم دائرة الاصطفاء. قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴿٣٢﴾ ﴾[1].

قال بعضهم: الظالم الزاهد، والمقتصد العارف، والسابق المحب.

وقال بعضهم: الظالم الذي يجزع من البلاء، والمتقصد الذي يصبر عند البلاء، والسابق الذي يتلذذ بالبلاء.

وقال بعضهم: الظالم يعبد على الغفلة والعادة، والمقتصد يعبد على الرغبة والرهبة، والسابق يعبد على الهيبة والمنة.

وقال بعضهم: الظالم بذكر الله بلسانه، والمقتصد بقلبه، والسابق لا ينسى ربه.

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي رحمه الله: الظالم صاحب الأقوال، والمقتصد صاحب الأفعال، والسابق صاحب الأحوال.

---

(١)سورة فاطر آية: ٣٢.

وكـل هـذه الأقـوال قريبـه التناسـب مـن حـال الصـوفي والمتصـوف والمتشبه، وكلهم من أهل الفلاح والنجاح، تجمعهم دائـرة الاصطفاء، وتؤلـف بينهم نسبه التخصيص بالمنح والعطاء.

اخبرنا الشيخ العالم رضي الدين ابو الخير احمد بن إسماعيل القزويني إجازة قال أنا ابو سعد محمد بن أبي العباس: قال أنا القاضي محمد بن سعيد قال: أنـا أبـو إسحاق أحمد بـن محمد بـن إبراهيم قـال: أخبرني الحسين بـن محمد بن فنجويه

قال: حدثنا أحمد بن محمد بـن رزمـة قـال: حدثنـا يوسـف بـن عـاصم الرازي قال: حدثنا أبو أيوب سليمان بن داود قـال: حدثنـا حصين بـن نمير، عن أبي ليلى، عن أخيه، عن أسامة بـن زيد رضي الله عنـه عـن النبي ﷺ أنـه قـال في قولـه تعـالى: ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴾[1].

« كلهم في الجنة »

قال ابن عطاء: الظالم الذي يحب الله مـن أجـل الدنيـا، والمقتصد الذي يحب الله من أجل العقبى، والسابق هو الذي أسقط مراده بمراد الله فيه.

وهذا هو حال الصوفي. فالمتشبه تعرض لشئ من أمر القوم، ويوجب له ذلك القرب منهم. مقدمة كل خير.

سمعت شيخنا يقول: جاء بعض أبناء الدنيا إلى الشيخ أحمد الغـزالي ونحن بإصبهان يريد منه الخرقة، فقال له الشيخ: اذهب إلى فلان - يشير إلى - حتى يكلمك في معنى الخرقة، ثم احضر حتى ألبسك الخرقة. قال فجاء إلى فذكرت له حقوق الخرقة، وما يجب من رعاية حقها، وآداب من يلبسها، ومن يؤهل للبسها، فاستعظم الرجل حقوق الخرقة وجبن أن يلبسها.

فأخبر الشيخ بما تجدد عند الطالب من قولي له، فاستحضرني وعاتبني على قولي له ذلك، وقال: بعثته إليك حتى تكلمه بما يزيد رغبته في الخرقة، فكلمته بما فترت عزيمته. ثم الذي ذكرته كله صحيح وهو

---

(١)سورة فاطر آية: ٣٢.

الذي يجب من حقوق الخرقة، ولكن إذا الزمنا المبتدي بذلك نفر وعجز عن القيام به، فنحن نلبسه الخرقة حتى يتشبه بالقوم ويتزيي بزيهم، فيقربه ذلك من مجالسهم ومحافلهم، وببركة مخالطته معهم، ونظره إلى أحوال القوم وسيرهم، يحب أن يسلك مسلكهم ويصل بذلك إلى شئ من أحوالهم.

ويوافق هذا القول من الشيخ احمد الغزالي ما أخبرنا رحمه الله قال: أنا عصام الدين عمر بن احمد الصفار قال: أنا أبو بكر احمد بن على بن خلف قال: أنا الشيخ عبد الرحمن السلمي قال: سمعت الحسين بن يحي يقول: سمعت جعفر يقول: سمعت أبا القاسم الجنيد يقول إذا لقيت الفقير فلا تبدأه بالعلم وابدأه بالرفق، فإن العلم يوحشه والرفق يؤنسه.

وبرفق الصوفية بالمتشبهين بهم ينتفع المبتدي الطالب، وكل من كان منهم اكمل حالا واوفر علماً كان اكثر رفقاً بالمبتدي الطالب.

حكي عن بعضهم أنه صحبه طالب فكان يأخذ نفسه بكثرة المعاملات والمجاهدات، ولم يقصد بذلك إلا نظر المبتدي إليه، والتأدب بأدبه، والاقتداء به في عمله.

وهذا هو الرفق الذي ما دخل في شئ إلا زانه.

فالمتشبه الحقيقي له إيمان بطريق القوم، وعمل بمقتضاه، وسلوك واجتهاد على ما ذكرناه أنه صاحب مشاهدة. فأما من لم يتطلع إلى حال المتصوف والصوفي بالتشبه ولا يقصد أوائل مقاصدهم، بل هو مجرد تشبه ظاهر من ظاهر اللبسة والمشاركة في الزي والصورة، دون السيرة والصفة، فليس بمتشبه، يعتزي إلى القوم بمجرد لبسه، ومع ذلك هم القوم لا يشقي بهم جليسهم، وقد ورد « من تشبه بقوم فهو منهم » .

أخبرنا الشيخ أبوا الفتح محمد بن سليمان قال: أنا أبو الفضل حميد قال: أنا الحافظ أبو نعيم الأصفهاني قال: أنا عبد الله بن محمد بن جعفر قال: حدثنا عمر بن أحمد بن أبي عاصم قال حدثنا إبراهيم بن محمد الشافعي قال: حدثنا على بن أحمد قال: حدثنا على بن على المقدسي قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن عامر قال: حدثنا إبراهيم بن الأشعث قال:

حدثنا فضيل بن عياض، عن سليمان الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ « إن لله ملائكة فضلا عن كتاب الناس يطوفون في الطرق ويتتبعون مجالس الذكر، فإذا رأوا قوماً يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم، فيحفونهم بأجنحتهم إلى عنان السماء، فيقول الله- وهو أعلم - ما يقول عبادي؟ قالوا: يحمدونك ويسبحونك ويمجدونك، فيقول: وهل رأوني ؟ فيقولون: لا، فيقول كيف لو رأوني؟ قالوا: لو رأوك كانوا أشد تسبيحاً وتحميداً وتمجيداً، فيقول: ما يسألونني؟ قالوا: يسألونك الجنة، فيقول: وهل رأوها ؟ قالوا: لا، فيقول كيف لو رأوها؟ قلوا لو رأوها كانوا أشد لها طلباً وعليها أكثر حرصاً قالوا: ويعوذون من النار، فيقول: وهل رأوها؟ قالوا: لا ، فيقول: كيف لو رأوها؟ قالوا: لو رأوها كانوا أشد منهم تعوذاً، وأشد فراراً ، فيقول: أشهدكم أني قد غفرت لهم.

فيقول الملك: فمنهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة، فيقول تبارك وتعالى:

« هم الجلساء لا يشقي جليسهم ».

فلا يشقى جليس الصوفية والمتشبه بهم والمحب لهم.

الباب الثامن
في ذكر الملامتي وشرح حاله

قال بعضهم: الملامتى هو الذي لا يظهر خيرا ولا يضمر شرا. وشرح هـذا هو أن الملامتى تشربت عروقه طعم الإخلاص، وتحقق بالصدق، فلا يحب أن يطلع أحد على حاله وأعماله.

أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر بن أبي الفضل المقدسى إجازة قال: أنـا أبـو بكر أحمد بن على بن خلف الشيرازي إجازة قال: أنا الشـيخ أبـو عبـد الرحمـن السلمي قال: سمعت على بن سعيد وسألته عن الإخلاص ما هو؟ قال: سمعـت محمد بن جعفر الخصاف وسألته عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت احمد بـن بشار عن الإخلاص ما هو؟ قال سألت أبا يعقوب الشروطي عـن الإخـلاص مـا هو؟

قال: سألت أحمد بن غسان عن الإخلاص ما هو؟ قال: سـألت أحمـد بـن على الجهمي عـن الإخـلاص مـا هـو؟ قـال: سـألت عبـد الواحـد بـن زيـد عـن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت الحسن عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت حذيفة عن الإخلاص ما هو؟

قال: سـألت الحسـن عـن الإخـلاص مـا هـو؟ قـال: سـألت حذيفـة عـن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت رسول الله ﷺ عن الإخلاص ما هو؟ قال: « سألت جبرائيل عن الإخلاص ما هـو؟ قـال: سـألت رب العـزة عـن الإخـلاص مـا هـو؟ قال: «هو سر من سري استودعته قلب من أحببت من عبادي »

فالملامتيـة لهـم مزيـد اختصـاص بالتمسـك بـالإخلاص، يـرون كتـم الأحـوال والأعمـال، ويتلـذذون بكتمـها، حتـى لـو ظـهرت أعمـالهم وأحوالهـم لأحد استوحشوا من ذلك كما يستوحش العاصى من ظهر معصيته.

فالملامتي عظم وقع الإخلاص وموضعه، وتمسك به معتداً به. والصوفي غاب في إخلاصه عن إخلاصه.

قال ابوا يعقوب السوسي: متى شهدوا في إخلاصهم الإخلاص، احتاج إخلاصهم إلى إخلاص .

وقال ذو النون: ثلاث من علامات الإخلاص: استواء الذم والمدح من العامة، ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال، وترك اقتضاء ثواب العمل في الآخرة .

اخبرنا ابو زرعة إجازة قال: انا ابو بكر احمد بن علي بن خلف إجازة قال: انا ابو عبد الرحمن قال: سمعت أبا عثمان المغربي يقول: الإخلاص ما لا يكون للنفس فيه حظ بحال، وهذا إخلاص العوام، وإخلاص الخواص ما يجري عليه لا بهم، فتبدو منهم الطاعات وهم عنها بمعزل، ولا يقع لهم عليه رؤية ولا بهم اعتداد، فذلك إخلاص الخواص.

وهذا الذي فصله الشيخ أبو عثمان المغربي يفرق بين الصوفي والملامتي، لأن الملامتي أخرج الخلق عن عمله وحاله، ولكن أثبت نفسه، فهو مخلص، والصوفي أخرج نفسه عن عمله وحاله كما أخرج غيره، فهو مخلص وشتان ما بين المخلص الخالص والمخلص.

قال أبوا بكر الزقاق: نقصان كل مخلص في إخلاصه رؤية إخلاصه، فإذا أراد الله أن يخلص إخلاصه أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه، فيكون مخلصاً لا مخلصاً .

قال أبو سعيد الخراز: رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين.

ومعنى قوله إن إخلاص المريدين معلول برؤية الإخلاص، والعارف منزه عن الرياء الذي يبطل العمل، ولكن لعله يظهر شيئاً من حاله وعمله بعلم كامل عنده فيه لجذب مريد، أو معاناة خلق من أخلاق النفس في

إظهاره الحال والعمل، وللعارفين في ذلك علم دقيق لا يعرفه غيرهم، فيرى ذلك ناقص العلم صورة رياء وليس برياء، إنما هو صريح العلم لله بالله من غير حضور نفس ووجود آفة فيه.

قال رويم: الإخلاص أن لا يرضي صاحبه عليه عوضاً في الدارين، ولا حظاً من الملكين .

وقال بعضهم: صدق الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق والملامتى يرى الخلق فيخفي علمه وحاله.

وكل ما ذكرناه من قبل وصف إخلاص الصوفي .

ولهذا قال الزقاق: لا بد لكل مخلص من رؤية إخلاصه، وهو نقصان عن كمال الإخلاص، والإخلاص هو الذي يتولى الله حفظ صاحبه حتى يأبى به على التمام.

قال جعفر الخالدي: سألت أبا القاسم الجنيد رحمه الله قلت: أبين الإخلاص والصدق فرق ؟ قال: نعم، الصدق أصل وهو الأول، والإخلاص فرع وهو تابع، وقال: بينهما فرق، لأن الإخلاص لا يكون إلا بعد الدخول في العمل، ثم قال: إنما هو إخلاص، ومخالصة الإخلاص، وخالصة كائنة في الخالصة.

فلعل هذا الإخلاص حال الملامتى، ومخالصة الإخلاص حال الصوفي، والخالصة الكائنة في الخالصة ثمرة مخالصة الإخلاص وهو فناء العبد عن رسومه برؤية قيامه بقيومه، بل غيبته عن رؤية قيامه، وهو الاستغراق في العين عن الآثار، والتخلص عن لوث الاستتار وهو فقد حال الصوفي.

والملامتى مقيم في أوطان إخلاصه، غير متطلع إلى حقيقة إخلاصه.

وهذا فرق واضح بين الملامتى والصوفي.

ولم يزل في خراسان منهم طائفة، ولهم مشايخ يمهدون أساسهم، ويعرفونهم شروط حالهم. وقد رأينا في العراق من يسلك هذا المسلك، ولكن لم يشتهر بهذا الاسم، وقلما يتداول ألسنة أهل العراق هذا الاسم.

فقال: لأني إن حضرت يظهر على وجد، ولا أوثر أن يعلم أحد حالي.

وقيل: أن أحمد بن أبي الحواري قال لأبي سليمان الداراني: إني إذا كنت في الخلوة أجد لمعاملتي لذة لا أجدها بين الناس، فقال له: إنك إذا لضعيف.

فالملامتي وإن كان متمسكاً بعروة الإخلاص، مستفرشاً بساط الصدق، ولكن بقى عليه بقية رؤية الخلق، وما أحسنها من بقية تحقق الإخلاص والصدق.

والصوفي صفا من هذه البقية في طرفي العمل والترك للخلق، وعزلهم بالكلية، ورآهم بعين الفناء والزوال، ولا ح له ناصية التوحيد، وعين سر قوله: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (١).

كما قال بعضهم في بعض غلباته: ليس في الدارين غير الله.

وقد يكون إخفاء الملامتي الحال على وجهين:

أحد الوجهين لتحقيق الإخلاص والصدق.

والوجه الآخر وهو الأتم لستر الحال عن غيره، بنوع غيره، فإن من خلا بمحبوبه يكره اطلاع الغير عليه، بل يبلغ في صدق المحبة أن يكره اطلاع أحد على حبه لمحبوبه.

---

(١) سورة القصص آية: ٨٨.

وهذا وإن علا ففي طريق الصوفي علة ونقص. فعلى هذا يتقدم الملامتى على المتصوف ويتأخر عن الصوفى.

وقيل: أن من أصول الملامتية أن الذكر على أربعة أقسام:

ذكر باللسان.

وذكر بالقلب.

وذكر بالسر.

وذكر بالروح.

فإذا صح ذكر الروح سكت السر والقلب واللسان عن الذكر ، وذلك ذكر المشاهدة.

وإذا صح ذكر السر سكت القلب واللسان عن الذكر، وذلك ذكر الهيبة.

وإذا صح ذكر القلب فتر اللسان عن الذكر، وذلك الآلاء والنعماء.

وإذا غفل القلب عن الذكر، أقبل اللسان على الذكر، وذلك ذكر العادة.

ولكل واحد من هذه الأذكار عندهم آفة.

فآفة ذكر الروح اطلاع السر عليه.

وآفة ذكر السر اطلاع القلب عليه.

وآفة ذكر القلب اطلاع النفس عليه.

وآفة ذكر النفس رؤية ذلك وتعظيمه، أو طلب ثوابه، أو ظن أنه يصل إلى شئ من المقامات.

واقل الناس قيمة عنهم مون يريد إظهاره وإقبال الخلق عليه بذلك.

وسر هذا الأصل الذي بنوا عليه أن ذكر الروح ذكر الذات.

وذكر السر ذكر الصفات بزعمهم، وذكر القلب من الآلاء والنعماء .

ذكر أثر الصفات، وذكر النفس متعرض للعلات.

فمعنى قولهم: اطلاع السر على الروح، يشيرون إلى التحقق بالفناء عند ذكر الذات .

وذكر الهيبة في ذلك الوقت ذكر الصفات مشعر بنصيب الهيبة وهو وجود الهيبة، ووجود الهيبة يستدعى وجودا وبقية، وذلك يناقض حال الفناء.

وهكذا ذكر السر وجود هيبة وهو ذكر الصفات مشعر بنصيب القرب.

وذكر القلب الذي هو ذكر الآلاء والنعماء مشعر ببعد ما لأنه المعطي ضرب من بعد المنزلة واطلاع النفس نظرا إلى الأعواض اعتداد بوجود العمل، وذك عين الاعتدال حقيقة.

وهذه أقسام هذه الطائفة، وبعضها أعلى من بعض. والله أعلم.

الباب التاسع

في ذكر من أنتمى إلى الصوفية وليس منهم

فمن أولئك قوم يسمون نفوسهم قلندرية تارة، وملامتية اخرى، وقد ذكرنا حال اللامتى، وأنه حال شريف، ومقام عزيز، وتمسك بالسنن والآثار وتحقق بالإخلاص والصدق، وليس مما يزعم المفتونون بشيء.

فأما القلندرية فهو إشارة إلى اقوام ملكهم سكر طيبة قلوبهم حتى خربوا العادات، وطرحوا بآداب المجالسات والمخالطات، وساحوا في ميادين طيبة قلوبهم، فقلت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض، ولم يبالوا بتناول شئ من لذات الدنيا من كل ما كان مباحاً برخصة الشرع، وربما اقتصروا على رعاية الرخصة، ولم يطلبوا حقائق العزيمة.

ومع ذلك هم متمسكون بترك الادخار، وترك الجمع والاستكثار، ولا يترسمون بمراسم المتقشفين والمتزهدين والمتعبدين، وقنعوا بطيبة قلوبهم مع الله تعالى، واقتصروا على ذلك، وليس عندهم تطلع إلى طلب مزيد سوى ما هم عليه من طيبة القلوب.

والفرق بين اللامتى والقلندري، اللامتى يعمل في كتم العبادات، والقلندري يعمل في تخريب العادات، واللامتى يتمسك بكل أبواب البر والخير ويرى الفضل فيه، ولكن يخفى الأعمال والأحوال، ويوقف نفسه موقف العوام في هيئته وملبوسه وحركاته واموره، ستراً للحال لئلا يفطن له، وهو مع ذلك متطلع إلى طلب المزيد، باذل مجهوده في كل ما يتقرب به العبيد.

والقلندري لا يتقيد بهيئة، ولا يبالي بما يعرف من حاله وما لا يعرف، ولا ينعطف إلا على طيبة القلوب وهو رأس ماله. والصوفي يضع الأشياء مواضعها، ويدبر الأوقات والأحوال كلها بالعلم، يقيم الخلق مقامها، ويقيم

أمر الحق مقامه، ويستر ما ينبغي أن يستر ويظهر ما ينبغي أن يظهر، ويأتي بالأمور في مواضعها بحضور عقل، وصحة توحيد، وكمال معرفة، ورعاية صدق وإخلاص.

فقوم من المفتونين سموا أنفسهم ملامتية ولبسوا لبسة الصوفية لينسبوا بها إلى الصوفية وما هم من الصوفية بشئ، بل هم في غرور وغلط، يتسترون بلبسة الصوفية توقيتاً تارة، وينتهجون مناهج أهل الإباحة، ويزعمون أن ضمائرهم خلصت إلى الله تعالى، ويقولون هذا هو الظفر بالمراد، والارتسام بمراسم الشريعة سمة العوام، والقاصرين الإفهام، المنحصرين في مضيق الاقتداء تقليداً، وهذا هو عين الإلحاد والزندقة والإبعاد، فكل حقيقة ردتها الشريعة فهي زندقة، وجهل هؤلاء المغرورون أن الشريعة حق العبودية، والحقيقة هي حقيقة العبودية، ومن صار من أهل الحقيقة تقيد بحقوق العبودية، وحقيقة العبودية، وصار مطالباً بأمور وزيادات لا يطالب بها من لم يصل إلى ذلك، لا أنه يخلع عن عنقه ربقة التكليف، ويحاصر باطنه الزيغ والتحريف.

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسي قال: أنا أبو محمد الخطيب، ثنا أبو بكر بن محمد بن عمر قال: ثنا أبو بكر بن أبي دواد قال :ثنا أحمد بن صالح قال: ثنا عنبسة قال: ثنا يونس بن يزيد قال: قال محمد يعني الزهري : أخبرني حميد بن عبد الرحمن، أن عبد الله بن عتبة بن مسعود حدثه قال:

سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إن أناساً كانوا يؤخذون بالوحي على عهد رسول الله ﷺ، وإن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيراً أمناه وقربناه، وليس إلينا من سريرته شيء، الله تعالى يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوى ذلك لم نأمنه وإن قال سريرتي حسنة. وعنه أيضاً رضي الله عنه قال: من عرض نفسه للتهم فلا يلو من أساء به الظن.

فإذا رأينا متهاوناً بحدود الشرع، مهملاً للصلوات المفروضات، لا يعتد بحلاوة التلاوة والصوم والصلاة ويدخل في المداخل المكروهة المحرمة نرده ولا نقبله، ولا نقبل دعواه أن له سريرة صالحة.

أخبرنا شيخنا ضياء الدنيا أبو النجيب السهروردي إجازة، عن عمر بن أحمد، عن ابن خلف، عن السلمي قال: سمعت أبا بكر الرازي، سمعت أبا محمد الجريري يقول: سمعت الجنيد يقول لرجل ذكر المعرفة، فقال الرجل: أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقوى إلى الله تعالى.

فقال الجنيد: إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهذه عندي عظيمة، والذي يسرق ويزني أحسن حالا من الذي يقول هذا، وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله وإليه يرجعون فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بي دونها، وإنها لآكد في معرفتي وأقوى لحالي.

ومن جملة أولئك قوم يقولون بالحلول، ويزعمون أن الله تعالى يحل فيهم ويحل في أجسام يصطفيها، ويسبق لأفهامهم معنى من قول النصارى في اللاهوت والناسوت.

ومنهم من يستبيح النظر إلى المستحسنات، إشارة إلى هذا الوهم، وتخايل له أن من قال كلاما في بعض غلباته كان مضمر الشيء مما زعموه، مثل قول الحلاج: أنا الحق، وما يحكي عن أبي يزيد من قوله: سبحاني. حاشا أن نعتقد في أبي يزيد أنه يقول ذلك إلا على معنى الحكاية عن الله تعالى. وهكذا ينبغي أن يعتقد في قول الحلاج ذلك. ولو علمنا أنه ذكر ذلك القول مضمر الشيء من الحلول رددناه كما نردهم.

وقد أتانا رسول الله ﷺ بشريعة بيضاء نقية، يستقيم بها كل معوج، وقد دلتنا عقولنا على ما يجوز وصف الله تعالى به وما لا يجوز .

والله تعالى منزه أن يحل به شيء أو يحل بشيء ، حتى لعل بعض المفتونين يكون عنده ذكاء وفطنة غريزية، ويكون قد سمع كلمات تعلقت بباطنه، فيتألف له في فكره كلمات ينسبها إلى الله تعالى، وأنها مكالمة الله تعالى إياه، مثل أن يقول قال لي وقلت له، وهذا رجل إما جاهل بنفسه وحديثها، جاهل، بربه وبكيفية المكالمة والمحادثة، وإما عالم ببطلان ما يقول يحمله هواه على الدعوى بذلك ليوهم أنه ظفر بشيء.

وكل هذا ضلال، ويكون سبب تجرئه على هذا ما سمع من كلام بعض المحققين مخاطبات وردت عليهم بعد طول معاملات لهم ظاهرة وباطنة، وتمسكهم بأصول القوم من صدق التقوى وكمال الزهد في الدنيا.

فلما صفت أسرارهم تشكلت في سرائرهم مخاطبات موافقة للكتاب والسنة، فنزلت تلك المخاطبات عند استغراق السرائر، ولا يكون ذلك كلاماً يسمعونه، بل كحديث في النفس يجدونه برؤية موافقاً للكتاب والسنة، مفهوماً عند أهله، موافقاً للعلم.

ويكون ذلك، مناجاة لسرائرهم، ومناجاة سرائرهم إياهم، فيثبتون لنفوسهم وإلى مولاهم، وهم مع ذلك عالمون بأن ذلك ليس كلام الله، وإنما هو علم حادث أحدثه الله في بواطنهم.

فطريق الأصحاء في ذلك الفرار إلى الله تعالى من كل ما تحدث نفوسهم به، حتى إذا برئت ساحتهم من الهوى الهموا في بواطنهم شيئاً ينسبونه إلى الله تعالى نسبة الحادث إلى المحدث، لا نسبة الكلام إلى المتكلم، ليصانوا عن الزيغ والتحريف.

ومن أولئك قوم يزعمون أنهم يغرقون في بحار التوحيد ويسقطون ولا يثبتون لنفوسهم حركة وفعلا ويزعمون أنهم مجبورون على الأشياء، وأن لا فعل لهم مع فعل الله، ويسترسلون في المعاصي، وكل ما تدعوا النفس إليه،

ويركنون إلى البطالة ودوام الغفلة، والاغترار بالله، والخروج من الملة، وترك الحدود والأحكام ، والحلال والحرام.

وقد سئل سهل عن رجل يقول: أنا كالباب لا أتحرك إلا إذا حركت، قال: هذا لا يقوله إلا أحد رجلين:

إما صديق.

أو زنديق.

لأن الصديق يقول هذا القول إشارة إلى أن قوام الأشياء بالله مع إحكام الأصول ورعاية حدود العبودية.

والزنديق يقول ذلك إحالة للأشياء على الله، وإسقاطاً للائمة عن نفسه، وانخلاعاً عن الدين ورسمه. فأما من كان معتقداً وجوب التوبة منها، فهو سليم صحيح ، وإن كان تحت القصور بما يركن إليه من البطالة، ويتروح بهوى النفس إلى الأسفار والتردد في البلاد، متوصلا إلى تناول اللذائذ والشهوات، غير متمسك بشيخ يؤدبه ويهذبه، ويبصره بعيب ما هو فيه.

والله الموفق.

الباب العاشر

في شرح رتبة المشيخة

ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ « والذي نفس محمد بيده لئن شئتم لأقسمن لكم، إن أحب عباد الله تعالى إلى الله الذين يحببون الله إلى عباده، ويحببون عباد الله إلى الله، ويمشون على الأرض بالنصيحة ».

وهذا الذي ذكره رسول الله ﷺ هو رتبة المشيخة والدعوة إلى الله تعالى، لأن الشيخ يحبب الله إلى عباده حقيقة، ويحبب عباد الله إلى الله.

ورتبه المشيخة من أعلى الرتب في طريق الصوفية، ونيابة النبوة في الدعاء إلى الله.

فأما وجه كون الشيخ يحبب الله إلى عباده، فلأن الشيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله ﷺ .

ومن صح اقتداؤه واتباعه أحبه الله تعالى قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴿٣١﴾ ﴾[1].

ووجه كونه يحبب عباد الله تعالى إليه أنه يسلك بالمريد طريق التزكية، وإذا تزكت النفس انجلت مرآة القلب، وانعكست فيه أنوار العظمة الالهية، ولاح فيه جمال التوحيد، وانجذبت أحداق البصيرة إلى مطالعة أنوار جلال القدم، ورؤية الكمال الأزلي، فأحب العبد ربه لا محالة، وذلك ميراث التزكية، قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾[2].

وفلاحها بالظفر بمعرفة الله تعالى.

---

(١)سورة آل عمران آية: ٣١.
(٢)سورة الشمس آية: ٩.

وأيضاً مرآة القلب إذا انجلت لاحت فيها الدنيا بقبحها وحقيقتها وماهيتها، ولاحت الآخرة ونفائسها بكنهها وغايتها، فتنكشف للبصيرة حقيقة الدارين، وحاصل المنزلين، فيحب العبد الباقي ويزهد في الفاني، فتظهر فائدة التزكية، وجودى المشيخة والتربية.

فالشيخ من جنود الله تعالى يرشد به المريدين، ويهدي به الطالبين.

اخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسي قال: انا أبوا الفضل عبد الواحد بن على بهمذان قال: انا أبو بكر محمد بن على بن احمد الطوسي قال:

حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب قال: حدثا أبو عتبة قال: وحدثنا بقيه قال: حدثنا صفوان بن عمرو قال: كان يقال: إذا اجتمع عشرون رجلا أو اكثر،فإن لم يكن فيهم من يهاب الله عز وجل فقد خطر الأمر.

فعلى المشايخ وقار الله، وبهم يتأدب المريدون ظاهرا وباطناً، قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴿٩٠﴾ ﴾[1].

فالمشايخ لما اهتدوا أهلوا لاقتداء بهم، وجعلوا أئمة المتقين. قال رسول الله ﷺ حاكياً عن ربه « إذا كان الغالب على عبدى الاشتغال بي جعلت همته ولذاته في ذكرى، فإذا جعلت همته ولذته في ذكرى عشقني وعشقته، ورفعت الحجاب فيما بيني وبينه، لا يسه إذا سها الناس، أولئك كلامهم كلام الأنبياء، أولئك الأبطال حقاً، أولئك الذين إذا اردت بأهل الأرض عقوبة أو عذاباً ذكرتهم فيه فصرفته بهم عنهم».

والسر في وصول السالك إلى رتبة المشيخة، أن السالك مأمور بسياسة النفس، مبتلى بصفاتها، لا يزال يسلك بصدق المعاملة حتى تطمئن نفسه، وبطمأنينتها ينتزع عنها البرودة واليبوسة التي استصحبتها من أصل خلقتها،

(١)سورة الأنعام آية: ٩٠.

وبها تستعصى على الطاعة والانقياد للعبودية، فإذا زالت اليبوسة عنها، ولانت بحرارة الروح الواصلة إليها، وهذا اللين هو الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴿٢٣﴾ ﴾[1]. تعالى، تجيب إلى العبادة، وتلين للطاعة عند ذلك. وقلب العبد متوسط بين الروح والنفس، ذو وجهين، احد وجهية إلى النفس، والوجه الآخر إلى الروح، يستمد من الروح بوجهه الذي يليه، ويمد النفس بوجهه الذي يليها حتى تطمئن النفس، فإذا اطمأنت نفس السالك، وفرغ من سياستها، انتهى سلوكه، وتمكن من سياسة النفس وانقادت نفسه وفاءت إلى أمر الله.

ثم القلب يشرئب إلى السياسة لما فيه من التوجه إلى النفس، فيقوم نفوس المريدين والطالبين والصادقين عند مقام نفسه، لوجود الجنسية في عين النفسية من وجه، ولوجود التالف بين الشيخ والمريد من وجه، ولوجود التالف بين الشيخ والمريد من وجه بالتالف.الالهي .

قال الله تعالى ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴿٦٣﴾ ﴾[2].

فيسوس نفس المريدين كما كان يسوس نفسه من قبل، ويكون في الشيخ حينئذ معنى التخلق بأخلاق الله تعالى من معنى قوله لله تعالى.

ألا طال شوق الأبرار إلى لقائي وإني إلى لقائهم لأشد شوقا

وبما هيأ الله تعالى من حسن التالف بين الصاحب والمصحوب، يصير المريد جزء الشيخ، كما أن الولد جزء الوالد في الولادة الطبيعة، وتصير هذه الولادة آنفاً ولادة معنوية كما ورد عن عيسى عليه السلام: لن يلج ملكوت السماء من لم يولد مرتين.

---

(١)سورة الزمر آية: ٢٣.
(٢)سورة الأنفال آية: ٦٣.

فبالولادة الأولى يصير له ارتباط بعـالم الملك، وبهذه الـولادة يصير لـه ارتبـاط بـالملكوت.قـال الله تعـــالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥﴾ [1].

وصرف اليقين على الكمال يحصل في هذه الـولادة، وبـهذه يسـتحق ميراث الأنبياء، ومن لم يصله مـيراث الأنبيـاء مـا ولـد، وإن كـان على كمـال من الفطنة والذكـاء، لأن الفطنـة والذكـاء نتيجـة العقـل، والعقـل إذا كـان يابساً من نور الشـرع لا يدخـل الملكوت، ولا يـزال مـترددا في الملك، ولهذا وقـف على برهان من العلوم الرياضية، لانه تصرف في الملك ولم يرتق إلى الملكوت .

والملك ظـاهر الكـون، والملكـوت بـاطن الكـون، والعقـل لسـان الـروح . والبصيرة التي منها تنبعث أشعة الهداية قلب الـروح، واللسـان ترجمـان القلـب، وكل ما ينطق به الترجمـان معلـوم عنـد مـن يـترجم عنـه، وليـس كـل مـا عند من يترجم عنه يبرز إلى الترجمان، فلهذا المعنى حرم الواقفـون مـع مجـرد العقـول العاريـة عـن نـور الهدايـة، الـذي هـو موهبـة الله تعـالى عنـد الأنبيـاء وأتباعهم الصواب، وأسبل دونهم الحجاب لوقوفـهم مـع الترجمـان، وحرمانـهم غاية التبيان.

وكما أن في الولادة الطبيعة ذرات الأولاد صلـب الأب مودعـة، تنقـل إلى أصلاب الأولاد بعـد كـل ولـد ذرة، وهـي الـذرات التي خاطبها الله تعـالى يـوم الميثـاق بألست بربكـم، قـالوا بلـى ، حيث مسح ظهر آدم وهـو ملقى ببطـن نعمان بين مكة والطائف، فسالت الذرات من مسام جسده كما يسيل العـرق بعدد كل ولد من ولد آدم ذرة .

ثـم لما خوطبت وأجابت ردت إلى ظهر آدم . فمـن الآبـاء مـن تنـد الـذرات في صلبـه، ومنـهم مـن لم يـودع في صلبـه شـيء فينقطـع نسـله. وهكـذا المشـايخ، فمنهم من تكثر أولاده، ويأخذون منه العلوم والأحـوال، ويودعونـها غـيرهم،

---

(١)سورة الأنعام آية: ٧٥.

كما وصلت إليهم منهم من ينقطع نسله له. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ﴾[1].

وإلا فنسل رسول الله ﷺ باق إلى ان تقوم الساعة وبالنسبة المعنوي يصل ميراث العلم إلى أهل العلم.

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي إملاء قال: أنا أبو عبد الرحمن الماليني قال: أنا أبو الحسن الداودي قال: أنا أبو محمد الحموى قال: أنا أبو عمران السمرقندي قال: أنا أبو محمد الدارمي قال: أنا نصر بن على قال: حدثنا عبد الله بن داود، عن عاصم، عن رجاء بن حيوة، عن داود بن جميل، عن كثير بن قيس قال: كنت جالسًا مع أبي الدرداء في مسجد دمشق، فأتاه رجل فقال: يا أبا الدرداء إني أتيتك من المدينة، مدينة الرسول ﷺ لحديث بلغنى عنك انك تحدثه عن رسول الله ﷺ قال: فما جاء بك تجارة؟ قال: لا. قال: ولا جاء بك غيره ؟ قال: لا. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول « من سلك طريقاً يلتمس به علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة وإن الملائكة لتضع اجنحتها رضاً لطالب العلم، وإن فضل طالب العلم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم، وإن العلماء هم ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما أورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظه أو بحظ وافر ».

فأول ما أودعت الحكمة والعلم عند آدم أبي البشر عليه السلام، ثم انتقل منه كما انتقل منه النسيان والعصيان وما تدعوا إليه النفس والشيطان، كما ورد أن الله تعالى أمر جبرائيل حتى اخذ قبضة من اجزاء الأرض، والله تعالى نظر إلى الأجزاء الأرضية التي كونها من الجوهرة التي خلقها اولا، فصار من مواقع نظر الله إليها فيها خاصية السماع من الله تعالى والجواب،

---

(١)سورة الكوثر آية: ٣.

حيث خاطب السموات والأرضين بقوله: ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[١]

. فحملت أجزاء الأرض بهذا الخطاب خاصية، ثم انتزعت هذه الخاصية منه بأخذ أجزئها لتركيب صورة آدم، فركبت جسد آدم من أجزاء أرضية محتوية على هذه الخاصية، فمن حيث نسبة أجزاء الأرض تركب فيه اللهوى، حتى مد يده إلى شجرة الفناء، وهي شجرة الحنطة في أكثر الأقاويل، فتطرق لقابله الفناء وبإكرام الله إياه بنفخ الروح الذي أخبر عنه بقوله: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾[٢]

نال العلم والحكمة.

فبالتسوية صار ذا نفس منفوسة، وبنفخ الروح صار ذا روح روحاني، وشرح هذا يطول. فصار قلبه معدن الحكمة، وقلبه معدن الهوى، فانتقل منه العلم والهوى، وصار ميزانه في والده، فصار من طريق الوالد أبا بواسطة الطبائع التي هي محل الهوى، ومن طريق الولادة المعنوية محمية من الفناء، لأنها وجدت من شجرة الخلد، وهي شجرة العلم لا شجرة الحنطة التي سماها إبليس شجرة الخلد فإبليس يرى الشيء بضده . فتبين أن الشيخ هو الأب.

وكثيرا كان شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردي رحمه الله يقول: ولدي من سلك طريقي واهتدى بهديي.

فالشيخ الذي يكتسب بطريقة الأحوال قد يكون مأخوذا في ابدائه في طريق المحبين، وقد يكون مأخوذا في طريق المحبوبين، وذلك أن امر الصالحين والسالكين ينقسم أربعة أقسام: سالك مجرد، ومجذوب مجرد، وسالك متدارك بالجذبة، ومجذوب متدارك بالسلوك.

---

(١)سورة فصلت : آية: ١١.
(٢)سورة الحجر: آية: ٢٩.

فالسالك المجرد لا يؤهل للمشيخة ولا يبلغها لبقاء صفاء نفسه عليه، فيقف عند حظه من رحمة الله تعالى في مقام المعاملة والرياضة، ولا يرتقي إلى حال يروح بها عن وهج المكابدة.

والمجذوب المجرد من غير سلوك يبادئه الحق بآيات اليقين، ويرفع عن قلبه شيئاً من الحجاب، ولا يؤخذ في طريق المعاملة.

وللمعاملة أثر تام.

سوف نشرحه في موضعه إن شاء الله تعالى. وهذا أيضاً لا يؤهل للمشيخة، ويقف عند حظه من الله، ومروحاً بحاله، غير مأخوذ في طريق أعماله ماعدا الفريضة.

والسالك الذي تدورك بالجذبة، وهو الذي كانت بدايته بالمجاهدة والمكابدة والمعاملة بالإخلاص والوفاء بالشروط، ثم أخرج من وهج المكابدة إلى روح الحال، فوجد العسل بعد العلقم، وتروح بنسمات الفضل، وبرز من مضيق المكابدة إلى متسع المساهلة، وأونس بنفحات القرب، وفتح له باب من المشاهدة.

فوجد دواءه، وفاض وعاؤه، وصدرت منه كلمات الحكمة، ومالت له القلوب، وتوالى عليه فتوح الغيب، وصار ظاهره مسدداً وباطنه مشاهداً، وصلح للجلوة، وصار له في الجلوة خلوة، فيغلب ولا يغلب، ويفترس ولا يفترس، يؤهل مثل هذا للمشيخة، لأنه أخذ في طريق المحبين، ومنح حالا من احوال المقربين، بعد ما دخل من طريق أعمال الأبرار الصالحين، ويكون له اتباع ينتقل منه إليهم علوم، ويظهر بطريقه بركة، ولكن قد يكون محبوساً في حاله، محكماً حالة فيه، لا يطلق من وثاق الحال ولا يبلغ كمال النوال، يقف عند حظه وهو حظ وافر سني، والذين أوتوا العلم درجات.

ولكن المقال الأكمل في المشيخة القسم الرابع وهو المجذوب المتدارك بالسلوك، يبادئه الحق بالكشوف وأنوار اليقين، ويرفع عن قلبه الحجب، ويستنير بأنوار المشاهدة، وينشرح وينفسح قلبه، ويتجافى عن دار الغرور، وينيب إلى دار الخلود، ويرتوى من بحر الحال، ويتخلص من الأغلال والأعلال ، ويقول معلنا لا أعبد رباً لم أره، ثم يفيض من باطنه على ظاهره، وتجرى عليه صورة المجاهدة والمعاملة من غير مكابدة وعناء، بل بلذاذة وهناء، ويصير قالبه بصفة قلبه لا متلاء قلبه بحب ربه ويلين جلده كما لان قلبه.

وعلامة لين جلده إجابة قالبه للعمل ، كإجابة قلبه، فيزيده الله تعالى إرادة خاصة ويرزقه محبة خاصة من محبة المحبوبين المرادين، ينقطع فيواصل، ويعرض عنه فيراسل، ويذهب عنه جمود النفس، ويصلى بحرارة الروح، وتنكمش عن قلبه عروق النفس. قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴿٢٣﴾﴾[1].

اخبر أن الجلود تلين، كما أن القلوب تلين، ولا يكون هذا إلا حال المحبوب المراد. وقد ورد في الخبر أن إبليس سأل السبيل إلى القلب، فقيل له يحرم عليك، ولكن السبيل لك في مجاري العروق المشتبكة بالنفس إلى حد القلب، فإذا دخلت العروق عرقت فيها من ضيق مجاريها، وامتزج عرقك بماء الرحمة المترشح من جانب القلب في مجرى واحد، ويصل بذلك سلطانك، إلى القلب، ومن جعلته نبياً أو ولياً قلعت تلك العروق من باطن قلبه فيصير القلب سليماً، فإذ دخلت العروق لم تصل إلى المشتبكة بالقلب، فلا يصل إلى القلب سلطانك.

---

(١)سورة الزمر آية: ٢٣.

فالمحبوب المراد الذي أهل للمشيخة، وسلم قلبه، وانشرح صدره ولان جلده، فصار قلبه بطبع الروح، ونفسه بطبع القلب، ولا نت النفس بعد ان كانت امارة بالسوء مستعصية، ولان الجلد للين النفس، ورد إلى صورة الأعمال بعد وجان الحال.

ولا يزال روحه ينجذب إلى الحضرة الالهية، فيستتبع الروح القلب، فامتزجت الأعمال القلبية والقالبية، وانخرق الظاهر إلى الباطن، والباطن إلى الظاهر،والقدرة إلى الحكمة، والحكمة إلى القدرة، والدنيا إلى الآخرة .الآخرة إلى الدنيا، ويصح له أن يقول: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً. فعند ذلك يطلق من وثاق الحال، ويكون مسيطرا على الحال لا الحال مسيطرا عليه، ويصير حرا من كل وجه.

والشيخ الأول الذي أخذ في طريق المحبين حر من رق النفس، ولكن ربما كان باقياً في رق القلب. وهذا الشيخ في طريق المحبوبين حر من رق النفس، وذلك أن النفس حجاب ظلماني أرضي أعتق منه الأول، والقلب حجاب نوراني سماوي أعتق منه الآخر، فصار لربه لا لقلبه ولموقته لا لوقته، فعبد الله حقاً ، وآمن به صدقاً ويسجد لله سواده وخياله، ويؤمن به فؤاده، وقر به لسانه، كما قال رسول الله ﷺ في بعض سجوده، ولا يتخلف عن العبودية منه شعرة، وتصير عبادته مشاكلة لعبادة الملائكة ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴾[1].

فالقوالب هو الظلال الساجدة، ظلال الأرواح المقربة في عالم الشهادة.

الأصل كثيف والظل لطيف، وفي عالم الغيب الأصل لطيف والظل كثيف، فيسجد لطيف العبد وكثيفه، وليس هذا لمن اخذ في طريق المحبين لأنه يستتبع صور الأعمال، ويمتلئ بما أنيل من وجدان الحال، وذلك قصور في العلم، وقلة في الحظ، ولو كثر العلم رأى ارتباط الأعمال بالأحوال

(١)سورة الرعد : آية: ١٩.

كارتباط الروح بالجسد، ورأى أن لا غنى عن الأعمال كما لا غنى في عالم الشهادة عن القوالب، فما دامت القوالب باقية فالعمل باق، ومن صح في المقام الذي وصفناه هو الشيخ المطلق، والعارف المحقق، والمحبوب المعتق، نظره دواء، وكلامه شفاء، بالله ينطق، وبالله يسكت، كما ورد « لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحبته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً، بي ينطق وبي يبصر » الحديث.

فالشيخ يعطي بالله، ويمنع بالله، فلا رغبة له في عطاء ومنع لعينه، بل هو مع مراد الحق، والحق يعفه مراده، فيكون في الأشياء بمراد الله تعالى لا بمراد نفسه، فإن علم أن الله تعالى يريد منه الدخول في صورة محمود دخل فيها مراد الله تعالى لا لكون الصورة محمودة، بخلاف الخادم القائم بواجب خدمة الله تعالى.

الباب الحادي عشر
في شرح حال الخادم ومن يتشبه به

أوحي الله تعالى إلى داود عليه السلام قال: « ياداود إذا رأيت لي طالباً فكن له خادما »

الخادم يدخل في الخدمة راغباً في الثواب، وفيما أعد الله تعالى للعباد، ويتصدى لإيصال الراحة وفرغ خاطر المقبلين على الله تعالى عن مهام معاشهم ويفعل ما يفعله الله تعالى بنية صالحة.

فالشيخ واقف مع مراد الله تعالى، والخادم واقف مع نيته.

فالخادم يفعل الشيء لله تعالى، والشيخ يفعل الشيء لله. فالشيخ في مقام المقربين، والخادم في مقام الأبرار. فيختار الخادم البذل والإيثار، والارتفاق من الأغيار للأغيار، ووظيفة وقته تصديه لخدمة عباد الله، وفيه يعرف الفضل ورجحه على نوافله وأعماله.

وقد يقيم من لا يعرف الخادم من الشيخ الخادم مقام الشيخ، وربما جهل الخادم أيضاً حال نفسه، فيحسب نفسه شيخاً لقلة العلم، واندراس علوم القوم في هذا الزمان، وقناعة كثير من الفقراء من المشايخ باللقمة دون العلم والحال. فكل من كان أكثر إطعاماً هو عندهم أحق بالمشيخة، ولا يعلمون أنه خادم وليس بشيخ. والخادم في مقام حسن وحظ صالح من الله تعالى.

وقد ورد ما يدل على فضل الخادم فيما أخبرنا الشيخ أبو زرعة ابن الحافظ أبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي عن أبيه قال: أنا أبوالفضل محمد بن عبد الله المقري قال: حدثنا أبو الحسن محمد بن الحسين بن داود العلوي قال: حدثنا أبو حامد الحافظ قال: حدثنا العباس بن محمد الدوري

وأبو الأزهر قالا: حدثنا أبو داود قال: حدثنا سفيان، عن الأوزاعي، عن يحيى بن ابي كثر عن أبي سلمة، عن ابي هريرة " « أن النبي ﷺ أتى بطعام وهو بمر الظهران، فقال لأبي بكر وعمر: كلا ، فقالا: إنا صائمان، فقال: ارحلا لصاحبيكما، اعملا لصاحبيكما، ادنوا فكلا، يعني انكما ضعفتما بالصوم عن الخدمة، فاحتجتما إلى من يخدمكما، فكلا واخدما أنفسكما ».

فالخادم يحض على حيازة الفضل، فيتوصل بالكسب تارة، وبالاسترقاق والدروزة تارة أخرى، وباستجلاب الوقف إلى نفسه تارة، لعلمه أنه قيم بذلك، صالح لإيصاله إلى الموقوف عليهم، ولا يبالي أن يدخل في كل مدخل لا يذمه الشرع لحيازة الفضل بالخدمة. ويرى الشيخ بنفوذ البصيرة وقوة العلم أن الإنفاق يحتاج إلى علم تام، ومعاناة في ذلك لوجود مرده فيه وحاله ترك المراد وإقامة مراد الحق.

أخبرانا أبو زرعة إجازة قال: أبو بكر احمد بن على بن خلف إجازة قال: أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي يقول: سمعت محمد بن الحسين بن الخشاب يقول: سمعت جعفر بن محمد يقول: سمعت الجنيد يقول سمعت السرى يقول: أعرف طريقاً مختصراً قصداً إلى الجنة، فقلت له ما هو؟ قال: لا تسال من احد شيئاً، ولا تأخذ من احد شيئاً، ولا يكن معك شيء تعطي منه احداً شيئاً.

والخادم يرى أن من طريق الجنة الخدمة والبذل والإيثار، فيقدم الخدمة على النوفل، ويرى فضلها، وللخدمة فضل على النافلة التي يأتي بها العبد طالباً بها الثواب غير النافلة التي يتوخى بها صحة حاله مع الله تعالى لوجود نقد قبل وعد.

ومما يدل على فضل الخدمة على النافلة ما أخبرنا أبو زرعة قال: أخبرني والدي الحافظ المقدسي قال: أنا أبو بكر محمد بن أحمد السمسار بإصفهان قال: أنا إبراهيم بين عبد الله بن خرشيد قال: حدثنا الحسين بن

إسماعيل المحاملي قال: حدثنا أبو السائب قال: حدثنا أبو معاوية قال: حدثنا عاصم عن مورق عن أنس قال:

كنا مع رسول الله ﷺ فمنا الصائم ومنا المفطر، فنزلنا منزلا في يوم حار شديد الحر، فمنا من يتقي الشمس بيده، وأكثرنا ظلا صاحب الكساء يستظل به ، فنام الصائمون وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركب، فقال رسول الله ﷺ « ذهب المفطرون اليوم بالأجر » .

وهذا حديث يدل على فضل الخدمة على النافلة. والخادم له مقام عزيز يرغب فيه، فأما من لم يعرف تخليص النية من شوائب النفس، ويتشبه بالخادم، وتصدى لخدمة الفقراء، ويدخل في مداخل الخدام بحسن الإرادة بطلب التأسي بالخدام، فتكون خدمته مشوبة، منها ما يصيب فيها لوضع إيمانه، وحسن إرادته في خدمة القوم، ومنها مالا يصيب فيه لما فيه من مزج الهوى، فيضع الشيء في غير موضعه.

وقد يخدم بهواه في بعض تصاريفه، ويخدم من لا يستحق الخدمة في بعض أوقاته، ويحب المحمدة والثناء من الخلق، مع ما يحب من الثواب ورضا الله تعالى، وربما خدم للثناء، وربما امتنع من الخدمة في طرفي الرضا والغضب، لا نحراف مزاج قلبه بوجود الهوى يخامره في حق من يلقاه بمكروه، ولا يراعي واجب الخدمة في طرفي الرضا والغضب، لانحراف مزاج قلبه بوجود الهوى. والخادم لا يتبع الهوى في الخدمة في الرضا والغضب، ولا تأخذه في الله لومة لائم، ويضع الشيء موضعه .

فإذن الشخص الذي وصفناه آنفاً متخادم وليس بخادم، ولا يميز بين الخادم والمتخادم النجيب يبلغ ثواب الخادم في كثير من تصاريفه، ولا يبلغ رتبته لتخلفه عن حاله بوجود مزاج هواه، وأما من أقيم لخدمة الفقراء بتسليم وقف إليه، أو توفير رفق عليه، وهو يخدم لنال يصيبه، أو حظ عاجل يدركه، فهو في الخدمة لنفسه لا لغيره، فلو انقطع رفقه ما خدم،

وربما استخدم من يخدم، فهو مع حظ نفسه يخدم من يخدمه ، ويحتاج إليه في المحافل، يتكثر به، ويقيم به جاه نفسه بكثرة الاتباع والإشباع.

فهو خادم هواه، وطالب دنياه، يحرص نهاره وليله في تحصيل ما يقيم به جاهه، ويرضي نفسه وأهله وولده، فيتسع في الدنيا ويتزيا بغير زي الخدام والفقراء، وتنتشر نفسه بطلب الحظوظ، ويستولى عليه حب الرياسة. وكلما كثر رفقه كثرت مواد هواه، واستطال على الفقراء، ويحوج الفقراء إلى التملق المفرط له تطلباً لرضاه، وتوقياً لضيمه وميله عليهم بقطع ما ينوبهم من الوقف. فهذا أحسن حاله أن يسمى مستخدماً، فليس بخادم ولا متخادم، ومع ذلك كله ربما نال بركتهم باختياره خدمتهم على خدمة غيرهم، وبانتمائه إليهم. وقد أوردنا الخبر المسند الذي في سياقه: «هم القوم الذين لا يشقى بهم جليسهم».

والله الموفق والمعين.

الباب الثاني عشر
في شرح خرقة المشايخ الصوفية

لبس الخرقة ارتباط بين الشيخ وبين المريد، وتحكيم من المريد للشيخ في نفسه، والتحكيم سائغ في الشرع لمصالح دنيوية، فماذا ينكر المنكر للبس الخرقة على طالب صادق في طلبه، يتقصد شيخاً بحسن ظن وعقيدة، يحكمه في نفسه لمصالح دينه، يرشده ويهديه، ويعرفه طريق المواجيد، ويبصره بآفات النفوس، وفساد الأعمال، ومداخل العدو.

فيسلم نفسه إليه، ويستسلم لرأيه، وويعمل به في جميع تصاريفه، فيلبسه الخرقة، إظهاراً للتصرف فيه، فيكون لبس الخرقة علامة التفويض والتسليم ، ودخوله في حكم الشيخ دخول في حكم الله وحكم رسوله، ،إحياء سنة المبايعة مع رسول الله ﷺ .

أخبرنا أبو زرعة قال: أخبرني والدى الحافظ المقدسي قال: أنا أبو الحسن أحمد بن محمد البزاز قال: أنا أحمد بن محمد أخي ميمي قال: حدثنا يحى بن محمد بن صاعد قال: حدثنا عمرو بن على بن حفظة قال: سمعت عبد الوهاب الثقفي يقول: سمعت يحيى بن سعيد يقول: حدثنى عبادة بن الوليد ابن عبادة بن الصامت قال: أخبرني أبي عن أبيه قال « بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق حيث كنا، ولا نخاف في الله لومة لائم ».

ففي الخرقة معنى المبايعة، والخرقة عتبة الدخول في الصحبة. والمقصود الكلي هو الصحبة، وبالصحبة يرجي للمريد كل خير.

روى عن أبي يزيد أنه قال: من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان.

وحكى الأستاذ أبو القاسم القشيري عن شيخه أبي على الدقاق أنه قال: الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق ولا تثمر. وهو كما قال.

ويجوز أنها تثمر كالأشجار التي في الأودية والجبال، ولكن لا يكون لفاكهتها طعم فاكهة البساتين. والغرس إذا نقل من موضع إلى موضع آخر يكون أحسن حالا وأكثر ثمرة، لدخول التصرف فيه.

وقد اعتبر الشرع وجود التعليم في الكلب المعلم، وأحل ما يقتله [1] بخلاف غير المعلم .

وسمعت كثيراً من المشايخ يقولون: من لم ير مفلحاً لا يفلح.

ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة. وأصحاب رسول الله ﷺ تلقوا العلوم والآداب من رسول الله ﷺ ، كما روى عن بعض الصحابة « علمنا رسول الله ﷺ، كل شيء حتى الخراءة » .

فالمريد الصادق إذا دخل تحت حكم الشيخ وصحبه، وتأدب بآدابه، يسري من باطن الشيخ حال إلى باطن المريد، كسراج يقتبس منْ سراج، وكلام الشيخ إلى المريد بواسطة الصحبة وسماع المقال، ولا يكون هذا إلا لمريد حصر نفسه مع الشيخ، وانسلخ من إرادة نفسه، وفنى في الشيخ بترك اختيار نفسه، فبالتآلف الإلهي يصير بين الصاحب والمصحوب امتزاج وارتباط بالنسبة الروحية، والطهارة الفطرية، ثم لا يزال المريد مع الشيخ كذلك متأدباً بترك الاختيار، وحتى يرتقي من ترك الاختيار مع الشيخ إلى ترك الاختيار مع الله تعالى، ويفهم من الله كما كان يفهم من الشيخ.

ومبدأ هذا الخير كله الصحبة والملازمة للشيوخ، والخرقة مقدمة ذلك.

---

(١) أي أحل أكل قتل صيد الكلب المعلم .

ووجه لبس الخرقة من السنة ما أخبرنا الشيخ أبو زرعة عن أبيه الحافظ أبي الفضل المقدسي قال: أنا أبو بكر أحمد بن على بن خلف الأديب النيسابوري.

قال: أنا الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ قال: أنا محمد بن إسحاق

قال: أنا أبو مسلم إبراهيم بن عبد الله المصري قال: حدثتني أم خالد بنت خالد قالت « أتى النبي عليه السلام بثياب فيها خميصة سوداء صغيرة فقال: من ترون أكسو هذه؟ فسكت القوم، فقال رسول الله ﷺ ائتوني بأم خالد، قالت فأتى بي فألبسنيها بيده فقال أبلى واخلقى، يقولها مرتين، وجعل ينظر إلى علم في الخميصة أصفر واحمر ويقول يا أم خالد هذا سناه، والسناه هو الحسن بلسان الحبشة.

ولا خفاء أن لبس الخرقة على الهيئة التي يعتمدها الشيوخ في هذا الزمان لم يكن في زمن رسول الله ﷺ . وهذه الهيئة والاجتماع لها والاعتداد بها من استحسان الشيوخ، وأصله من الحديث ما رويناه . والشاهد لذلك أيضاً التحكيم الذي ذكرناه. وأي اقتداء برسول الله ﷺ أتم وآكد من الاقتداء به في دعاء الخلق إلى الحق.

وقد ذكر الله تعالى في كلامه القديم تحكيم الأمة رسول الله ﷺ .

وتحكيم المريد شيخه إحياء سنة ذلك التحكيم. قال الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[1].

وسبب نزول هذه الآية أن الزبير بن العوام رضي الله عنه اختصم هو وآخر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في شراج من الحرة، والشراج مسيل

(١)سورة النساء آية: ٦٥.

الماء، كانا يسقيان به النخل، فقال النبي عله السلام للزبير « اسق يازبير ثم أرسل الماء إلى جارك » فغضب الرجل وقال: قضى رسول الله لابن عمته فأنزل الله تعالى هذه الآية يعلم فيه الأدب مع رسول الله ﷺ، وشرط عليهم في الآية التسليم وهو الانقياد ظاهراً، ونفى الحرج، وهو الانقياد بطاناً.

وهذا شرط المريد مع الشيخ مع التحكيم. فلبس الخرقة يزيل اتهام الشيخ عن باطنه في جميع تصاريفه، ويحذر الاعتراض على الشيوخ، فإنه السم القاتل للمريدين.

وقل أن يكون المريد يعترض على الشيخ قصة موسى مع الخضر عليه السلام، كيف كان يصدر من الخضر تصاريف ينكرها موسى، ثم لما كشف له عن معناها بان لموسى وجه الصواب في ذلك، فهكذا ينبغي للمريد أن يعلم أن كل تصرف أشكل عليه صحته من الشيخ، عند الشيخ فيه بيان وبرهان للصحة.

ويد الشيخ في لبس الخرقة تنوب عن يد رسول الله ﷺ .

وتسليم المريد له تسليم لله ورسوله. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾[1].

ويأخذ الشيخ على المريد عهد الوفاء بشرائط الخرقة، ويعرفه حقوق الخرقة. فالشيخ للمريد صورة يستشف المريد من وراء هذه الصورة المطالبات الإلهية، والمراضي النبوية، ويعتقد المريد ان الشيخ باب فتحه الله تعالى إلى جناب كرمه، ومنه يدخل، وإليه يرجع، وينزل بالشيخ سوانحه ومهامه الدينية والدنيوية، ويعتقد أن الشيخ ينزل بالله الكريم، ما ينزل المريد به، ويرجع في ذلك إلى الله للمريد كما يرجع المريد إليه.

---

(١)سورة الفتح آية: ١٠.

وللشيخ باب مفتوح من المكالمة والمحادثة في النوم واليقظة، فلا يتصرف الشيخ في المريد بهواه، فهو أمانة الله عنده، ويستغيث إلى الله بحوائج المريد كما يستغيث بحوائج نفسه ومهام دينه ودنياه. قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴿٥١﴾ ﴾[1].

فإرسال الرسول يختص بالأنبياء، والوحي كذلك، والكلام من وراء حجاب بالإلهام والهواتف والمنام وغير ذلك للشيوخ والراسخين في العلم.

واعلم أن للمريدين مع الشيوخ أوان ارتضاع وأوان فطام، وقد سبق شرح الولادة المعنوية. فأوان الارتضاع وأوان لزوم الصحبة، والشيخ يعلم وقت ذلك، فلا ينبغي للمريد أن يفارق الشيخ إلا بإذنه. قال الله تعالى تأديباً للأمة ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ ﴿٦٢﴾ ﴾[2].

وأي أمر جامع أعظم من أمر الدين، فلا يأذن الشيخ للمريد في المفارقة إلا بعد علمه بأن آن له أوان الفطام، وأنه يقدر أن يستقل بنفسه، واستقلاله بنفسه أن يفتح له باب الفهم من الله تعالى، فإذا بلغ المريد رتبة إنزال الحوائج والمهام بالله والفهم من الله تعالى بتعريفاته وتنبيهاته سبحانه وتعالى لعبده السائل المحتاج، فقد بلغ أوان فطامه، ومتى فارق قبل أوان الفطام يناله من الإعلال في الطريق بالرجوع إلى الدنيا متابعة الهوى ما ينال المفطوم لغير أوانه في الولادة الطبيعية، وهذا التلازم بصحبة المشايخ للمريد الحقيقي، والمريد الحقيقي يلبس خرقة الإرادة.

واعلم أن الخرقة خرقتان:

---

(١)سورة الشورى آية: ٥١.

(٢)سورة النور آية: ٦٢.

خرقة الإرادة.

وخرقة التبرك.

والأصل الذي قصده المشايخ للمريدين خرقة الإرادة، وخرقة التبرك تشبه بخرقة الإرادة. فخرقة الإرادة للمريد الحقيقي، وخرقة التبرك للمتشبه ، ومن تشبه بقوم فهو منهم.

وسر الخرقة أن الطالب الصادق إذا دخل في صحبة الشيخ، وسلم نفسه، وصار كالولد الصغير مع الوالد، يربيه الشيخ بعلمه المستمد من الله تعالى بصدق الافتقار وحين الاستقامة، ويكون للشيخ بنفوذ بصيرته الإشراف على البواطن، فقد يكون المريد يلبس الخشن كثياب المتقشفين المتزهدين وله في تلك الهيئة من الملبوس هوى كامن في نفسه، ليرى بعين الزهادة، فأشد ما عليه لبس الناعم. وللنفس هوى واختيار في هيئة مخصوصة من الملبوس في قصر الكم والذيل وطوله، وخشونته ونعومته، على قدر حسبانها وهواها فيلبس الشيخ مثل هذا الراكن لتلك الهيئة ثوباً يكسر بذلك على نفسه هواها وغرضها .

وقد يكون على المريد ملبوس ناعم أو هيئة في الملبوس، تشرئب النفس إلى تلك الهيئة بالعادة، فيلبسه الشيخ ما يخرج النفس من عادتها وهواها فتصرف الشيخ في الملبوس كتصرفه في المطعوم، وكتصرفه في صوم المريد وإفطاره، وكتصرفه في أمر دينه إلى ما يرى له من المصلحة من دوام الذكر، ودوام التنفل في الصلاة، ودوام التلاوة، ودوام الخدمة ، وكتصرفه فيه برده إلى الكسب أو الفتوح أو غير ذلك. فللشيخ إشراف على البواطن وتنوع الاستعدادات تنوعت مراتب الدعوة قال الله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۝ ﴾[1].

---

(١)سورة النحل آية: ١٢٥.

فالحكمة ربة في الدعوة، والموعظة كذلك، والمجادلة كذلك، فمن يدعى بالحكمة لا يدعى بالموعظة، ومن يدعى بالموعظة لا تصلح دعوته بالحكمة. فهكذا الشيخ يعلم من هو على وضع الأبرار، ومن هو على وضع المقربين، ومن يصلح لدوام الصلاة، ومن له هوى في التخشن أو في التنعم، فيخلع المريد من عادته، ويخرجه من مضيق هوى نفسه، ويطعمه باختياره، ويلبسه باختياره ثوباً يصلح له، وهيئة تصلح له، ويداوى بالخرقة المخصوصة والهيئة المخصوصة، داء هواه، ويتواخى بذلك تقريبه إلى رضا مولاه.

فالمريد الصادق الملتهب باطنه بنار الإرادة في بدء أمره وحدة إرادته، كالمسموم الحريص على من يرقيه ويداويه، فإذا صادف شيخاً انبعث من باطن الشيخ صدق العناية به لا طلاعه عليه، وينبعث من باطن المريد صدق المحبة بتألف القلوب وتسام الأرواح، وظهور سر السابقة فيهما باجتماعهم لله وفي الله وبالله، فيكون القميص الذي يلبس المريد خرقة تبشر المريد بحسن عناية الشيخ به، فيعمل عند المريد عمل قميص يوسف عند يعقوب عليهما السلام.

وقد نقل أن إبراهيم الخليل عليه السلام أتى بقميص من حرير الجنة وألبسه إياه، وكان ذلك عند إبراهيم عليه السلام ذلك القميص في تعويذ وجعله في عنق يوسف، فكان لا يفارقه، لما ألقى في البئر عرياناً جاءه جبريل وكان عليه التعويذ، فأخرج القميص منه وألبسه إياه[1].

أخبرنا الشيخ العالم رضي الدين أحمد بن إسماعيل القزويني إجازة قال: أنا أبو سعد محمد بن أبي العباس قال: أنا القاضي محمد بن سعيد قال: أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد قال: أخبرني ابن فنجوية الحسين بن محمد قال:

---

(١) ، (٢) هذه روايات لا سند لها ، وكيف ألبس ابراهيم عليه السلام القميص ليوسف وقد مات قبل أن يولد يوسف.

حدثنا مخلد بن جعفر قال: حدثنا الحسن بن علوية قال: حدثنا إسماعيل بن عيسى قال: حدثنا إسحاق بن بشر عن ابن السدي عن أبيه عن مجاهد قال: كان يوسف عليه السلام أعلم بالله تعالى من أن لا يعلم أن قميصه لا يرد على يعقوب بصره، ولكن ذلك كان قميص إبراهيم، وذكر ما ذكرناه. قال: فأمره جبرائيل أن أرسل بقميصك فإن فيه ريح الجنة، لا يقع على مبتلى أو سقيم إلا صح وعوفي. فتكون الخرقة عند المريد الصادق متحمله إليه عرف الجنة لما عنده من الاعتداد بالصحبة لله ، ويرى لبس الخرقة من عناية الله به وفضل من الله. فأما خرقة التبرك فيطلبها من مقصوده التبرك بزي القوم، ومثل هذا لا يطالب بشرائط الصحبة بل يوصى بلزوم حدود الشرع ومخالطة هذه الطائفة ليعود عليه بركتهم، ويتأدب بأيديهم، فسوف يرقيه ذلك إلى الأهلية لخرقة الإرادة.

فعلى هذا خرقة التبرك مبذولة لكل طالب، وخرقة الإرادة ممنوعة إلا من الصادق الراغب.

ولبس الأزرق من استحسان الشيوخ في الخرقة، فإن رأي شيخ أن يلبس مريداً غير الأزرق فليس لأحد أن يعترض عليه، لأن المشايخ آراؤهم فيما يفعلون بحكم الوقت.

وكان شيخنا يقول: كان الفقير يلبس قصير الأكمام ليكون أعون على الخدمة.

ويجوز للشيخ أن يلبس المريد خرقاً في دفعات على قدر ما يتلمح من المصلحة للمريد في ذلك، على ما أسلفناه من تداوي هواه في الملبوس والملون فيختار الأزرق لأنه أوفق للفقير، لكونه يحمل الوسخ، ولا يحوج إلى زيادة الغسل لهذا المعنى فحسب، وما عدا هذا من الوجوه التي يذكرها بعض المتصوفة في ذلك كلام إقناعي من كلام المتصنعين ليس من الدين والحقيقة بشيء.

سمعت الشيخ سديد الدين أبا الفخر الهمداني رحمه الله قال: كنت ببغداد عند أبي بكر الشروطى، فخرج إلينا فقير من زاويته عليه ثوب وسخ ، فقال له بعض الفقراء: لم لا تغسل ثوبك ؟ فقال: يا اخى ما اتفرغ، لأنه كان صادقاً في ذلك، فاجد لذة لقوله وبركة بتذكاري ذلك، فاختاروا الملون لهذا المعنى، لأنهم من رعاية وقتهم في شغل شاغل، وإلا فأى ثوب البس الشيخ المريد من أبيض وغير ذلك، فللشيخ ولاية ذلك بحسن مقصده ووفور علمه. وقد رأينا من المشايخ من لا يلبس الخرقة ويسلك بأقوام من غير لبس الخرقة، ويؤخذ منه العلوم والآداب.

وقد كان طبقة من السلف الصالحين لا يعرفون الخرقة ولا يلبسونها المريدين، فمن يلبسها فله مقصد صحيح وأصل من السنة وشاهد من الشرع، ومن لا يلبسها فله رأيه وله في ذلك مقصد صحيح. وكل تصاريف المشايخ محمولة على السداد والصواب، ولا تخلو عن نية صالحة فيه.

والله تعالى ينفع بهم وبآثارهم إن شاء الله تعالى.

الباب الثالث عشر
في فضيلة سكان الرباط

قال الله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾.[1]

قيل: إن هذه البيوت هي المساجد، وقيل: بيوت المدينة، وقيل: بيوت النبي عليه الصلاة والسلام.

وقيل: لما نزلت هذه الآية قام ابو بكر رضي الله عنه وقال يا رسول الله: هذه البيوت منها بيت علي وفاطمة؟ قال: نعم أفضلها.

وقال الحسن: بقاع الأرض كلها جعلت مسجداً لرسول الله ﷺ .

فعلى هذا الاعتبار بالرجال الذاكرين لا بصور البقاع. وأي بقعة حوت رجالاً بهذا الوصف هي البيوت التي أذن الله أن ترفع.

روى انس بن مالك رضي الله عنه انه قال: ما من صباح ولا رواح إلا وبقاع الأرض ينادي بعضها بعضاً: هل مر بك اليوم احد صلى عليك أو ذكر الله عليك؟ فمن قائلة نعم، ومن قائلة لا، فإذا قالت نعم علمت أن لها عليها بذلك فضلاً. وما من عبد ذكر الله تعالى على بقعة من الأرض، او صلى الله عليها، إلا شهدت له بذلك عند ربه وبكت عليه يوم يموت.

وقيل في قوله تعالى: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ... ﴾[2] تنبيه على فضيلة اهل الله تعالى من أهل طاعته، لأن الأرض تبكي عليهم ولا تبكي على من ركن إلى الدنيا واتبع الهوى. فسكان الرباط هم الرجال، لأنهم

(١) سورة النور: الآية ٣٦-٣٧.
(٢) سورة الدخان: الآية ٢٩.

ربطوا نفوسهم على طاعة الله تعالى، وانقطعوا إلى الله، فأقام لهم الدنيا خادمة.

روى عمران بن الحصين قال: قال رسول الله ﷺ "من انقطع إلى الله كفاه الله مؤنته ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها".

واصل الرباط ما يربط فيه الخيول، ثم قيل لكل ثغر يدفع اهله عمن وراءهم رباط، فالمجاهد المرابط يدفع عمن وراءه، والمقيم في الرباط على طاعة الله يدفع به وبدعائه البلاء عن العباد والبلاد.

اخبرنا الشيخ العالم رضي الدين ابو الخير احمد بن إسماعيل القزويني إجازة قال: أنا ابو سعيد محمد بن ابي العباس الخليلي قال: اخبرنا القاضي محمد بن سعيد الفراخزاذي قال: أنا ابو اسحاق احمد بن محمد قال: أنا الحسين بن محمد قال: حدثنا أبو بكر بن خرجة قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: حدثني أبو حميد الحمصي قال: حدثنا يحيى بن سعيد القطار قال: حدثنا حفص بن سليمان عن محمد بن سوقه عن وبرة بن عبد الرحمن، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله تعالى ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة من أهل بيته ومن جيرانه البلاء».

وروى عنه ﷺ انه قال: «لولا عباد لله ركع، وصبية رضع، وبهائم رتع، لصب عليكم العذاب صباً، ثم يرض رضاً».

وروى جابر بن عبد الله قال: قال النبي ﷺ: «إن الله تعالى ليصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده واهل دويرته ودويرات حوله، ولا يزالون في حفظ الله ما دام فيهم».

وروى داود بن صالح قال: قال لي ابو سلمة بن عبد الرحمن: يا ابن أخي هل تدري في اي شيء نزلت هذه الآية ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ

وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ...﴾[1] قلت لا، قال: يا ابن اخي لم يكن يسكن في زمن رسول الله ﷺ غزو يربط فيه الخيل، ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة. فالرباط لجهاد النفس، والمقيم في الرباط مرابط مجاهد نفسه. قال الله تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ... ﴾.[2]

قال عبد الله بن المبارك: هو مجاهدة النفس والهوى، وذلك حق الجهاد، وهو الجهاد الأكبر على ما روى في الخبر أن رسول الله ﷺ قال حين رجع من بعض غزواته «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر».

وقيل إن بعض الصالحين كتب إلى اخ له يستدعيه إلى الغزو، فكتب إليه: يا اخي كل الثغور مجتمعة لي في بيت واحد، والباب عليّ مردود. فكتب إليه اخوه: لو كان الناس كلهم لزموا ما لزمته اختلت أمور المسلمين وغلب الكفار، فلا بد من الغزو والجهاد. فكتب إليه: يا أخي لو لزم الناس ما أنا عليه وقالوا في زواياهم على سجادتهم: الله أكبر انهدم سور قسطنطينية.[3]

وقال بعض الحكماء: ارتفاع الأصوات في بيوت العبادات بحسن النيات على الوجه الموضوع له الربط، وتحقق أهل الربط بحسن المعاملة ورعاية الأوقات، وتوقي ما يفسد الأعمال، واعتماد ما يصحح الأحوال، عادت البركة على البلاد والعباد.

قال سري السقطي في قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾: اصبروا عن الدنيا رجاء السلامة، وصابروا عند القتال بالثبات والاستقامة،

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٢٠٠.

(٢) سورة الحج: الآية ٧٨.

(٣) لا بد من الأخذ بالأسباب، والانضمام إلى جند المسلمين والجهاد في سبيل الله سبب في النصر على الأعداء لقوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [سورة الأنفال آية: ٦٠]

ورابطوا أهواء النفس اللوامـة، واتقـوا مـا يعقـب لكـم النـدامـة، لعلكـم تفلحـون غداً على بساط الكرامة.

وقيل: اصبروا على بلائي، وصابروا على نعمائي، رابطـوا في دار أعدائـي، واتقوا محبة من سوائي، لعلكم تفلحون غداً بلقائي.

وهذه شرائط ساكن الرباط، قطع المعاملة مع الخلق، وفتح المعاملة مع الحق، وترك الاكتساب[1] اكتفـاء بكفالـة مسبب الأسـباب، وحبـس النفـس عن المخالطات واجتناب التبعات، وعانق ليله ونهاره العبادة، متعوضاً بـها عـن كـل عـادة، شـغله حفـظ الأوقـات، وملازمـة الأوراد، وانتظـار الصلـوات، واجتناب الغفلات، ليكون بذلك مرابطاً مجاهداً.

حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردي قال أنا ابـن نبـهان محمـد الكـاتب قال: أنا الحسن بن شاذان قال: أنا دعلج قال: أنا البغوي، عن أبي عبيد القاسم ابن سلام قال: حدثنا صفوان عن الحارث عن سعيد بن المسيب، عن علـي بـن أبي طالب رضي الله عنه قـال: قـال رسـول الله ﷺ : «إسـباغ الوضـوء في المكـاره، وإعمـال الأقـدام إلى المساجد، وانتظـار الصـلاة بعـد الصـلاة، يغسـل الخطايـا غسلاً».

وفي رواية: «ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا وترفـع بـه الدرجـات؟ قـالوا بلـى يـا رسـول الله، قـال: إسـباغ الوضـوء في المكـاره، وكـثرة الخطـا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط».

---

(١) من السنة أن يأكل الرجل من عمل يده لأن نبي الله داود كـان يـأكل مـن عمـل يـده كمـا جاء في الحديث الشريف.

الباب الرابع عشر
في مشابهة أهل الرباط بأهل الصفة

قال الله تعالى: ﴿ ... لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾[1].

هذا وصف أصحاب رسول الله ﷺ قيل لهم: ماذا كنتم تصنعون حتى أثنى الله عليكم بهذا الثناء؟ قالوا: كنا نتبع الماء الحجر.

وهذا وأشباه هذا من آداب وظيفة صوفية الربط، يلازمونه ويتأهدونه. والرباط بيتهم ومضربهم، ولكل قوم دار، والرباط دارهم.

وقد شابهوا أهل الصفة في ذلك على ما أخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسي قال: أنا أحمد بن محمد البزازي قال: أنا عيسى بن علي الوزير قال: حدثنا عبد الله البغوي قال: حدثنا وهبان بن بقية قال: حدثنا خالد بن عبد الله عن داود ابن أبي هند عن أبي الحارث حرب بن أبي الأسود، عن طلحة رضي الله عنه قال: كان الرجل إذا قدم المدينة وكانَ له بها عريف ينزل على عريفه، فإن لم يكن له بها عريف نزل الصفة، وكنت فيمن نزل الصفة. فالقوم في الرباط مرابطون، متفقون على قصد واحد، وعزم واحد، وأحوال متناسبة.

ووضع الربط لهذا المعنى أن يكون سكانها بوصف ما قال الله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾[2] والمقابلة باستواء السر والعلانية، ومن أضمر لأخيه غلا فليس بمقابله وإن كان وجهه إليه.

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٨.

(٢) سورة الحجر: الآية ٤٧.

فأهل الصفة هكذا كانوا، لأن مثار الغل والحقد وجود الدنيا، وحب الدنيا راس كل خطيئة.

فأهل الصفة رفضوا الدنيا، وكانوا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع، فزالت الأحقاد والغل عن بواطنهم، وهكذا أهل الربط، متقابلون بظواهرهم وبواطنهم، مجتمعون على الألفة والمودة، يجتمعون للكلام، ويجتمعون للطعام، ويتعرفون بركة الاجتماع.

روى وحشي بن حرب عن أبيه عن جده أنهم قالوا يا رسول الله إنا نأكل ولا نشبع، قال «لعلكم تفترقون على طعامكم، اجتمعوا واذكروا الله تعالى يبارك لكم فيه».

وروى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ما أكل رسول الله ﷺ على خوان ولا في سكرجة ولا خبز له مرقق، فقيل: فعلى أي شيء كانوا يأكلون؟ قال: على السفر.

فالعباد والزهاد طلبوا الانفراد لدخول الآفات عليهم بالاجتماع، وكون نفوسهم تفتلق للأهوية والخوض يما لا يعنى، فرأوا السلامة في الوحدة.

والصوفية لقوة عملهم، وصحة حالهم، نزع عنهم ذلك، فرأوا الاجتماع في بيوت الجماعة على السجادة. فسجادة كل واحد زاويته، وهم كل واحد مهمة، ولعل الواحد منهم لا يتخطى همه سجادته، ولهم في اتخاذ السجادة وجه من السنة.

روى أبو سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أجعل لرسول الله ﷺ حصيراً من الليف يصلي عليه من الليل.

وروت ميمونة زوجة رسول الله ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ تبسط له الخمرة في المسجد حتى يصلى عليها.

والرباط يحتوي على شبان وشيوخ واصحاب خدمة وأرباب خلوة.

فالمشايخ بالزوايا أليق نظرا إلى ما تدعو إليه النفس من النوم والراحة، والاستبداد بالحركات والسكنات، فللنفس شوق إلى التفرد والاسترسال في وجوه الرفق، والشاب يضيق عليه مجال النفس بالقعود في بيت الجماعة، والانكشاف لنظر الأغيار، لتكثر العيون عليه، فيتقيد ويتأدب، ولا يكون هذا إلا إذا كان جمع الرباط في بيت الجماعة مهتمين بحفظ الأوقات، وضبط الأنفاس، وحراسة الحواس، كما كان أصحاب رسول الله ﷺ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه. كان عندهم من هم الآخرة ما يشغلهم عن اشتغال البعض بالبعض، وهكذا ينبغى لأهل الصدق والصوفية أن يكون اجتماعهم غير مضر بوقتهم، فإذا تخلل أوقات الشبان اللغو واللغط، فالأولى أن يلزم الشاب الطالب الوحدة والعزلة، ويؤثر الشيخ الشاب بزاويته وموضع خلوته، ليحبس الشاب نفسه عن دواعي الهوى والخوض فيما لا يعني، ويكون الشيخ في بيت الجماعة لقوة حاله وصبره على مداراة الناس، وتخلصه من تبعات المخالطة وحضور وقاره بين الجمع، فينضبط به الغير، ولا يتكدر هو.

وأما الخدمة فشأن من دخل الرباط مبتدئا، ولم يذق طعم العامْلة، ولم يتنبه لنفائس الأحوال أن يؤمر بالخدمة، لتكون عبادته خدمته، ويجذب بحسن الخدمة قلوب أهل الله إليه، فتشمله بركة ذلك ويعين الإخوان المشتغلين بالعبادة.

قال رسول الله ﷺ: «المؤمنون اخوة، يطلب بعضهم إلى بعض الحوائج، فيقضي بعضهم إلى بعض الحوائج، يقضي الله لهم حاجاتهم يوم القيامة».

فيحتفظ بالخدمة عن البطالة التي تميت القلب. والخدمة عند القوم من جملة العمل الصالح، وهي طريق من طرق المواجيد، تكسبهم الأوصاف الجميلة، والأحوال الحسنة، ولا يرون استخدام من ليس من جنسهم، ولا متطلعا إلى الاهتداء بهديهم.

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح قال: أنا أبو الفضل حميد بن أحمد قال: أنا الحافظ أبو نعيم قال: حدثنا سليمان بن أحمد قال: حدثنا علي بن عبد العزيز قال: حدثنا أبو عبيد قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن شريك، عن أبي هلال الطائي، عن وثيق بن الروهي قال: كنت مملوكاً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فكان يقول لي: اسلم فإنك إن أسلمت استعنت بك على أمانة المسلمين، فإنه لا ينبغي أن استعين على أماناتهم بمن ليس منهم. قال فأبيت. قال عمر: لا إكراه في الدين. فلما حضرته الوفاة أعتقني فقال: اذهب حيث شئت.

فالقوم يكرهون خدمة الأغيار، ويأبون مخالطتهم، فإن من لا يحب طريقهم ربما استضر بالنظر إليهم أكثر مما ينتفع، فإنهم بشر وتبدو منهم أمور بمقتضى طبع البشر وينكرها الغير لقلة علمه بمقاصدهم، فيكون إباؤهم لموضع الشفقة على الخلق لا من طريق التعزز والترفع على أحد من المسلمين.

والشاب الطالب إذا خدم أهل الله المشغولين بطاعته، يشاركهم في الثواب، وحيث لم يؤهل لأحوالهم السنية، يخدم من أهل لها، فخدمته لأهل القرب علامة حب الله تعالى.

أخبرنا الثقة أبو الفتح محمد بن سليمان قال: أنا أبو الفضل حميد بن أحمد قال: أنا الحافظ أبو نعيم قال: حدثنا أبو بكر بن خلاد قال: حدثنا الحارث ابن أبي أسامة قال: حدثنا معاوية بن عمرو قال: حدثنا أبو اسحاق عن حميد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: - لما انصرف رسول الله ﷺ من تبوك قال حين دنا من المدينة: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير، ولا قطعتم وادياً، إلا كانوا معكم، قالوا: وهم في المدينة؟ قال: نعم حبسهم العذر».

فالقائم بخدمة القوم، تعوق عن بلوغ درجتهم بعذر القصور وعدم الأهلية، فحام حو الحمى باذلاً مجهوده في الخدمة، يتعلل بالأثر حيث منع النظر، فجزاء الله على ذلك احسن الجزاء، وأنا له من جزيل العطاء، وهكذا كان أهل الصفة يتعاونون على البر والتقوى، ويجتمعون على المصالح الدينية ومواساة الإخوان بالمال والبدن.

الباب الخامس عشر
في خصائص أهل الربط والصوفية
فيما يتعاهدون ويختصون به

اعلم أن تأسيس هذه الربط من زينة هذه الملة الهادية المهدية. ولسكان الربط أحوال تميزوا بها عن غيرهم من الطوائف، وهم على هدى من ربهم.

قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[1]

وما يرى من التقصير في حق البعض من أهل زماننا، والتخلف عن طريق سلفهم، لا يقدح في أصل أمرهم وصحة طريقهم. وهذا القدر الباقي من الأثر، واجتماع المتصوفة في الربط، وما هيأ الله تعالى لهم من الرفق، بركة جمعية بواطن المشايخ الماضين وأثر من آثار منح الحق في حقهم.

وصورة الاجتماع في الربط الآن على طاعة الله والترسم بظاهر الآداب، عكس نور الجمعية من بواطن الماضين، وسلوك الخلف في مناهج السلف، فهم في الربط كجسد واحد بقلوب متفقة، وعزائم متحدة، ولا يوجد هذا في غيرهم من الطوائف. قال الله تعالى في وصف المؤمنين ﴿ ... كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[2]، وبعكس ذلك وصف الأعداء فقال ﴿ ... تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ... ﴾[3].

روى النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما المؤمنون كجسد رجل واحد إذا اشتكى عضو من أعضائه اشتكى جسده أجمع، وإذا اشتكى مؤمن اشتكى المؤمنون».

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٩٠.

(٢) سورة الصف: الآية ٤.

(٣) سورة الحشر: الآية ١٤.

فالصوفية وظيفتهم اللازمة من حفظ اجتماع البواطن، وإزالة التفرقة بإزالة شعث البواطن، لأنهم بنسبة الأرواح اجتمعوا، وبرابطة التأليف الإلهي اتفقوا، وبمشاهدة القلوب تواطؤا، ولتهذيب النفوس وتصفية القلوب في الرباط رابطوا، فلا بد لهم من التآلف والتودد والنصح.

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف و يؤلف».

أخبرنا أبو زرعة طاهر بن الحافظ أبي الفضل المقدسي عن أبيه قال: حدثنا أبو القاسم الفضل بن أبي حرب قال: أنا أحمد بن الحسين الحيرى قال: أنا أبو سهل بن زياد القطان قال: حدثنا الحسين بن مكرم قال: حدثنا يزيد ابن هارون الواسطي قال: حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

فهم باجتماعهم تجتمع بواطنهم، وتتقيد نفوسهم، لأن بعضهم عين على البعض، على ما ورد: «المؤمن مرآة المؤمن» فأى وقت ظهر من أحدهم أثر التفرقة ناقروه، لأن التفرقة تظهر بظهور النفس، وظهور النفس من حق تضييع الوقت. فأى وقت ظهرت نفس الفقير علموا منه خروجه عن دائرة الجمعية، وحكموا عليه بتضييع حكم الوقت وإهمال السياسة وحسن الرعاية فيقاد بالمناقرة إلى دائرة الجمعية.

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب عبد القاهر السهروردي إجازة قال: أنا الشيخ العالم عصام الدين أبو حفص عمر بن أحمد بن منصور الصفار قال: أنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازي قال: أنا الشيخ أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي قال: سمعت محمد بن عبد الله يقول: سمعت رويماً يقول: لا يزال الصوفية بخير ما تنافروا، فإذا اصطلحوا هلكوا.

وهذه إشارة من رويم إلى حسن تفقد بعضهم أحوال بعض إشفاقاً من ظهور النفوس. يقول إذا اصطلحوا أو رفعوا المناقرة من بينهم يخاف أن تخامر البواطن المساهلة المرآة، ومسامحة البعض البعض في إهمال دقيق آدابهم وبذلك تظهر النفوس وتستولي. وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبى.

وأخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسي قال: أنا أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز الهروي قال: أنا عبد الرحمن بن أبي شريح قال: أنا أبو القاسم البغوي قال: حدثنا مصعب بن عبد الله الزبيري قال: حدثني إبراهيم بن سعد عن صالح عن بن شهاب أن محمد بن نعمان أخبر بأن عمر قال في مجلس فيه المهاجرون والأنصار: أرأيتم لو ترخصت في بعض الأمور ماذا كنتم فاعلين؟ قال: فسكتنا. قال: فقال ذلك مرتين أو ثلاثاً أرأيتم لو ترخصت في بعض الأمور ماذا كنتم فاعلين؟ قال بشر بن سعد: لو فعلت ذلك قومناك تقويم القدح. فقال عمر: أنتم إذن أنتم.

وإذا ظهرت نفس الصوفي بغضب وخصومة مع بعض الإخوان، فشرط أخيه أن يقابل نفسه بالقلب، فإن النفس إذا قوبلت بالقلب انحسمت مادة الشر، وإذا قوبلت النفس بالنفس ثارت الفتنة، وذهبت العصمة. قال الله تعالى: ﴿...ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾[1].

ثم الشيخ أو الخادم إذا شكا إليه فقير من أخيه فله أن يعاتب أيهما شاء، فيقول للمعتدي لم تعديت، وللمعتد عليه ما الذي أذنبت حتى تعدى عليك، وهلا قابلت نفسه بالقلب رفقاً بأخيك، وإعطاء للفتوة والصحبة حقها. فكل منهما جان وخارج عن دائرة الجمعية، فيرد إلى الدائرة بالنقار، فيعود إلى الاستغفار، ولا يسلك طريق الإصرار.

---

(١) سورة فصلت: الآية ٣٤.

روت عائشة رضي الله عنها قالت كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أساؤا استغفروا».

فيكون الاستغفار ظاهراً مع الإخوان، وباطناً مع الله تعالى، ويرون الله في استغفارهم. فلهذا المعنى يقفون في صف النعال على أقدامهم تواضعاً وانكساراً.

وسمعت شيخنا يقول للفقير إذا جرى بينه وبين بعض إخوانه وحشة. قم واستغفر، فيقول الفقير ما أرى باطني صافياً ولا أوثر القيام للاستغفار ظاهراً من غير صفاء الباطن، فيقول للآخر انت قم فببركة سعيك وقيامك ترزق الصفاء، فكان يجد ذلك، ويرى أثره عند الفقير، وترق القلوب وترتفع الوحشة. وهذا من خاصية هذه الطائفة، لا يبيتون والبواطن منطوية على وحشة، ولا يجتمعون للطعام والبواطن تضمر وحشة، ولا يرون الاجتماع ظاهراً في شيء من أمورهم إلا بعد الاجتماع بالبواطن وذهاب التفرقة والشعث، فإذا قام الفقير للاستغفار لا يجوز رد استغفاره بحال.

روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «ارحموا ترحموا واغفروا يغفر لكم».

وللصوفية في تقبيل يد الشيخ بعد الاستغفار أصل من السنة.

روى عبد الله بن عمر قال: كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ، فحاص الناس حيصة فكنت فيمن حاص، فقلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب، ثم قلنا لو دخلنا المدينة فتبنا فيها، ثم قلنا لو عرضنا انفسنا على رسول الله ﷺ، فإن كان لنا توبة وإلا ذهبنا، فاتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال: من القوم؟ قلنا: نحن الفرارون، قال: لا بل أنتم العكارون أنا فئتكم أنا فئة المسلمين، يقال عكر الرجل إذا تولى ثم كر راجعاً

والعكار العطاف والرجاع. قال: فأتيناه حتى قبلنا يده. وروى أن أبا عبيدة ابن الجراح قبل يد عمر عند قدومه.

وروى عن أبي مرثد الغنوي أنه قال: أتينا رسول الله ﷺ فنزلت إليه وقبلت يده. فهذا رخصة في جواز تقبيل اليد. ولكن أدب الصوفي أنه متى رأى نفسه تتعزز بذلك أو تظهر بوصفها أن يمتنع من ذلك، فإن سلم من ذلك فلا بأس بتقبيل اليد، ومعانقتهم للإخوان عقيب الاستغفار لرجوعهم إلى الألفة بعد الوحشة، وقدموهم من سفر الهجرة بالتفرقة إلى أوطان الجمعية، فبظهور النفس تغربوا وبعدوا، وبغيبة النفس والاستغفار قدموا وراجعوا. ومن استغفر إلى أخيه ولم يقبله فقد أخطأ، فقد ورد عن رسول الله ﷺ في ذلك وعيد. روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «من اعتذر إليه أخوه معذرة فلم يقبلها كان عليه مثل خطيئة صاحب المكوس».

وروى جابر أيضاً عن رسول الله ﷺ: «من تنصل إليه فلم يقبل لم يرد الحوض».

ومن السنة أن يقدم للإخوان شيئاً بعد الاستغفار. روى أن كعب بن مالك قال للنبي ﷺ: إن من توبتي أن أخلع من مالي كله، وأهجر دار قومي التي فيها أتيت الذنب، فقال له النبي ﷺ: «يجزيك من ذلك الثلث».

فصارت سنة الصوفية المطالبة بالغرامة بعد الاستغفار والمنافرة، وكل قصدهم رعاية التآلف حتى يكون بواطنهم على الاجتماع، كما أن ظواهرهم على الاجتماع، وهذا أمر تفردوا به من بين طوائف الإسلام.

ثم شرط الفقير الصادق إذا سكن الرباط وأراد أن يأكل من وقفه أو مما يطلب لسكانه بالدروزة، أن يكون عنده من الشغل بالله ما لا يسعه الكسب، وإلا إذا كان للبطالة والخوض فيما لا يعنى عنده مجال، ولا يقوم بشروط أهل الإرادة من الجسد والاجتهاد، فلا ينبغي له أن يأكل من مال

الرباط، بل يكتسب ويأكل من كسبه، لأن طعام الرباط لأقوام كمل شغلهم بالله، فخدمتهم الدنيا لشغلهم بخدمة مولاهم، إلا أن يكون تحت سياسة شيخ عالم بالطريق، ينتفع بصحبته، ويهتدى بهديه، فيرى الشيخ أن يطعمه من مال الرباط، فلا يكون تصرف الشيخ إلا بصحة بصيرة.

ومن جملة ما يكون للشيخ في ذلك من النية أن يشغله بخدمة الفقراء، فيكون ما يأكله في مقابلة خدمته.

روى عن ابى عمرو الزجاجي قال: اقمت عند الجنيد مدة فما رآنى قط إلا وأنا مشتغل بنوع من العبادة، فما كلمنى، حتى كان يوم من الأيام خلا الموضع من الجماعة، فقمت ونزعت ثيابي وكنست الموضع ونظفته ورششته وغسلت موضع الطهارة، فرجع الشيخ ورأى على أثر الغبار، فدعا لى ورحب بي وقال: احسنت، عليك بها ثلاث مرات. ولا يزال مشايخ الصوفية يندبون الشباب إلى الخدمة حفظاً لهم عن البطالة، وكل واحد يكون له حظ من المعاملة وحظ من الخدمة.

روى ابو محذورة قال: جعل رسول الله ﷺ لنا الأذان، والسقاية لبني هاشم، والحجابة لبني عبد الدار.

وبهذا يقتدي مشايخ الصوفية في تفريق الخدم على الفقراء، ولا يعذر في ترك نوع من الخدمة إلا كامل الشغل بوقته، ولا نعني بكامل الشغل شغل الجوارح، ولكن نعني به دوام الرعاية والمحاسبة، والشغل بالقلب والقالب وقتاً، وبالقلب دون القالب وقتاً، وتفقد الزيادة من النقصان، فإن قيام الفقير بحقوق الوقت شغل تام، وبذلك يؤدى شكر نعمة الفراغ ونعمة الكفاية، وفي البطالة كفران نعمة الفراغ والكفاية.

اخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب عبد القاهر إجازة قال: أنا عمر ابن احمد بن منصور قال: انا احمد بن خلف قال: انا الشيخ أبو عبد الرحمن

محمد بن الحسين قال: سمعت أبا الفضل بن حمدون يقول: سمعت علي بن عبد الحميد الفضائري يقول: سمعت السري يقول: من لا يعرف قدر النعم سلبها من حيث لا يعلم.

وقد يعذر الشيخ العاجز عن الكسب في تناول طعام الرباط، ولا يعذر الشاب. هذا في شرط طريق القوم على الإطلاق، فأما من حيث فتوى الشرع فإن كان شرط الوقف على المتصوفة وعلى من تزيا بزي المتصوفة وعلى خرقتهم فيجوز أكل ذلك لهم على إطلاق الفتوى، وفي ذلك القناعة بالرخصة دون العزيمة التي هي شغل أهل الإرادة، وإن كان شرط الوقف على من يسلك طريق الصوفية عملاً وحالاً فلا يجوز أكله لأهل البطالات والراكنين إلى تضييع الأوقات، وطرق أهل الإرادة عند مشايخ الصوفية مشهورة.

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح قال: أنا أبو الفضل حميد قال: أنا الحافظ أبو نعيم قال: حدثنا أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف قال: حدثنا جعفر الفرياني قال: حدثنا محمد بن الحسين البلخي بسمرقند قال: حدثنا عبد الله بن المبارك قال: حدثنا سعيد بن أبي أيوب الخزاعي قال: حدثنا عبد الله بن الوليد عن أبي سليمان الليثي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «مثل المؤمن كمثل الفرس في آخيته، يجول ويرجع إلى آخيته، وإن المؤمن يسهو ثم يرجع إلى الإيمان، فأطعموا طعامكم الأتقياء، وأولوا معروفكم المؤمنين».

الباب السادس عشر في ذكر اختلاف أحوال مشايخهم في السفر والمقام

اختلف احوال مشايخ الصوفية، فمنهم من سافر في بدايته وأقام في نهايته، ومنهم من قام في بدايته وسافر في نهايته، ومنهم من أقام ولم يسافر، ومنهم من استدام السفر ولم يؤثر الإقامة.

ونشرح حال كل واحد منهم ومقصده فيما رام.

فأما الذي سافر في بدايته وأقام في نهايته فقصده بالسفر لمعان: منها تعلم شيء من العلم. قال رسول الله ﷺ: «اطلبوا العلم ولو بالصين».

وقال بعضهم: لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن في كلمة تدله على هدي ما كان سفره ضائعاً.

ونقل أن جابر بن عبد الله رحل من المدينة إلى مصر في شهر لحديث بلغه أن أنساً يحدث به عن رسول الله ﷺ .

وقد قال عليه السلام: «من خرج من بيته في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع».

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿السائحون﴾ إنهم طلاب العلم.

حدثنا شيخنا ضياء الدين ابو النجيب السهروردي إملاء قال: انا ابو الفتح عبد الملك الهروي قال: أنا أبو نصر الترياقي قال: أنا الجراحي قال: أنا أبو العباس المحبوبي قال: أنا أبو عيسى الترمذي قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا أبو داود عن سفيان عن أبي هارون قال: كنا نأتي أبا سعيد فيقول

مرحباً بوصية رسول الله ﷺ إن النبي عليه السلام قال: «إن الناس لكم تبع، وإن الرجال يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً».

وقال عليه السلام: «طلب العلم فريضة على كل مسلم».

وروت عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى أوحى إليّ أنه من سلك مسلكاً في طلب العلم سهلت له طريقاً إلى الجنة».

ومن جملة مقاصدهم في البداية لقاء المشايخ والإخوان الصادقين. فللمريد بلقاء كل صادق مزيد، وقد ينفعه لحظ الرجال كما ينفعه لفظ الرجال.

وقد قيل: من لا ينفعك لحظة[1] لا ينفعك لفظة.

وهذا القول فيه وجهان: أحدهما: أن الرجل الصديق يكلم الصادقين بلسان فعله أكثر ما يكلم بلسان قوله، فإذا نظر الصادق إلى تصاريفه في مورده ومصدره، وخلوته وجلوته، وكلامه وسكوته، ينتفع بالنظر إليه، فهو نفع اللحظ، ومن لا يكون حاله وأفعاله هكذا فلفظه أيضاً لا ينفع لأنه يتكلم بهواه. ونورانية القول على قدر نورانية القلب، ونورانية القلب بحسب الاستقامة والقيام بواجب حق العبودية وحقيقتها.

والوجه الثاني: أن نظر العلماء الراسخين في العلم والرجال البالغين ترياق نافع، ينظر أحدهم إلى الرجل الصادق فيستكشف بنفوذ بصيرته حسن استعداد الصادق واستئهاله لمواهب الله تعالى الخاصة، فيقع في قلبه محبة الصادق من المريدين، وينظر إليه نظر محبة عن بصيرة، وهم من جنود الله تعالى، فيكسبون بنظرهم أحوالاً سنية ويهبون آثاراً مرضية.

---

(١) أي أن يكون قدوة حسنة، فمن خالف قوله فعله لا ينفع غيره ولا يؤخذ عنه.

وماذا ينكر المنكر من قدرة الله أن الله سبحانه وتعالى كما جعل في بعض الأفاعي من الخاصية أنه إذا نظر إلى إنسان يهلكه بنظره، أن يجعل في نظر بعض خواص عباده أنه إذا نظر إلى طالب صادق يكسبه حالاً وحياة.

وقد كان شيخنا رحمه الله يطوف في مسجد الخيف بمنى ويتصفح وجوه الناس، فقيل له في ذلك، فقال: لله عباد إذا نظروا إلى الشخص أكسبوه سعادة، فأنا أتطلب ذلك.

ومن جملة المقاصد في السفر ابتداء قطع المألوفات، والانسلاخ من ركون النفس إلى معهود ومعلوم، والتحامل على النفس بتجرع مرارة فرقة الإلاف والخلان، والأهل والأوطان، فمن صبر على تلك المألوفات محتسباً عند الله اجراً فقد حاز فضلاً عظيما.

اخبرنا ابو زرعة بن ابي الفضل الحافظ المقدسي عن أبيه قال: أنا القاضي أبو منصور محمد بن احمد الفقيه الأصفهاني قال: أنا أبو اسحاق إبراهيم بن عبد الله بن خرشيد قال: حدثنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن زيادة النيسابوري قال: حدثنا يونس بن عبد الله الأعلى قال: حدثنا أبو وهب قال: حدثني يحيى بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: مات رجل بالمدينة ممن ولد بها، فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم قال: «ليته مات بغير مولده» قالوا: ولم ذاك يا رسول الله؟ قال: «إن الرجل إذا مات بغير مولده قيس له من مولده إلى منقطع أثره من الجنة».

ومن جملة المقاصد في السفر استكشاف دقائق النفوس، واستخراج رعوناتها ودعاويها، لأنها لا تكاد تتبين حقائق ذلك بغير السفر. وسمى السفر سفراً لأنه يسفر عن الأخلاق، وإذا وقف على دائه يتشمر لدوائه.

وقد يكون أثر السفر في نفس المبتدي كاثر النوافل من الصلاة والصوم والتهجد وغير ذلك، وذلك أن المتنفل سائح سائر إلى الله تعالى من أوطان

الغفلات إلى محل القربات، والمسافر يقطع المسافات، ويتقلب في المفاوز والفلوات، بحسن النية لله تعالى، سائرا إلى الله تعالى، بمراغمة الهوى، ومهاجرة ملاذ الدنيا.

أخبرنا شيخنا إجازة قال: انا عمر بن احمد قال: انا احمد بن محمد بن خلف قال: أنا أبو عبد الرحمن السلمي قال: سمعت عبد الواحد بن بكر يقول: سمعت على بن عبد الرحيم يقول: سمعت النوري يقول: التصوف ترك كل حظ النفس.

فإذا سافر المبتدي تاركاً حظ النفس، تطمئن النفس وتلين كما تلين بدوام النافلة، ويكون لها بالسفر دباغ يذهب عنها الخشونة واليبوسة الجليلة، والعفونة الطبيعية، كالجلد يعود من هيئة الجلود إلى هيئة الثياب، فتعود النفس من طبيعة الطغيان إلى طبيعة الإيمان.

ومن جملة المقاصد في السفر رؤية الآثار والعبر، وتسريح النظر في مسارح الفرج، ومطالعة أجزاء الأرض والجبال، ومواطئ أقدام الرجال، واستماع التسبيح من ذرات الجمادات، والفهم من لسان حال القطع المتجاوزات، فقد تتجدد اليقظة بتجدد مستودع العبر والآيات، وتتوفر بمطالعة المشاهد والمواقف الشواهد والدلالات. قال الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ...﴾[1].

وقد كان السري يقول للصوفية: إذا خرج الشتاء ودخل اذار واورقت الأشجار طاب الانتشار.

ومن جملة المقاصد بالسفر إيثار الخمول، وإطراح حظ القبول، فصدق الصادق يتم على أحسن الحال، ويرزق من الخلق حسن الإقبال، وقلما يكون صادق متمسك بعروة الإخلاص و قلب عامر إلا ويرزق إقبال الخلق حتى

---

(١) سورة فصلت: الآية ٥٣.

سمعت بعض المشايخ يحكي عن بعضهم انه قال: أريد إقبال الخلق عليّ لا أني أبلغ نفسي حظها من الهوى فإني لا أبالي أقبلوا أو أدبروا.

ولكن لكون إقبال الخلق علامة تدل على صحة الحال، فإذا ابتلى المريد بذلك لا يأمن نفسه أن تدخل عليه بطريق الركون إلى الخلق، وربما يفتح عليه باب من الرفق، وتدخل النفس عليه من طريق البر والدخول في الأسباب المحمودة، وتريه فيه وجه المصلحة والفضيلة في خدمة عباد الله وبذل الموجود، ولا تزال النفس به والشيطان حتى يجراه إلى السكون إلى الأسباب، واستجلاء قبول الخلق، وربما قويا عليه فجراه إلى التصنع والتعمل ويتسع الخرق على الراقع.

وسمعت أن بعض الصالحين قال لمريد له: أنت الآن وصلت إلى مقام لا يدخل عليك الشيطان من طريق الشر، ولكن يدخل عليك من طريق الخير.

وهذا مزلة عظيمة للأقدام، فالله تعالى يدرك الصادق إذا ابتلي بشيء من ذلك، ويزعجه بالعناية السابقة، والمعونة اللاحقة إلى السفر، فيفارق المعارف والموضع الذي فتح عليه هذا الباب فيه، ويتجرد لله تعالى بالخروج إلى السفر، وهذا من أحسن المقاصد في الأسفار للصادقين.

فهذه جمل المقاصد المطلوبة للمشايخ في بداياتهم، ما عدا الحج، والغزو، وزيارة بيت المقدس.

وقد نقل أن ابن عمر خرج من المدينة قاصداً إلى بيت المقدس، وصلى فيه الصلوات الخمس، ثم أسرع راجعاً إلى المدينة من الغد.

ثم إذ من الله على الصادق بإحكام أمور بدايته، قلبه في الأسفار ومنحه الحظ من الاعتبار، وأخذ نصيبه من العلم قدر حاجته، واستفاد من مجاورة الصالحين، وانتقش في قلبه فوائد النظر إلى حال المتقين، وتعطر باطنه باستنشاق عرف معارف المقربين، وتحصن بحماية نظر أهل الله وخاصته،

وسبر أحوال النفس، وأسفر السفر عن دقائق أخلاقها وشهواتها الخفية، وسقط عن باطنه نظر الخلق، وصار يغلب ولا يغلب كما قال الله تعالى إخبارا عن موسى: ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[1].

فعند ذلك يرده الحق إلى مقامه، ويمده بجزيل إنعامه، ويجعله إماماً للمتقين، به يقتدي، وعلماً للمؤمنين، به يهتدي.

وأما الذي أقام في بدايته، وسافر في نهايته، يكون ذلك شخصاً يسر الله له في بداية أمره صحبة صحيحة، وقيض له شيخاً عالماً يسلك به الطريق، ويدرجه إلى منازل التحقيق، فيلازم موضع إرادته، ويلتزم بصحبته من يرده عن عادته.

وقد كان الشبلي يقول للحصري في ابتداء أمره: إن خطر ببالك من الجمعة إلى الجمعة غير الله فحرام عليك أن تحضرني. فمن رزق مثل هذه الصحبة يحرم عليه السفر. فالصحبة خير له من كل سفر وفضيلة يقصدها.

أخبرنا رضي الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل القزويني إجازة قال: أنا أبو المظفر عبد المنعم بن عبد الكريم بن هوازن القشيري عن والده الأستاذ أبي القاسم قال: سمعت محمد بن عبد الله الصوفي يقول: سمعت عياش بن أبي الصخر يقولك سمعت أبا بكر الزقاق يقول: لا يكون المريد مريداً حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئاً عشرين سنة.

فمن رزق صحبة من يندبه إلى مثل هذه الأحوال السنية، والعزائم القوية، يحرم عليه المفارقة واختيار السفر.

---

(١) سورة الشعراء : الآية ٢١.

ثم إذا أحكم أمره في الابتداء بلزوم الصحبة وحسن الاقتداء، وارتوى من الأحوال، وبلغ مبلغ الرجال، وانبجس من قلبه عيون ماء الحياة، وصارت نفسه مكسبه للسعادات، يستنشق نفس الرحمن من صدور الصادقين من الإخوان في أقطار الأرض وشاسع البلدان، يشرئب إلى التلاق، وينبعث إلى الطواف في الآفاق، يسيره الله تعالى في البلاد لفائدة العباد، ويستخرج بمغناطيس حاله خبء أهل الصدق، والمتعطلين إلى من يخبر عن الحق، ويبذر في أراضي القلوب بذر الفلاح، ويكثر ببركة نفسه وصحبته أهل الصلاح.

وهذا مثل هذه الأمة الهادية فالأمة الهادية في الإنجيل: ﴿ ...كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ...﴾.[1] تعود بركة البعض على البعض، وتسري الأحوال من البعض إلى البعض، ويكون طريق الوراثة معموراً، وعلم الإفادة منشوراً.

أخبرنا شيخنا قال: أنا الإمام عبد الجبار البيهقي في كتابه، أنا أبو بكر البيهقي قال: أنا أبو علي الروذبادي قال: حدثنا أبو بكر بن داسته قال: حدثنا أبو داود قال: أنا يحيى بن أيوب قال: حدثنا إسماعيل بن جعفر قال: أخبرني العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً».

فأما من أقام ولم يسافر يكون ذلك شخصاً رباه الحق سبحانه وتعالى، وتولاه وفتح عليه أبواب الخير وجذبه بعنايته.

وقد ورد: جذبه من جذبات الحق توازي عمل الثقلين.

---

(١) سورة الفتح: الآية ٢٩.

ثم لما علم منه الصدق، ورأى حاجته إلى من ينتفع به، ساق إليه بعض الصديقين حتى أيده بلطفه ولفظه، وتداركه بلحظه ولقحه وبقوة حاله، وكفاه يسير الصحبة لكمال الأهلية في الصاحب والمصحوب، وإجراء سنة الله تعالى في إعطاء الأسباب حقها لإقامة رسم الحكمة، يحوج إلى يسير الصحبة، فيتنبه بالقليل للكثير، ويغنيه اليسير من الصحبة عن اللحظ الكثير، ويكتفي بوافر حظ الاستبصار عن الأسفار، ويتعوض بأشعة الأنوار عن مطالعة العبر والآثار، كما قال بعضهم: الناس يقولون: افتحوا أعينكم وابصروا، وأنا أقول: أغمضوا أعينكم وابصروا.

وسمعت بعض الصالحين يقول: لله عباد طور سيناهم ركبهم، تكون رؤوسهم على ركبهم، وهم في مجال القرب، فمن نبع له معين الحياة في ظلمة خلوته، فماذا يصنع بدخول الظلمات، ومن اندرجت له أطباق السماوات في طي شهوده ماذا يصنع بتقلب طرفه في السموات، ومن جمعت أحداق بصيرته متفرقات الكائنات ماذا يستفيد من طي الفلوات، ومن خلص بخاصية فطرته إلى مجمع الأرواح ماذا تفيده زيارة الأشباح.

قيل: أرسل ذو النون المصري إلى ابي يزيد رجلاً وقال قل له: إلى متى هذا النوم والراحة وقد سارت القافلة؟ فقال للرسول: قل لأخي: الرجل من ينم الليل كله ثم يصبح في المنزل قبل القافلة، فقال ذو النون: هنيئاً له، هذا كلام لا تبلغه أحوالنا.

وكان بشر يقول: يا معشر الفقراء سيحوا تطيبوا، فإن الماء إذا كثر مكثه في موضع تغير.

وقيل: قال بعضهم عند هذا الكلام: صر بحراً حتى لا تتغير، فإذا أدام المريد سير الباطن بقطع مسافة النفس الامارة بالسوء حتى قطع منازل آفاتها، وبدل أخلاقها المذمومة بالمحمودة، وعانق الإقبال على الله تعالى بالصدق والإخلاص، اجتمع له المتفرقات، واستفاد في حضره أكثر من

سفره، لكون السفر لا يخلو من متاعب وكلف ومشوشات، وطوارق ونوازل يتجدد الضعف عن سياستها بالعلم للضعفاء، ولا يقدر على تسليط العلم على متجددات السفر وطوارقه إلا الأقوياء.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للذي زكى عنده رجلاً: هل صحبته في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا. قال: ما أراك تعرفه.

فإذا حفظ الله عبده في بداية أمره من تشويش السفر، ومنعه بجمع الهم وحسن الإقبال في الحضر، وساق إليه من الرجال من اكتسب به صلاح الحال، فقد أحسن إليه.

قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿...وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[1] هو الرجل المنقطع إلى الله يشكل عليه شيء من أمر الدين، فيبعث الله إليه من يحل إشكاله. فإذا ثبت قدمه على شروط البداية، رزق وهو في المقام من غير سفر ثمرات النهاية، فيستقر في الحضر انتهاء وابتداء، وأقيم في هذا المقام جمع من الصالحين.

وأما الذي أدام السفر، فرأى صلاح قلبه وصحة حاله في ذلك.

يقول بعضهم: اجتهد أن تكون كل ليلة ضعيف مسجد، ولا تموت بين منزلين.

وكان من هذه الطبقة إبراهيم الخواص، ما كان يقيم في بلد أكثر من أربعين يوماً، وكان يرى إن أقام أكثر من أربعين يوماً يفسد عليه توكله، فكان علم الناس ومعرفتهم إياه يراه سبباً ومعلوماً.

وحكى عنه أنه قال: مكثت في البادية أحد عشر يوماً لم آكل، وتطلعت نفسي أن آكل من حشيش البر، فرأيت الخضر مقبلاً نحوي،

---

(١) سورة الطلاق: الآيات ٢ - ٣.

فهربت منه، ثم التفت فإذا هو رجع عني، فقيل: لم هربت منه؟ قال: تشوفت نفسي أن يغيثني. فهؤلاء الفرارون بدينهم.

أخبرنا أبو زرعة طاهر بن الحافظ أبي الفضل المقدسي عن أبيه قال: أنا أبو بكر أحمد بن علي قال: أنا أبو عبد الله بن يوسف بن ناموبه قال: حدثنا أبو محمد الزهري القاضي قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن أسباط قال: حدثنا أبو نعيم قال: حدثنا محمد يعني ابن مسلم عن عثمان بن عبد الله بن أوس، عن سليمان بن هرمز، عن عبد الله عن رسول الله ﷺ قال: «أحب شيء إلى الله الغرباء، قيل: ومن الغرباء؟ قال: الفرارون بدينهم يجتمعون إلى عيسى بن مريم يوم القيامة».

وهذه كلها أحوال اختلفت، واتبع أربابها الصحبة وحسن النية مع الله، وحسن النية يقتضي الصدق، والصدق لعينة محمود، كيف تقلبت الأحوال.

فمن سافر ينبغي أن يتفقد حاله، ويصحح نيته، ولا يقدر على تخليص النية من شوائب النفس إلا كثير العلم، تام التقوى، وافر الحظ من الزهد في الدنيا.

ومن انطوى على هوى، ومن لم يستقص في الزهد لا يقدر على تصحيح النية فقد يدعوه إلى السفر نشاط جبلي نفساني، وهو يظن أن ذلك داعية الحق، ولا يميز بين داعية الحق وداعية النفس، ويحتاج الشخص في علم صحة النية إلى العلم بمعرفة الخواطر، وشرح الخواطر وعلمها يحتاج إلى باب مفرد لنفسه. ونومئ الآن إلى ذلك برمز يدركه من نازله شيء من ذلك، فأكثر الفقراء من علم ذلك ومعرفته عن بعد.

اعلم أن ما ذكرناه من نشاط النفس واقع للفقير في كثير من الأمور، فقد يجد الفقير الروح بالخروج إلى بعض الصحارى والبساتين، ويكون ذلك

الروح مضراً بـه في ثـاني الحـال، وإن كـان يـتراءى لـه طيبـة القلـب في الوقـت، وسبب طيبة قلبه في الوقت أن النفس تتفسح وتتسع ببلوغ غرضـها، وتيسـير يسـير هواهـا بـالخروج إلى الصحـراء والتـنزه، وإذا اتسعت بعـدت عـن القلـب، وتنحت عنه، متشوقة إلى متعلق هواها، فيتروح القلب لا بالصحراء بـل ببعـد النفس منه، كشخص تباعد عنه قرين يستثقله.

ثـم إذا عـاد الفقـير إلى زاويتـه، واسـتفتح ديـوان معاملتـه، ومـيز دسـتور حاله، يجد النفس مقارنة للقلب بمزيد ثقل موجب لتبرمه بها، وكلمـا ازداد ثقلها تكدر القلب. وسـبب زيـادة ثقلـها استرسـالها في تنـاول هواهـا، فيصـير الخروج إلى الصحراء عين الداء، ويظن الفقير أنه ترويـح ودواء، فلـو صـبر علـى الوحدة والخلوة ازدادت النفس ذوباناً، وخفت ولطفت وصـارت قرينـاً صالحـاً للقلب لا يستثقلها.

وعلى هذا يقاس التروح بالأسفار. فللنفـس وثبـات إلى توهـم التروحـات، فمن فطن لهذه الدقيقة لا يغـتر بالتروحـات المستعارة الـتي لا تحمـد عاقبتـها، ولا تؤمن غائلتها، ويتثبت عند ظهور خاطر السفر، ولا يكـترث بـالخطر، بـل يطرحه بعدم الالتفات، مسيئاً ظنه بالنفس وتسويلاتها.

ومن هذا القبيـل والله اعلـم قـول رسـول الله ﷺ: «إن الشـمس تطلـع مـن بين قرني الشيطان» فيكون للنفس عند طلوع الشمس وثبات، تسـتند تلك الوثبات والنهضات من النفس إلى المزاج والطبائع، ويطول شرح ذلك ويعمق.

ومن ذلك القبيل خفة مرض المريض غدوة بخلاف العشيات، فيتشكل اهـتزاز النفـس بنـهضات القلـب، ويدخـل علـى الفقـير مـن هـذا القبيـل آفـات كثيرة، يدخل في مداخل باهتزاز نفسه ظناً منه أن ذلك حكم نهوض قلبه، وربما يتراءى له أنه بالله يصول، وبالله يقول، وبالله يتحرك، فقد ابتلي بنهضة النفس ووثوبها.

ولا يقع هذا الاشتباه إلا لأرباب القلوب وأرباب الأحوال، وغير أرباب القلب والحال عن هذا بمعزل. وهذه مزلة قدم مختصة بالخواص دون العوام، فاعلم ذلك فإنه عزيز علمه.

وأقر مراتب الفقراء في مبادئ الحركة للسفر لتصحيح وجه الحركة أن يقدموا صلاة الاستخارة، وصلاة الاستخارة لا تهمل وإن تبين للفقير صحة خاطره، أو تبين له وجه المصلحة في السفر ببيان أوضح من الخاطر، فللقوم مراتب في التبيان من العلم بصحة الخاطر ومما فوق ذلك، ففي ذلك كله لا تهمل صلاة الاستخارة اتباعاً للسنة ففي ذلك البركة.

وهو من تعليم رسول الله ﷺ على ما حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي إملاء قال: انا أبو القاسم بن عبد الرحمن في كتابه أن أبا السعيد الكنجرودي اخبرهم قال: انا ابو عمرو بن حمدان قال: حدثنا احمد بن الحسين الصوفي قال: حدثنا منصور بن أبي مزاحم قال: حدثنا عبد الرحمن بن أبي الموالي عن محمد ابن المنكدر عن جابر رضي الله عنه قال:

كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن قال: «إذا همّ أحدكم بالأمر أو أراد الأمر فليصل ركعتن من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إنى استخيرك بعلمك، واستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا اقدر، وتعلم ولا اعلم، وانت علام الغيوب. اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر -يسميه بعينه- خير لي في ديني ومعاشي ومعادي وعاقبة امري، او قال عاجل امري واجله، فاقدره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنتَ تعلمه شراً لي مثل ذلك فاصرفه عنى واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان».

الباب السابع عشر
فيما يحتاج إليه الصوفي في سفره
من الفرائض والفضائل

فأما من الفقه وإن كان هذا يذكر في كتب الفقه، وهذا الكتاب غير موضوع لذلك، ولكن نقول على سبيل الإيجاز تيمناً بذكر الأحكام الشرعية التي هى الأساس الذي يبنى عليه:

لا بد للصوفي المسافر من علم التيمم، والمسح على الخفين، والقصر، والجمع في الصلاة.

أما التيمم فجائز للمريض والمسافر في الجنابة والحدث عند عدم الماء، أو الخوف من استعماله تلفاً في النفس أو المال، أو زيادة في المرض على القول الصحيح من المذاهب، أو عند حاجته إلى الماء الموجود لعطشه، أو عطش دابته أو رفيقه. ففي هذه الأحوال كلها يصلى بالتيمم ولا إعادة عليه، والخائف من البرد يصلي بالتيمم ويعيد الصلاة على الأصح.

ولا يجوز التيمم إلا بشرط الطلب للماء في مواضع الطلب، ومواضع الطلب مواضع تردد المسافر في منزلة للاحتطاب والاحتشاش، ويكون الطلب بعد دخول الوقت، والسفر القصير في ذلك كالطويل. وإن صلى بالتيمم مع تيقن الماء في آخر الوقت جاز على الأصح، ولا يعيد مهما صلى بالتيمم، وإن كان الوقت باقياً ومهما توهم وجود الماء بطل تيممه، كما إذا طلع ركب أو غير ذلك، وإن رأى الماء في أثناء الصلاة لا تبطل صلاته ولا تلزمه الإعادة، ويستحب له الخروج منها واستئنافها بالوضوء على الأصح.

ولا تيمم للفرض قبل دخول الوقت، ويتيمم لكل فريضة، ويصلي مهما شاء من النوافل بتيمم واحد. ولا يجوز أداء الفرض بتيمم النافلة. ومن لم يجد ماء ولا تراباً يصلي ويعيد عند وجود أحدهما، ولكن إن كان محدثاً لا يمسّ المصحف، وإن كان جنباً لا يقرأ القرآن في الصلاة بل يذكر الله تعالى عوض القراءة. ولا يتيمم إلا بتراب طاهر غير مخالط للرمل والجص، ويجوز بالغبار على ظهر الحيوان والثوب، ويسمى الله تعالى عند التيمم، وينوي استباحة الصلاة قبل ضرب اليد على التراب، وضم أصابعه لضربه الوجه ويمسح جميع الوجه، فلو بقي شيء من محل الفرض غير ممسوح لا يصح التيمم، ويضرب ضربه لليدين مبسوط الأصابع، ويعم بالتراب مح الفرض، وإن لم يقدر إلا بضربتين فصاعدا كيف أمكنه لا بد أن يعم التراب محل الفرض، ويمسح إذا فرغ إحدى الراحتين بالأخرى حتى تصيرا ممسوحتين، ومر اليد على ما نزل من اللحية من غير إيصال التراب إلى المنابت.

وأما المسح فيمسح على الخف ثلاثة أيام ولياليهن في السفر، والمقيم يوماً وليلة، وابتداء المدة من حين الحدث بعد لبس الخف. لا من حين لبس الخف، ولا حاجة إلى النية عند لبس الخف بل يحتاج إلى كمال الطهارة حتى لو لبس أحد الخفين قبل غسل الرجل الأخرى لا يصح أن يمسح على الخف.

ويشترط في الخف إمكان متابعة المشي عليه، وستر محل الفرض، ويكفي مسح يسير من أعلى الخف، والأولى مسح أعلاه وأسفله من غير تكرار. ومتى ارتفع حكم المسح بانقضاء المدة أو ظهور شيء من محل الفرض وإن كان عليه لفافة وهو على الطهارة يغسل القدمين دون استئناف الوضوء على الأصح. والماسح في السفر إذا أقام يمسح كالمقيم، وهكذا المقيم إذا سافر يمسح كالمسافر.

واللبد إذا ركب جورباً ونعل يجوز المسح عليه، ويجوز على المشرج إذا ستر محل الفرض، ولا يجوز على المنسوج وجهه الذي يستر بعض القدم به والباقي باللفافة.

فأما القصر والجمع فيجمع بين الظهر والعصر في وقت إحداهما، ويتيمم لكل واحدة، ولا يفصل بينهما بكلام غيره. وهكذا الجميع بين المغرب والعشاء، ولا قصر في المغرب والصبح، بل يصليهما كهيئتهما من غير قصر وجمع.

والسنن والرواتب يصليها بالجمع بين السنتين قبل الفريضتين للظهر والعصر، وبعد الفراغ من الفريضتين يصلي ما يصلي بعد الفريضة من الظهر ركعتين أو أربعاً، وبعد الفراغ من المغرب والعشاء يؤدى السنن الراتبة لهما ويوتر بعدهما.

ولا يجوز أداء الفرض على الدابة بحال إلا عند التحام القتال للغازي، ويجوز ذلك في السنن الرواتب والنوافل، وتكفيه الصلاة على ظهر الدابة، وفي الركوع والسجود الإيماء، ويكون إيماء السجود أخفض من الركوع إلا أن يكون قادراً على التمكن مثل أن يكون في محارة وغير ذلك، ويقوم توجهه إلى الطريق مقام استقبال القبلة، ولا يوجهها إلى غير الطريق إلا للقبلة، حتى لو حرف دابته عن الصوب المتوجه إليه لا إلى نحو القبلة بطلت صلاته.

والماشي ينتقل في السفر، ويقنعه استقبال القبلة عند الإحرام، لا يجزئه في الإحرام إلا الاستقبال، ويقنعه الإيماء للركوع والسجود. وراكب الدابة لا يحتاج إلى استقبال القبلة للإحرام أيضاً.

وإذا أصبح المسافر مقيماً ثم سافر فعليه إتمام ذلك اليوم في الصوم، وهكذا إن أصبح مسافراً ثم أقام. والصوم في السفر أفضل من الفطر. وفي الصلاة القصر أفضل من الإتمام.

فهذا القدر كاف للصوفي أن يعلمه من حكم الشرع في مهام سفره.

فأما المندوب والمستحب فينبغي ان يطلب لنفسه رفيقاً في الطريق يعينه على أمر الدين. وقد قيل: الرفيق ثم الطريق. ونهى رسول الله ﷺ أن يسافر الرجل وحده، إلا أن يكون صوفياً عالماً بآفة نفسه، يختار الوحدة على بصيرة من أمره، فلا بأس بالوحدة.

وإذا كانوا جماعة ينبغى أن يكون فيهم متقدم أمير. قال رسول الله ﷺ «إذا كنتم ثلاثة في سفر فأمروا احدكم» والذى يسميه الصوفية يبشر وهو الأمير، وينبغي أن يكون الأمير أزهد الجماعة فى الدنيا، وأوفرهم حظاً من التقوى، وأتمهم مروءة وسخاوة، وأكثرهم شفقة.

روى عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه».

نقل عن عبد الله المروزي أن ابا على الرباطى صحبه فقال: على أن اكون أنا الأمير أو أنت؟ فقال: بل أنت، فلم يزل يحمل الزاد لنفسه ولأبي على على ظهره، وأمطرت السماء ذات ليلة فقام عبد الله طول الليل على رأس رفيقه يغطيه بكسائه عن المطر، وكلما قال لا تفعل يقول ألست الأمير وعليك الانقياد والطاعة.

فأما إن كان الأمير يصحب الفقراء لمحبة الاستتباع وطلب الرياسة والتعزز، ليتسلط على الخدام في الربط، ويبلغ نفسه هواها، فهذا طريق ارباب الهوى الجهال المباينين لطريق الصوفية، وهو سبيل من يريد جمع الدنيا، فيتخذ لنفسه رفقاء مائلين إلى الدنيا، يجتمعون لتحصيل اغراض النفس، والدخول على أبناء الدنيا والظلمة للتوصل إلى تحصيل مآرب النفس، ولا يخلوا اجتماعهم هذا عن الخوض في الغيبة، والدخول في المداخل المكروهة، والتنقل في الربط، والاستمتاع والنزهة، وكلما كثر المعلوم في الرباط اطالوا

المقام وإن تعذرت أسباب الدين، وكلما قل المعلوم رحلوا وإن تيسرت أسباب الدين، وليس هذا طريق الصوفية.

ومن المستحب أن يودع إخوانه إذا أراد السفر ويدعو لهم بدعاء رسول الله ﷺ.

قال بعضهم: صحبت عبد الله بن عمر من مكة إلى المدينة فلما أردت مفارقته شيعني وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال لقمان لابنه يا بني إن الله تعالى إذا استودع شيئاً حفظه، وإني استودع الله دينك وأمانتك وخواتم عملك».

وروى زيد بن أرقم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا أراد أحدكم سفراً فليودع إخوانه فإن الله تعالى جاعل في دعائهم البركة».

وروى عنه عليه السلام أيضاً أنه كان إذا ودع رجلاً قال: «زودك الله التقوى، وغفر ذنبك، ووجهك للخير حيثما توجهت».

وينبغي أن يعتقد إخوانه إذا دعا لهم واستودعهم الله أن الله يستجيب دعاءه، فقد روى أن عمر رضي الله عنه كان يعطي الناس عطاياهم إذا جاء رجل معه ابن له فقال له عمر ما رأيت أحداً أشبه بأحد من هذا بك.

فقال الرجل: أحدثك عنه يا أمير المؤمنين إني أردت أن أخرج إلى سفر وأمه حامل به، فقالت: تخرج وتدعني على هذه الحالة؟ فقلت: استودع الله ما في بطنك، فخرجت ثم قدمت فإذا هي قد ماتت، فجلسنا نتحدث، فإذا نار تلوح على قبرها، فقلت للقوم: ما هذه النار ؟ فقالوا: هذه من قبر فلانه نراها كل ليلة، فقلت: والله إنها كانت صوامة قوامة، فأخذت المعول حتى انتهينا إلى القبر فحفرنا وإذا سراج، وإذا هذا الغلام يدب، فقيل: إن هذا وديعتك، ولو

كنت استودعتنا امه لوجدتها[1]. فقال عمر: لهو أشبه بك من الغراب بالغراب.

وينبغي أن يودع كل منزل يرحل عنه بركعتين ويقول: اللهم زودني التقوى، واغفر لي ذنوبي، ووجهني للخير أينما توجهت.

وروى انس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ لا ينزل منزلا إلا ودعه بركعتين.

فينبغي أن يودع كل منزل ورباط يرحل عنه بركعتين.

وإذا ركب الدابة فليقل: سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، بسم الله والله أكبر توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، اللهم انت الحامل على الظهر، وانت المستعان على الأمور.

والسنة أن يرحل من المنازل بكرة ويبتدئ بيوم الخميس.

روى كعب بن مالك قال: قلما كان رسول الله ﷺ يخرج إلى السفر إلا يوم الخميس. وكان إذا أراد أن يبعث سرية بعثها أول النهار.

ويستحب كلما أشرف على منزل أن يقول: اللهم رب السموات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين، وما اضللن، ورب الرياح وما ذرين، ورب البحار وما جرين، أسالك خير هذا المنزل وخير أهله، وأعوذ بك من شر هذا المنزل وشر أهله. وإذا نزل فليصل ركعتين.

ومما ينبغي للمسافر أن يصحبه آلة الطهارة.

قيل: كان إبراهيم الخواص لا يفارقه اربعة أشياء فى الحضر والسفر: الركوة، والحبل، والإبرة وخيوطها، والمقراض.

---

(١) لا دليل يسند هذا الخبر، لأن المتعارف عليه: أن القبر لا يوجد بداخله هواء فاي حي يدفن ويغلق عليه القبر يموت.

وروت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا سافر حمل معه خمسة أشياء: المرآة، والمكحلة، والمدرى، والسواك، والمشط. وفي رواية: المقراض.

والصوفية لا تفارقهم العصا، وهي أيضاً من السنة، روى معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «ان اتخذ منبراً فقد اتخذ إبراهيم، وأن اتخذ العصا فقد اتخذها إبراهيم وموسى».

وروى عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: التوكؤ على العصا من أخلاق الأنبياء. كان لرسول الله ﷺ عصاً يتوكأ عليها، ويأمر بالتوكؤ على العصا.

واخذ الركوة أيضاً من السنة. روى جابر بن عبد الله قال: بينما رسول الله ﷺ يتوضأ من ركوة إذ جهش الناس نحوه، أي أسرعوا نحوه.

والأصل في البكاء كالصبي يتلازم بالأم ويسرع إليها عند البكاء. قال: فقال رسول الله ﷺ: «مالكم؟» قالوا: يا رسول الله ما نجد ماء نشرب ولا نتوضأ به إلا ما بين يديك، فوضع يده في الركوة، فنظرت وهو يفور من بين أصابعه مثل العيون. قال فتوضأ القوم منه. قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة الف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة في غزوة الحديبية.

ومن سنة الصوفية شد الوسط وهو من السنة.

روى أبو سعيد قال: حج رسول الله ﷺ وأصحابه مشاة من المدينة إلى مكة وقال: «اربطوا على أوساطكم بأزركم» فربطنا ومشينا خلفه الهرولة.

ومن ظاهر آداب الصوفية عند خروجهم من الربط أن يصلي ركعتين في أول النهار يوم السفر بكرة كما ذكرنا يودع البقعة بالركعتين، ويقدم الخف وينفضه، ويشمر الكم اليمنى ثم اليسرى، ثم يأخذ الميانيد الذي يشد به وسطه، ويأخذ خريطة المداس وينفضها، ويأتي

الموضع الذى يريد ان يلبَس الخف فيفرش السجادة طاقين، ويحك نعل احد الداسين بالآخر، ويأخذ المداس باليسار والخريطة باليمين، ويضع المداس فى الخريطة أعقابه إلى أسفل، ويشد راس الخريطة، ويدخل المداس بيده اليسرى من كمه الأيسر، ويضعه خلف ظهره ثم يقعد على السجادة، ويقدم الخف بيساره وينفضه، ويبتدئ باليمنى فيلبس، ولا يدع شيئاً من الران أو المنطقة يقع على الأرض، ثم يغسل يديه ويجعل وجهه إلى الموضع الذي يخرج منه، ويودع الحاضرين، فإن أخذ بعض الأخوان روايته إلى خارج الرباط لا يمنعه، وهكذا العصا والإبريق، ويودع من شيعته ثم يشد الرواية برفع يده اليمنى ويخرج اليسرى من تحت إبطه الأيمن، ويشد الراوية على الجانب الأيسر، ويكون كتفه الأيمن خالياً، وعقدة الراوية على الجانب الأيمن، فإذا وصل في طريقه إلى موضع شريف، أو استقبله جمع من الإخوان، أو شيخ من الطائفة، يحل الراوية ويحطها، ويستقبلهم ويسلم عليهم، ثم إذا جاوزوه يشد الراوية، وإذا دنا من منزل رباطاً كان أو غيره يحل الراوية ويحملها تحت إبطه الأيسر، وهكذا العصا والإبريق يمسكه بيساره. وهذه الرسوم استحسنها فقراء خراسان والجبل، ولا يتعهدها اكثر فقراء العراق والشام والمغرب، ويجرى بين الفقراء مشاحنة في رعايتها.

فمن لا يتعاهدها يقول: هذه رسوم لا تلزم، والالتزام بها وقوف مع الصور وغفلة عن الحقائق، ومن يتعهدها يقول: هذه آداب وضعها المتقدمون، وإذا رأوا من يخل بها أو بشيء منها ينظرون إليه نظر الازدراء والحقارة، ويقال: هذا ليس بصوفي، وكلا الطائفتين في الإنكار يتعدون الواجب.

والصحيح في ذلك أن من يتعاهدها لا ينكر عليه، فليس بمنكر في الشرع، وهو أدب حسن. ومن لم يلتزم بذلك فلا ينكر عليه، فليس بواجب في الشرع ولا مندوب إليه.

وكثير من فقراء خراسان والجبل يبالغ في رعاية هذه الرسوم إلى حد يخرج إلى الإفراط. وكثيراً ما يخل بها فقراء العراق والشام والمغاربة إلى حد يخرج إلى التفريط.

والأليق أن ما ينكره الشرع ينكر، وما لا ينكره لا ينكر، ويجعل لتصاريف الإخوان أعذاراً ما لم يكن فيها منكر أو إخلال بمندوب إليه.

والله الموفق.

الباب الثامن عشر
في القدوم من السفر ودخول الرباط والأدب فيه

ينبغي للفقير إذا رجع من السفر أن يستعيذ بالله تعالى من آفات المقام، كما يستعيذ به من وعثاء السفر.

ومن الدعاء المأثور: اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال والولد.

وإذا أشرف على بلد يريد المقام بها يشير بالسلام على من بها من الأحياء والأموات، ويقرأ من القرآن ما تيسر، ويجعله هدية للأحياء والأموات، ويكبر، فقد روى أن رسول الله ﷺ كان إذا قفل من غزو أو حج يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث مرات ويقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له. له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون. صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده».

ويقول إذا رأى البلد «اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً».

ولو اغتسل كان حسناً اقتداء برسول الله ﷺ حيث اغتسل لدخول مكة. وروى أن رسول الله ﷺ لما رجع من طلب الأحزاب ونزل المدينة نزع لامته واغتسل واستحم. وإلا فليجدد الوضوء، ويتنظف ويتطيب، ويستعد للقاء الإخوان بذلك، وينوى التبرك بمن هنالك من الأحياء والأموات ويزورهم.

روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خرج رجل يزور أخاً له في الله فأرصد الله بمدرجته ملكاً وقال: أين تريد؟ قال: أزور فلاناً، قال: لقرابة؟ قال: لا، قال: لنعمة له عندك تشكرها؟ قال: لا، قال: فيم

تزوره؟ قال: إنى أحبه في الله. قال: فإنى رسول الله إليك بأنه يحبك بحبك إياه».

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا دعا الرجل أخاه أو زاره في الله، قال الله له: طبت وطاب ممشاك، ويتبوأ من الجنة منزلا».

وروى أن رسول الله ﷺ قال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة».

فيحصل للفقير فائدة الأحياء والأموات بذلك.

فإذا دخل البلد يبتدئ بمسجد من المساجد يصلى فيه ركعتين، فإن قصد الجامع كان اكمل وافضل. وقد كان رسول الله ﷺ إذا قدم دخل المسجد أولاً وصلى ركعتين ثم دخل البيت. والرباط للفقير بمنزلة البيت. ثم يقصد الرباط، فقصده الرباط من السنة على ما رويناه عن طلحة رضى الله عنه قال: كان الرجل إذا قدم المدينة وكان له بها عريف ينزل على عريفه، وإن لم يكن بها عريف نزل الصفة، فكنت ممن أنزل الصفة.

فإذا دخل الرباط يمضى إلى الموضع الذى يريد نزع الخف فيه، فيحل وسطه وهو قائم، ثم يخرج الخريطة بيساره من كمه اليسار، ويحل راس الخريطة باليمين، ويخرج المداس باليسار، ثم يضع المداس على الأرض، ويأخذ الميانيد ويلقيها فى وسط الخريطة، ثم ينزع خفه اليسار، فإن كان على الوضوء يغسل قدميه بعد نزع الخف من تراب الطريق والعرق. وإذا قدم على السجادة يطوى السجادة من جانب اليسار، ويمسح قدميه بما انطوى، ثم يستقبل القبلة ويصلى ركعتين، ثم يسلم ويحفظ القدم أن يطأ بها موضع السجود من السجادة.

وهذه الرسوم الظاهرة التى استحسنها بعض الصوفية لا ينكر على من يتقيد بها، لأنه من استحسان الشيوخ، ونيتهم الظاهرة في ذلك تقييد المريد في كل شيء بهيئة مخصوصة، ليكون أبدا مفتقدا لحركاته، غير قادم على حركة بغير قصد وعزيمة وادب.

ومن أخل من الفقراء بشيء من ذلك لا ينكر عليه ما لم يخل بواجب أو مندوب، لأن أصحاب رسول الله ﷺ ما تقيدوا بكثير من رسوم المتصوفة. وكون الشبان يطالبون الوارد عليهم بهذه الرسوم من غير نظر لهم إلى النية في الأشياء غلط.

فلعل الفقير يدخل الرباط غير مشمر اكمامه، وقد كان في السفر لم يشمر الأكمام، فينبه أن لا يتعاطى ذلك لنظر الخلق حيث لم يخل بمندوب إليه شرعاً. وكون الآخر يشمر الأكمام يقيس ذلك على شد الوسط، وشد الوسط من السنة كما ذكرنا من شد أصحاب رسول الله ﷺ أوساطهم في سفرهم بين المدينة ومكة. فتشمير الأكمام في معناه من الخلفة والاتفاق به في المشي، فمن كان مشدود الوسط مشمرا يدخل الرباط كذلك.

ومن لم يكن في السفر مشدود الوسط أو كان راكباً لم يشد وسطه، فمن الصدق أن يدخل كذلك، ولا يتعمد شد الوسط وتشمير الأكمام لنظر الخلق فإنه تكلف ونظر إلى الخلق، ومبنى التصوف على الصدق وسقوط نظر الخلق.

ومما ينكر على المتصوفة أنهم إذا دخلوا الرباط لا يبتدئون بالسلام ويقول المنكر هذا خلاف المندوب. ولا ينبغى للمنكر أن يبادر إلى الإنكار دون أن يعلم مقاصدهم فيما اعتمدوه.

وتركهم السلام يحتمل وجوهاً أحدها أن السلام اسم من أسماء الله تعالى، وقد روى عبد الله بن عمر قال: مر رجل على النبي ﷺ وهو يبول فسلم عليه فلم يرد عليه حتى كاد الرجل أن يتوارى، فضرب يده على الحائط ومسح بها وجهه ثم ضرب ضربة أخرى فمسح بها ذراعيه ثم رد على الرجل السلام، وقال: «إنه لم يمنعني أن أرد عليك السلام إلا أني لم أكن على طهر» وروى أنه لم يرد عليه حتى توضأ ثم اعتذر إليه وقال: «إني كرهت أن أذكر الله تعالى إلا على طهر».

وقد يكون جمع من الفقراء مصطحبين في السفر، وقد يتفق لأحدهم حدث، فلو سلم المتوضئ وأمسك المحدث ظهر حاله فيترك السلام حتى يتوضأ من يتوضأ، ويغسل قدمه من يغسل ستراً للحال على ما أحدث، حتى يكون سلامهم على الطهارة اقتداء برسول الله ﷺ. وقد يكون بعض المقيمين أيضاً على غير طهارة فيستعد لجواب السلام أيضاً بالطهارة، لأن السلام اسم من أسماء الله تعالى، وهذا من أحسن ما يذكر من الوجوه في ذلك.

ومنها أنه إذا قدم يعانقه الإخوان، وقد يكون معه من آثار السفر والطريق ما يكره فيستعد بالوضوء والنظافة ثم يسلم ويعانقهم.

ومنها أن جمع الرباط أرباب مراقبة وأحوال، فلو هجم عليهم بالسلام قد ينزعج منه مراقب ويتشوش محافظ، والسلام يتقدمه استئناس بدخوله واشتغاله بغسل القدم والوضوء وصلاة ركعتين، فيتأهب الجمع له كما يتأهب لهم بعد مسابقة الاستئناس، وقد قال الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ ﴾[1] واستئناس كل قوم على ما يليق بحالهم.

ومنها أنه لم يدخل على غير بيته ولا هو بغريب منهم، بل هم إخوانه، والألفة بالنسبة المعنوية الجامعة لهم في طريق واحد، والمنزل منزله، والموضع موضعه، فيرى البركة في استفتاح المنزل بمعاملة الله قبل معاملة الخلق،

(١) سورة النور، الآية ٢٧.

وكما يمهد عذرهم في ترك السلام ينبغى لهم أن لا ينكروا على من يدخل ويبتدئ بالسلام، فكما ان من ترك السلام له نية فالذى سلم له أيضاً نية.

وللقوم آداب ورد بها الشرع، ومنها آداب استحسنها شيوخهم، فما ورد به الشرع ما ذكرنا من شد الوسط والعصا والركوة، والابتداء باليمين في لبس الخف وفي نزعه باليسار.

روى أبو هريرة رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال: «إذا انتعلتم فابدءوا باليمين، وإذا خلعتم فابدأوا باليسار او اخلعهما جميعاً أو انعلهما جميعاً».

روى جابر رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ كان يخلع اليسرى قبل اليمنى، ويلبس اليمنى قبل اليسرى.

وبسط السجادة وردت به السنة، وقد ذكرناه. وكون احدهم لا يقعد على سجادة الآخر مشروع ومسنون. وقد ورد في حديث طويل: «لا يؤم الرجل في سلطانه ولا في أهله ولا يجلس على تكرمته إلا بإذنه».

وإذا سلم على الإخوان يعانقهم ويعانقونه، فقد روى جابر بن عبد الله قال: لما قدم جعفر من أرض الحبشة عانقه النبي ﷺ. وإن قبلهم فلا بأس بذلك.

روى أن رسول الله ﷺ لما قدم جعفر قبل بين عينيه وقال: «ما أنا بفتح خيبر أسر مني بقدوم جعفر».

ويصافح إخوانه، فقد قال عليه السلام: «قبلة المسلم أخاه المصافحة».

وروى أنس بن مالك قال: قيل يا رسول الله، الرجل يلقى صديقه واخاه ينحنى له؟ قال: لا. قيل: يلزمه ويقبله؟ قال: لا، قيل: فيصافحه؟ قال: نعم».

ويستحب للفقراء المقيمين في الرباط أن يتلقوا الفقراء بالترحيب.

روى عكرمة قال: قال رسول الله ﷺ يوم جئته «مرحباً بالراكب المهاجر» مرتين.

وإن قاموا إليه فلا بأس، وهو مسنون.

روى عنه عليه السلام أنه قام لجعفر يوم قدومه.

ويستجيب للخادم أن يقدم له الطعام.

روى لقيط بن صبره قال: وفدنا على رسول الله ﷺ فلم نصادفه في منزله، وصادفنا عائشة رضي الله عنها، فأمرت لنا بالحريرة فصنعت لنا، وأتينا بقناع فيه تمر، والقناع الطبق، فأكلنا، ثم جاء رسول الله ﷺ فقال: «أصبتم شيئاً؟ قلنا: نعم يا رسول الله».

ويستجب للقادم أن يقدم للفقراء شيئاً لحق القدوم.

ورد أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة نحر جزوراً.

وكراهيتهم لقدوم القادم بعد العصر، وجهه من السنة منع النبي ﷺ عن طروق الليل.

والصوفية بعد العصر يستعدون لاستقبال الليل بالطهارة والإنكباب على الأذكار والاستغفار.

وروى جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قدم أحدكم من سفر فلا يطرقن أهله ليلاً».

وروى كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ كان لا يقدم من السفر إلا نهاراً في الضحى.

فيستحبون القدوم في أول النهار فإن فات من أول النهار فقد يتفق تعويق من ضعف بعضهم فى المشي أو غير ذلك فيعذر الفقير بقية النهار إلى العصر لاحتمال التعويق، فإذا صار العصر ينسب إلى تقصيره فى الاهتمام بالسنة وقدوم أول النهار، فإنهم يكرهون الدخول بعد العصر والله أعلم. فإذا صار العصر يؤخر القدوم إلى الغد ليكون عاملاً بالسنة للقدوم ضحوة.

وأيضاً في معنى آخر، وهو أن الصلاة بعد العصر مكروهة، ومن الأدب أن يصلى القادم ركعتين، فلذلك يكرهون القدوم بعد صلاة العصر..

وقد يكون من الفقراء القادمين من يكون قليل الدراية بدخول الرباط ويناله دهشة، فمن السنة التقرب إليه والتودد وطلاقة الوجه حتى ينبسط وتذهب عنه الدهشة، ففي ذلك فضل كثير.

روى أبو رفاعة قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو يخطب فقلت يا رسول الله رجل غريب جاء يسأل عن دينه، لا يدرى ما دينه، قال: فأقبل النبى ﷺ على وترك خطبته، ثم أتي بكرسى قوائمه من حديد فقعد رسول الله ثم جعل يعلمنى مما علمه الله ثم أتى خطبته وأتم آخرها.

فأحسن أخلاق الفقراء الرفق بالمسلمين، واحتمال المكروه من المسموع والمرئي. وقد يدخل فقير بعض الربط، ويخل بشيء من مراسم المتصوفة، فينهر ويخرج، وهذا خطأ كبير، فقد يكون خلق من الصالحين والأولياء لا يعرفون هذا الترسم الظاهر، ويقصدون الرباط بنية صالحة، فإذا استقبلوه بالمكروه يخشى أن تتشوش بواطنهم من الأذى، ويدخل على المنكر عليه ضرر في دينه ودنياه، فليحذر ذلك وينظر إلى أخلاق النبي ﷺ، وما كان يعتمده مع الخلق من المداراة والرفق.

وقد صح أن أعرابياً دخل المسجد وبال، فأمر النبي عليه السلام حتى أتى بذنوب فصب على ذلك ولم ينهر الإعرابى، بل رفق به وعرفه الواجب بالرفق واللين.

والفظاظة والتغليظ والتسلط على المسلمين بالقول والفعل، من النفوس الخبيثة وهو ضد حال المتصوفة. ومن دخل الرباط ممن لا يصلح للمقام به رأساً، يصرف من الموضع على الطف وجه بعد أن يقدم له طعام، ويحسن له الكلام، فهذا الذي يليق بسكان الرباط، وما يعتمده الفقراء من تغميز القادم فخلق حسن ومعاملة صالحة، وردت به السنة.

روى عمر رضى الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ وغلام له حبشي يغمز ظهره، فقلت يا رسول الله ما شأنك؟ فقال: إن الناقة اقتحمت بى.

فقد يحسن الرضا بذلك ممن يغمز في وقت تعبه وقدومه من السفر، فأما من يتخذ ذلك عادة ويحب التغميز، ويستجلب به النوم ويساكنه حتى لا يفوته، فلا يليق بحال الفقراء، وإن كان في الشرع جائزا.

وكان بعض الفقراء إذا استرسل في الغمز واستلذه يحتلم فيرى ذلك الاحتلام عقوبة استرساله فى التغميز. ولأرباب العزائم أمور لا يسعهم فيها الركون إلى الرخص.

ومن آداب الفقير إذا استقر وقعد بعد قدومه أن لا يبتدئ بالكلام دون أن يسأل. ويستحب أن يمكث ثلاثة أيام لا يقصد زيارة ومشهدا أو غير ذلك مما هو مقصوده في المدينة، حتى يذهب عنه وعثاء السفر، ويعود باطنه إلى هيئته، فقد يكون بالسفر عوارضه تغير باطنه وتكدر، حتى تجتمع في الثلاثة الأيام همته، وينصلح باطنه، ويستعد للقاء المشايخ والزيارات بتنوير

الباطن، فإن باطنه إذا كان منوراً يستوفى حظه من الخير من كل شيخ وأخ يزوره.

وقد كنت أسمع شيخنا يوصي الأصحاب ويقول: لا تكلموا أهل هذا الطريق إلا في أصفى أوقاتكم. وهذا فيه فائدة كبيرة، فإن نور الكلام على قدر نور القلب، ونور السمع على قدر نور القلب، فإذا دخل على شيخ أو أخ وزاره ينبغي أن يستأذنه إذا أراد الانصراف.

فقد روى عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا زار أحدكم أخاه فجلس عنده فلا يقومن حتى يستأذنه» وإن نوى أن يقيم أياماً وفي وقته سعة، ولنفسه إلى البطالة وترك العمل تشوف بطلب خدمة يقوم بها، وإن كان دائم العمل لربه، فكفى بالعبادة شغلاً، لأن الخدمة لأهل العبادة تقوم مقام العبادة. ولا يخرج من الرباط إلا بإذن المتقدم فيه، ولا يفعل شيئاً دون أن يأخذ رأيه فيه.

فهذه جمل أعمال يعتمدها الصوفية وأرباب الرباط، والله تعالى بفضله يزيدهم توفيقاً وتأديباً.

الباب التاسع عشر
في حال الصوفي المتسبب

اختلف أحوال الصوفية في الوقوف مع الأسباب والإعراض عن الأسباب. فمنهم من كان على الفتوح لا يركن إلى معلوم، ولا يتسبب بكسب ولا سؤال، ومنهم من كان يكتسب، ومنهم من كان يسأل في وقت فاقته، ولهم في كل ذلك أدب وحد يراعونه ولا يتعدونه. وإذا كان الفقير يسوس نفسه بالعلم يأتيه الفهم من الله تعالى في الذي يدخل فيه من سبب أو ترك سبب، فلا ينبغي للفقير أن يسأل مهما أمكن.

فقد حث النبي عليه السلام على ترك السؤال بالترغيب والترهيب. فأما الترغيب فما روى ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «من يضمن لي واحدة أتكفل له الجنة. قال ثوبان: قلت: أنا. قال: لا تسأل الناس شيئاً» فكان ثوبان تسقط علاقة سوطه فلا يأمر أحدا يناوله، وينزل هو ويأخذها.

وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم حبلاً فيحتطب على ظهره فيأكل ويتصدق خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه، فإن اليد العليا خير من السفلى».

أخبرنا الشيخ الصالح أبو زرعة طاهر بن أبي الفضل الحافظ المقدسي قال: أخبرني والدي قال: أنا أبو محمد الصيرفي ببغداد قال: أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد قال: حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز قال: حدثنا علي ابن الجعد قال: حدثنا شعبة عن أبي حمزة قال سمعت هلال بن حصين قال: أتيت المدينة فنزلت دار أبي سعيد فضمني وإياه المجلس، فحدث أنه أصبح ذات يوم وليس عندهم طعام، فأصبح وقد عصب على بطنه حجرا

من الجوع فقالت لي امرأتي: ائت رسول الله ﷺ فقد أتاه فلان فأعطاه وأتاه فلان فأعطاه.

قال: فأتيته وقلت ألتمس شيئاً، فذهبت أطلب فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب ويقول: «من يستعف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن سألنا شيئاً فوجدناه أعطيناه وواسيناه، ومن استعف عنه واستغنى فهو أحب إلينا ممن سألنا». قال: فرجعت وما سألته، فرزقني الله تعالى حتى ما أعلم أهل بيت من الأنصار أكثر أموالاً منا.

وأما من حيث الترهيب والتحذير، فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس فى وجهه مزعة لحم».

وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين الذي ترده الأكلة والأكلتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس، ولا يفطن بمكانه فيعطى».

هذا هو حال الفقير الصادق. والمتصوف المحقق لا يسأل الناس شيئاً.

ومنهم من يلزم الأدب حتى يؤديه إلى حال يستحيى من الله تعالى أن يسأله شيئاً من أمر الدنيا، حتى إذا همت النفس بالسؤال ترده الهيبة، ويرى الإقدام على السؤال جراءة، فيعطيه الله تعالى عند ذلك من غير سؤال.

كما نقل عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه جاءه جبريل وهو في الهواء قبل أن يصل إلى النار فقال: هل لك من حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، فقال له: فسل ربك، فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي: وقد يضعف عن مثل هذا فيسأل الله عبودية ولا يرى سؤال المخلوقين، فيسوق الله تعالى إليه من القسم من غير سؤال مخلوق.

بلغنا عن بعض الصالحين أنه كان يقول: إذا وجد الفقير نفسه مطالبة بشيء، لا تخلو تلك المطالبة إما أن تكون لرزق يريد الله أن يسوقه

إليه، فتتنبه النفس له، فقد تتطلع نفوس بعض الفقراء إلى ما سوف يحدث وكأنها تخبر بما يكون، وإما أن يكون ذلك عقوبة لذنب وجد منه، فإذا وجد الفقير ذلك، وألحت النفس بالمطالبة، فليقم وليسبغ الوضوء، ويصلي ركعتين ويقول: يا رب إن كانت هذه المطالبة عقوبة ذنب فاستغفرك وأتوب إليك، وإن كانت لرزق قدرته لى فعجل وصوله إلى، فإن الله تعالى يسوقه إليه إن كان رزقه، وإلا فتذهب المطالبة عن باطنه.

فشأن الفقير أن ينزل حوائجه بالحق، فإما أن يرزقه الشيء أو الصبر، أو يذهب ذلك عن قلبه. فلله سبحانه وتعالى أبواب من طريق الحكمة، وأبواب من طريق القدرة، فإن فتح بابا من طريق الحكمة وإلا فيفتح بابا من طريق القدرة ويأتيه الشيء بخرق العادة كما كان يأتى مريم عليها السلام ﴿... كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ...﴾.

حكى عن بعض الفقراء قال: جعت ذات يوم وكان حالى أن لا اسأل، فدخلت بعض المحال ببغداد مجتازا متعرضا لعل الله تعالى يفتح لى على يد بعض عباده شيئا، فلم يقدر، فنمت جائعا فأتى آت في منامى فقال لىَ: اذهب إلى موضع كذا وعين الموضع فثم خرقة زرقاء فيها قطعيات أخرجها في مصالحك.

فمن تجرد عن المخلوق وتفرد بالله فقد تفرد بغنى قادر لا يعجزه شيء، يفتح عليه من أبواب الحكمة والقدرة كيف شاء. وأولى من سأل نفسه يسألها الصبر الجميل، فإن الصادق تجيبه نفسه.

وحكى شيخنا رحمه الله تعالى أن ولده جاء إليه ذات يوم وقال له: أريد حبة، قال: فقلت له: ما تفعل بالحبة؟ فذكر شهوة يشتريها بالحبة ثم قال عن إذنك اذهب واستقرض الحبة، قال: قلت: نعم استقرضها من نفسك فهي أولى من أقرض. وقد نظم بعضهم هذا المعنى فقال:

إن شئت أن تستقرض المال منفقـ ... على شهوات النفس في زمن العسر
فسل نفسك الإنفاق من كنز صبرها ... عليك وإرفاقاً إلى زمن اليسر
فإن فعلت كنت الغنى وإن أبت ... فكل ممنوع بعدها واسع العذر

فإذا استنفذ الفقير الجهد من نفسه، وأشرف على الضعف، وتحققت الضرورة، وسأل مولاه ولم يقدر له بشيء، ووقته يضيق عن الكسب من شغله بحاله، فعند ذلك يقرع باب السبب ويسأل، فقد كان الصالحون يفعلون ذلك عند فاقتهم.

نقل عن أبي سعيد الخراز أنه كان يمد يده عند الفاقة ويقول ثم شيء لله. ونقل عن أبي جعفر الحداد وكان أستاذا للجنيد أنه كان يخرج بين العشاءين ويسأل من باب أو بابين، ويكون ذلك معلومة على قدر الحاجة بعد يوم أو يومين.

ونقل عن إبراهيم بن ادهم أنه كان معتكفاً بجامع البصرة مدة، وكان يفطر في كل ثلاث ليال ليلة، وليلة إفطاره يطلب من الأبواب.

ونقل عن سفيان الثورى أنه كان يسافر من الحجاز إلى صنعاء اليمن ويسأل في الطريق، وقال: كنت أذكر لهم حديثاً فى الضيافة فيقدم إلى الطعام، فأتناول حاجتى، وأترك ما يبقى.

وقد ورد: من جاع ولم يسأل فمات دخل النار. ومن عنده علم وله مع الله حال لا يبالى بمثل هذا، بل يسأل بالعلم ويمسك عن السؤال بالعلم.

وحكى بغض مشايخنا عن شخص كان مصراً على المعاصى ثم انتبه وتاب وحسنت توبته، وصار له حال مع الله تعالى، قال: عزمت أن أحج مع القافلة، ونويت أن لا أسأل أحداً شيئاً، واكتفى بعلم الله بحالى. قال: فبقيت أياماً فى الطريق ففتح الله على بالماء والزاد في وقت الحاجة، ثم وقف الأمر ولم يفتح الله على بشيء، فجعت وعطشت حتى لم يبق لى طاقة، فضعفت

عن المشي وبقيت أتأخر عن القافلة قليلاً قليلاً حتى مرت القافلة، فقلت في نفسي: هذا الآن مني إلقاء النفس إلى التهلكة وقد منع الله من ذلك، وهذه مسألة الاضطرار أسأل، فلما هممت بالسؤال انبعث من باطني إنكار لهذه الحال، وقلت عزيمة عقدتها مع الله لا أنقضها، وهان على الموت دون نقض عزيمتي، فقصدت شجرة وقعدت في ظلها، وطرحت رأسى استطراحاً للموت، وذهبت القافلة.

فبينما أنا كذلك إذ جاءنى شاب متقلد بسيف وحركني، فقمت وفي يده أداوة فيها ماء فقال لى اشرب، فشربت ثم قدم لى طعاماً وقال كل، فأكلت، ثم قال لى أتريد القافلة؟ فقلت من لى بالقافلة وقد عبرت؟ فقال لى قم، وأخذ بيدى ومشى معى خطوات ثم قال لى: اجلس فالقافلة إليك تجئ، فجلست ساعة فإذا أنا بالقافلة ورائى متوجهة إلى. هذا شأن من يعامل مولاه بالصدق.

وذكر الشيخ أبو طالب المكي رحمه الله أن بعض الصوفية أول قول رسول الله ﷺ: «أحل ما أكل المؤمن من كسب يده» بأنه المسألة عند الفاقة، وأنكر الشيخ أبو طالب هذا التأويل من هذا الصوفى، وذكر أن جعفرا الخالدى كان يحكى هذا التأويل عن شيخ من شيوخ الصوفية، ووقع لى والله أعلم أن الشيخ الصوفى لم يرد بكسب اليد ما أنكر الشيخ أبو طالب منه، وإنما أراد بكسب اليد رفعها إلى الله تعالى عند الحاجة، فهو من أجل ما يأكله إذا أجاب الله سؤاله، وساق إليه رزقه.

وقال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام ﴿...رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.[1]

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: قال ذلك وإن خضرة البقل تتراءى في بطنه من الهزال.

(١) سورة القصص: الآية ٢٤.

وقال محمد الباقر رحمه الله: قالها وإنه محتاج إلى شق تمرة.

وروى عن مطرف أنه قال: أما والله لو كان عند نبى الله شيء ما اتبع المرأة، ولكن حمله على ذلك الجهد.

وذكر الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي عن النصر اباذى أنه قال في قوله: ﴿... إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ لم يسأل الكليم الخلق، وإنما كان سؤاله من الحق، ولم يسأل غذاء النفس، إنما أراد سكون القلب.

وقال أبو سعيد الخراز: الخلق مترددون بين مالهم وبين ما إليهم، من نظر إلى ماله تكلم بلسان الفقر، ومن شاهد ما إليه تكلم بلسان الخيلاء والخفر. الا ترى حال الكليم عليه السلام لما شاهد خواص ما خاطبه به الحق كيف قال: (أرنى انظر إليك) ولما نظر إلى نفسه كيف أظهر الفقر وقال: ﴿لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾.

وقال ابن عطاء: نظر من العبودية فخشع وخضع، وتكلم بلسان الافتقار بما ورد على سره من الأنوار، افتقار العبد إلى مولاه في جميع أحواله، لا افتقار سؤال وطلب.

وقال الحسين: فقير لما خصصتنى من علم اليقين أن ترقينى إلى عين اليقين وحقه.

ووقع والله أعلم في قوله: ﴿لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ أن الإنزال مشعر ببعد رتبته عن حقيقة الرب، فيكون الإنزال عين الفقر، فما قنع بالمنزل وأراد قرب المنزل، ومن صح فقره، ففقره في أمر آخرته كفقرة في أمر دنياه، ورجوعه إليه في الدارين وإياه يسأل حوائج المنزلين، وتتساوى عنده الحاجتان، فما له مع غير الله شغل في الدارين.

الباب العشرون
في ذكر من يأكل من الفتوح

إذا كمل شغل الصوفي بالله، وكمل زهده لكمال تقواه، يحكم الوقت عليه بترك التسبب، وينكشف له صريح التوحيد وصحة الكفالة من الله الكريم، فيزول عن باطنه الاهتمام بالأقسام، ويكون مقدمة هذا أن يفتح الله له باباً من التعريف بطريق المقابلة على كل فعل يصدر منه، حتى لو جرى عليه يسير من ذنب بحسب حاله أو الذنب مطبقاً مما هو منهى عنه فى الشرع، يجد عقاب ذلك فى وقته أو يومه.

كان يقول بعضهم: إنى لأعرف ذنبي في سوء خلق غلامي.

وقيل: عن بعض الصوفية قرض الفار خفه فلما رآه تألم وقال:

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى   بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا

إشارة منه إلى أن الداخل عليه مقابلة له على شيء استوجب به ذلك، فلا تزال به المقابلات متضمنة للتعريفات الإلهية، حتى يتحصن بصدق المحاسبة وصفاء المراقبة عن تضييع حقوق العبودية، ومخالفة حكم الوقت، ويتجرد له حكم فعل الله، وتنمحى عنده أفعال غير الله، فيرى المعطى والمانع هو الله سبحانه ذوقاً وحالاً لا علماً وإيماناً، ثم يتداركه الحق تعالى بالمعونة، ويوقفه على صريح التوحيد وتجريد فعل الله تعالى.

كما حكى عن بعضهم انه خطر له خاطر الاهتمام بالرزق، فخرج إلى بعض الصحارى فرأى قنبرة عمياء عرجاء ضعيفة، فوقف متعجباً منها، متفكرا فيما تأكل مع عجزها عن الطيران والمشى والرؤية، فبينما هو كذلك إذا انشقت الأرض وخرجت سكرجتان، في إحداهما سمسم نقي وفى

الأخرى ماء صاف، فأكلت من السمسم وشربت من الماء، ثم انشقت الأرض وغابت السكرجتان. قال: فلما رأيت ذلك سقط عن قلبي الاهتمام بالرزق.

فإذا أوقف الحق عبده في هذا المقام، يزيل عن باطنه الاهتمام بالأقسام، ويرى الدخول فى التسبب والتكسب بالسؤال وغيره رتبة العوام، ويصير مسلوب الاختيار، غير متطلع إلى الأغيار، ناظرا إلى فعل الله تعالى، منتظرا لأمر الله فتساق إليه الأقسام، ويفتح عليه باب الإنعام، ويكون بدوام ملاحظته لفعل الله، وترصده ما يحدث من أمر الله تعالى مكاشفاً له تجليات من الله تعالى بطريق الأفعال، والتجلى بطريق الأفعال رتبة من القرب، ومنه يترقى إلى التجلى بطريق الصفات، ومن ذلك يترقى إلى تجلى الذات والإشارة فى هذه التجليات إلى رتب في اليقين، ومقامات في التوحيد شيء فوق شيء وشيء أصفى من شيء.

فالتجلي بطريق الأفعال يحدث صفو الرضا والتسليم، والتجلي بطريق الصفات يكسب الهيبة والأنس، والتجلي بالذات يكسب الفناء والبقاء.

وقد يسمى ترك الاختبار والوقوف مع فعل الله فناء، يعنون به فناء الإرادة والهوى، والإرادة ألطف أقسام الهوى، وهذا الفناء هو الفناء الظاهر، فأما الفناء الباطن وهو محو آثار الوجود عند لمعان نور الشهود، يكون في تجلي الذات، وهو أكمل أقسام اليقين في الدنيا، فأما تجلى حكم الذات فلا يكون إلا في الآخرة، وهو المقام الذي حظي به رسول الله ﷺ ليلة المعراج، ومنع عنه موسى بلن تراني.

فليعلم أن قولنا في التجلى إشارة إلى رتب الحظ من اليقين ورؤية البصيرة، فإذا ولى العبد إلى مبادئ أقسام التجلي، وهو مطالعة الفعل الإلهى مجردا عن فعل سواه يكون تناوله الأقسام من الفتوح.

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من وجه إليه شيء من هذا الرزق من غير مسألة ولا إشراف فليأخذه وليوسع به في رزقه، فإن كان عنده غنى فليدفعه إلى من هو أحوج منه».

وفي هذا دلالة ظاهرة على أن العبد يجوز أن يأخذ زيادة على حاجته بنية صرفه إلى غيره. وكيف لا يأخذ وهو يرى فعل الله تعالى. ثم إذا أخذ فمنهم من يخرجه إلى المحتاج، ومنهم من يقف في الإخراج أيضا حتى يرد عليه من الله علم خاص، ليكون أخذه بالحق وإخراجه بالحق.

اخبرنا الشيخ أبو زرعه طاهر قال: انبانا والدى الحافظ أو الفضل المقدسي قال: انا أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد الحبال قال: انا محمد بن عبد الرحمن بن سعيد قال: انا ابو طاهر احمد بن محمد بن عمرو قال: انا يونس بن عبد الأعلى قال: حدثنا عمرو بن الحارث عن ابن شهاب عن السائب بن يزيد عن حويطب بن عبد العزي عن عبيد الله السعدي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعطينى العطاء فأقول له أعطه يا رسول الله من هو افقر منى، فقال رسول الله ﷺ: «خذه فتموله أو تصدق به، وما جاءك من هذا المال وانت غير متشوف ولا سائل فخذه، وإلا فلا تتبعه نفسك» قال سالم: فمن أجل ذلك كان ابن عمر لا يسأل أحدا شيئا ولا يرد شيئا أعطيه.

درج رسول الله ﷺ الأصحاب بأوامره إلى رؤية فعل الله تعالى، والخروج من تدبير النفس إلى حسن تدبير الله تعالى.

سئل سهل بن عبد الله التسترى عن علم الحال قال: هو ترك التدبير، ولو كان هذا في واحد لكان من أوتاد الأرض.

وروى يزيد بن خالد قال: قال رسول الله ﷺ «من جاءه معروف من أخيه من غير مسألة ولا إشراف نفس فيقبله فإنما هو شيء من رزق الله تعالى ساقه الله إليه».

وهذا العبد الواقف مع الله تعالى في قبول ما ساق الحق آمن ما يخشى عليه إنما يخشى على من يرد، لأن من رد لا يأمن من دخول النفس عليه أن يرى بعين الزهد، ففي أخذه إسقاط نظر الخلق تحققاً بالصدق والإخلاص، وفي إخراجه إلى الغير إثبات حقيقة فلا يزال في كلا الحالتين زاهداً يراه الغير بعين الرغبة لقلة العلم بحاله، وفي هذا المقام يتحقق الزهد في الزهد.

ومن أهل الفتوح من يعلم دخول الفتوح عليه، ومنهم من لا يعلم دخول الفتوح عليه، فمنهم من لا يتناول من الفتوح إلا إذا تقدمه علم بتعريف من الله إياه، ومنهم من يأخذ غير متطلع إلى تقدم العلم حيث تجرد له الفعل، ومن لا ينتظر تقدمة العلم فوق من ينتظر تقدمة العلم لتمام صحبته مع الله وانسلاخه من إرادته، وعلم حاله في ترك الاختيار، ومنهم من يدخل الفتوح عليه لا بتقدمة العلم ولا رؤية تجرد الفعل من الله، ولكن يرزق شرباً من المحبة بطريق رؤية النعمة، وقد يتكدر شرب هذا بتغير معهود النعمة، وهذا حال ضعيف بالإضافة إلى الحالتين الأولين، لأنه علة في المحبة ووليجة في الصدق عند الصديقين.

وقد ينتظر صاحب الفتوح العلم في الإخراج أيضاً، كما ينتظر في الأخذ، لأن النفس تظهر في الإخراج كما تظهر في الأخذ. وأتم من هذا من يكون في إخراجه مختاراً، وفي أخذه مختاراً بعد تحققه بصحة التصرف، فإن انتظار العلم إنما كان لموضع اتهام النفس، وهو ببقية هوى موجود، فإذا زال الاتهام بوجود صريح العلم يأخذ غير محتاج إلى علم متجدد ويخرج كذلك، وهذه حال من تحقق بقول رسول الله ﷺ حاكياً عن ربه: «فإذا

احببته كنت له سمعاً وبصراً، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي ينطق» الحديث.

فلما صح تعرفه صح تصرفه، وهذا اعز في الأحوال من الكبريت الأحمر.

وكان شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي رحمه الله يحكى عن الشيخ حماد الدباس انه كان يقول: انه لا آكل إلا من طعام الفضل، فكان يرى الشخص في المنام أن يحمل إليه شيئاً وقد كان يعين للرائي في المنام أن احمل إلى حماد كذا وكذا. وقيل إنه بقى زماناً يرى هو في واقعته أو منامه انك احلت على فلان بكذا وكذا.

وحكى عنه انه كان يقول: كل جسم تربى بطعام الفضل لا يتسلط عليه البلاء، ويعنى بطعام الفضل ما شهد له صحة الحال من فتوح الحق. ومن كانت هذه حالته فهو غني بالله.

قال الواسطى: الافتقار إلى الله أعلى درجة المريدين، والاستغناء بالله اعلى درجة الصديقين.

وقال ابو سعيد الخراز: العارف تدبيره فني في تدبير الحق. فالواقف مع الفتوح واقف مع الله ناظر إلى الله.

واحسن ما حكى في هذا أن بعضهم رأى النووي يمد يده ويسأل الناس قال: فاستعظمت ذلك منه واستقبحته له، فاتيت الجنيد فاخبرته فقال لى: لا يعظم هذا عليك، فإن النووى لم يسأل الناس إلا ليعطيهم سؤلهم في الآخرة، فيؤجرون من حيث لا يضره.

وقول الجنيد ليعطيهم كقول بعضهم اليد العليا يد الآخذ، لأنه يعطى الثواب.

قال: ثم قال الجنيد: هات الميزان، فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة فالقاها على المائة، ثم قال احملها إليه، فقلت في نفسي: إنما يزن ليعرف مقدارها كيف خلط المجهول بالموزون وهو رجل حكيم، واستحييت أن أسأله، فذهبت بالصرة إلى النوري، فقال هات الميزان، فوزن مائة درهم وقال: ردها عليه وقل له أنا لا أقبل منك شيئاً، وأخذ ما زاد على المائة. قال فزاد تعجبي، فسألته عن ذلك فقال: الجنيد رجل حكيم، يريد أن يأخذ الحبل بطرفيه، وزن المائة لنفسه طلباً للثواب، وطرح عليها قبضة بلا وزن لله، فأخذت ما كان لله ورددت ما جعله لنفسه. قال فرددتها على الجنيد فبكى وقال: أخذ ماله ورد مالنا.

ومن لطائف ما سمعت من أصحاب شيخنا أنه قال ذات يوم لأصحابه: نحن محتاجون إلى شيء من المعلوم، فارجعوا إلى خلواتكم واسألوا الله تعالى، وما فتح الله تعالى لكم ائتوني به، ففعلوا ثم جاءوه من بينهم شخص يعرف بإسماعيل البطائحي، ومعه كاغد عليه ثلاثون دائرة، وقال هذا الذى فتح الله لى فى واقعتى، فأخذ الشيخ الكاغد فلم يكن إلا ساعة فإذا بشخص دخل ومعه ذهب فقدمه بين يدى الشيخ، ففتح القرطاس وإذا هو ثلاثون صحيحاً، فترك كل صحيح على دائرة وقال هذا فتوح الشيخ إسماعيل أو كلاماً هذا معناه.

وسمعت أن الشيخ عبد القادر رحمه الله بعث إلى شخص وقال لفلان عندك طعام وذهب، ائتنى من ذلك بكذا ذهباً وكذا طعاماً، فقال الرجل: كيف أتصرف فى وديعة عندى ولو استفتيتك ما أفتيتني في التصرف؟ فألزمه الشيخ بذلك، فأحسن الظن بالشيخ وجاء إليه بالذى طلب، فلما وقع التصرف منه جاءه مكتوب من صاحب الوديعة وهو غائب في بعض نواحى العرق أن احمل إلى الشيخ عبد القادر كذا وكذا، وهو القدر الذى عينه

الشيخ عبد القادر فعاتبه الشيخ بعد ذلك على توقفه وقال: ظننت بالفقراء أن إشاراتهم تكون على غير صحة وعلم.

فالعبد إذا صح مع الله تعالى يرفع الله عن باطنه هموم الدنيا، ويجعل الغنى في قلبه، ويفتح عليه أبواب الرفق، وكل الهموم المتسلطة على بعض الفقراء، لكون قلوبهم ما استكملت الشغل بالله والاهتمام برعاية حقائق العبودية. فعلى قدر ما خلت من الهم بالله ابتليت بهم الدنيا، ولو امتلأت من هم الله ما عذبت بهموم الدنيا وقنعت وارتقت.

روى أن عوف بن عبد الله المسعودى كان له ثلثمائة وستون صديقاً، وكان يكون عند كل واحد يوماً، وآخر كان له ثلاثون صديقاً، يكون عند كل واحد يوماً، وآخر كان له سبعة إخوان يكون كل يوم من الأسبوع عند واحد، فكان إخوانهم معلومهم، والمعلوم إذا أقامه الحق للناظر إلى الله الكامل توحيده يكون نعمة هنيئة.

جاء رجل إلى الشيخ أبى السعود رحمه الله وكان من أرباب الأحوال السنية، والواقفين في الأشياء مع فعل الله تعالى، متمكناً من حاله، تاركاً لاختياره، ولعله سبق كثيراً من المتقدمين في تحقيق ترك الاختيار، رأينا منه وشاهدنا أحوالاً صحيحة عن قوة وتمكين، فقال له الرجل: أريد أن أعين لك شيئاً كل يوم من الخبز أحمله إليك، ولكني قلت: الصوفية يقولون المعلوم شؤم، قال الشيخ: نحن ما نقول المعلوم شؤم، فإن الحق يصفى لنا، وفعله نرى، فكل ما يقسم لنا نراه مباركاً ولا نراه شؤماً.

أخبرنا أبو زرعة إجازة قال: أنا أبو بكر بن أحمد بن خلف الشيرازي إجازة قال: أنا عبد الرحمن السلمي قال: سمعت أبا بكر بن شاذان قال: سمعت أبا بكر الكتاني قال: كنت أنا وعمرو المكي وعياش بن المهدى نصطحب ثلاثين سنة، نصلى الغداة على طهر العصر، وكنا قعوداً بمكة على التجريد، مالنا على الأرض ما يساوى فلساً، وربما كان يصحبنا الجوع يوماً

ويومين وثلاثة وأربعة وخمسة ولا نسأل احداً، فإن ظهر لنا شيء وعرفنا وجهه من غير سؤال ولا تعريض قبلناه واكلناه وإلا طوينا، فإذا اشتد بنا الأمر وخفنا على أنفسنا النقصان في الفرائض قصدنا ابا سعيد الخراز فيتخذ لنا الواناً من الطعام، ولا نقصد غيره، ولا ننبسط إلا إليه، لما نعرف من تقواه وورعه.

وقيل لأبي يزيد : ما نراك تشتغل بكسب، فمن أين معاشك؟ فقال: مولاى يزرق الكلب والخنزير، تراه لا يرزق أبا يزيد.

قال السلمي: سمعت أبا عبد الله الرازي يقول: سمعت مظفراً القرميسني يقول: الفقير الذي لا يكون له عند الله حاجه.

وقيل لبعضهم: ما الفقر؟ قال: وقوف الحاجة على القلب، ومحوها من كل احد سوى الرب.

وقال بعضهم: أخذ الفقير الصدقة ممن يعطيه لا ممن تصل إليه على يده، ومن قبل من الوسائط فهو المترسم بالفقر مع دناءة همته.

أنبأنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي قال: أنا عصام الدين أبو حفص عمر بن احمد بن منصور الصفار قال: أنا أبو بكر احمد بن خلف الشيرازي قال: أنا أبو عبد الرحمن السلمي قال: سمعت احمد بن على ابن جعفر يقول سمعت أن أبا سليمان الداراني كان يقول: آخر إقدام الزاهدين أول إقدام المتوكلين.

روى أن بعض العارفين زهد، فبلغ من زهده ان فارق الناس وخرج من الأمصار وقال لا أسأل احداً شيئاً حتى يأتينى رزقي، فأخذ يسيح، فأقام في سفح جبل سبعاً لم يأته شيء حتى كاد أن يتلف، فقال يا رب إن احببتنى فأتنى برزقي الذي قسمت لى، وإلا فاقبضني إليك، فألهمه الله تعالى في قلبه: وعزتى وجلالى لا ارزقك حتى تدخل الأمصار وتقيم بين الناس، فدخل

المدينة وأقام بين ظهراني الناس، فجاء هذا بطعام، وهذا بشراب فأكل وشرب، فأوجس في نفسه من ذلك، فسمع هاتفاً: أردت أن تبطل حكمته بزهدك في الدنيا، أما علمت أنه يرزق العباد بأيدى العباد أحب إليه من أن يرزقهم بأيدى القدرة.

فالواقف مع الفتوح استوى عنده أيدى الآدميين وأيدى الملائكة، واستوى عنده القدرة والحكمة، وطلب القفار، والتوصل إلى قطع الأسباب، من الارتهان برؤية الأسباب. وإذا صح التوحيد تلاشت الأسباب في عين الإنسان.

أخبرنا شيخنا قال: أنا أبو حفص عمر قال: أنا أبو عبد الرحمن قال: أنا محمد بن أحمد بن حمدان العكبري قال: سمعت أحمد بن محمود بن اليسرى يقول: سمعت محمداً الإسكاف يقول: سمعت يحيى بن معاذ الرازي يقول: من استفتح باب المعاش بغير مفاتيح الأقدار وكل إلى المخلوقين.

قال بعض المنقطعين: كنت ذا صنعة جليلة فأريد مني تركها، فحاك في صدرى من أين المعاش، فهتف بى هاتف لا أراه: تنقطع إلى وتتهمني في رزقك؟ على أن أخدمك ولياً من أوليائى، أو أسخر لك منافقاً من أعدائى، فلما صح حال الصوفى، وانقطعت أطماعه، وسكنت عن كل تشوف وتطلع، خدمته الدنيا، وصلحت له الدنيا خادمة، وما رضيها مخدومة.

فصاحب الفتوح يرى حركة النفس بالتشوف جناية وذنباً.

روى أن أحمد بن حنبل خرج ذات يوم إلى شارع باب الشام فاشترى دقيقاً ولم يكن في ذلك الموضع من يحمله، فوافى أيوب الحمال فحمله ودفع إليه أحمد أجرته، فلما دخل الدار بعد إذنه له اتفق أن أهل الدار قد خبزوا ما كان عندهم من الدقيق وتركوا الخبز على السرير ينشف، فرآه أيوب وكان يصوم الدهر، فقال أحمد لابنه صالح: ادفع إلى أيوب من الخبز، فدفع

له رغيفين، فردهما، قال احمد: ضعهما، ثم صبر قليلاً، ثم قال: خذهما فالحقه بهما، فلحقه فاخذهما، فرجع صالح متعجباً، فقال له أحمد: عجبت من رده واخذه؟ قال: نعم، قال: هذا رجل صالح، فرأى الخبز فاستشرفت نفسه إليه فلما اعطيناه مع الاستشراف رده، ثم أيس فرددناه إليه بعد الإياس فقبل.

هذا حال أرباب الصدق، إن سألوا سألوا بعلم، وإن امسكوا عن السؤال امسكوا بحال، وإن قبلوا قبلوا بعلم، فمن لم يزرق حال الفتوح فله حال السؤال والكسب بشرط العلم. فأما السائل مستكثرا فوق الحاجة لا في وقت الضرورة فليس من الصوفية بشيء.

سمع عمر رضى الله عنه سائلاً يسأل، فقال لمن عنده: الم اقل لك عش السائل؟ فقال: قد عشيته، فنظر عمر فإذا تحت إبطه مخلاة مملوءة خبزاً، فقال عمر: ألك عيال؟ فقال: لا، فقال عمر: لست بسائل ولكنك تاجر، ثم نثر مخلاته بين يدي أهل الصدقة وضربه بالدرة.

وروى عن على بن أبي طالب رضى الله عنه قال: إن الله تعالى فى خلقه مثوبات فقر، وعقوبات فقر، فمن علامة الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن خلقه، ويطيع ربه، ولا يشكو حاله، ويشكر الله تعالى على فقره.

ومن علامة الفقر إذا كان عقوبة أن يسوء خلقه، ويعصى ربه، ويكثر الشكاية، ويتسخط للقضاء.

فحال الصوفية حسن الأدب في السؤال، والفتوح والصدق مع الله على كل حال كيف تقلب.

الباب الحادي والعشرون
في شرح حال المتجرد والمتأهل من الصوفية وصحة مقاصدهم

الصوفي يتزوج لله كما يتجرد لله، فلتجرده مقصد وأوان، ولتأهله مقصد وأوان. والصادق يعلم أوان التجرد والتأهل، لان الطبع الجموح للصوفي ملجم بلجام العلم، فما يصلح له التجرد لا يستعجله الطبع إلى التزوج، ولا يقدم على التزوج إلا إذا انصلحت النفس واستحقت إدخال الرفق عليها، وذلك إذا صارت منقادة مطواعة مجيبة إلى ما راد منها، بمثابة الطفل الذي يتعاهد بما يروق له، ويمنع عما يضره، فإذا صارت النفس محكومة مطواعة فقد فاءت إلى أمر الله، وتنصلت عن مشاحة القلب، فيصلح بينهما بالعد، وينظر في أمرهما بالقسط.

ومن صبر من الصوفية على العزوبة هذا الصبر إلى حين بلوغ الكتاب أجله، ينتخب له الزوجة انتخاباً، ويهيئ الله له أعواناً وأسباباً، وينعم برفيق يدخل عليه، ورزق يساق إليه.

ومن استعجل المزيد، واستفزه الطبع، وخامره الجهل، بثوران دخان الشهوة المطفئة لشعاع العلم، وانحط من أوج العزيمة الذي هو قضية حاله وموجب إرادته، وشريطة صدق طلبه، إلى حضيض الرخصة التي هى رحمة من الله تعالى لعامة خلقه، يحكم عليه بالنقصان، ويشهد له بالخسران. ومثل هذا الاستعجال هو حضيض الرجال.

قال سهل بن عبد الله التسترى: إذا كان للمريد مال يتوقع به زيادة، فدخل عليه الابتلاء، فرجوعه في الابتلاء إلى حال دون ذلك نقصان وحدث.

وسمعت بعض الفقراء وقد قيل له: لم لا تتزوج؟ فقال: المرأة لا تصلح إلا للرجال، وأنا ما بلغت مبلغ الرجال فكيف أتزوج؟

فالصادقون لهم أوان بلوغ عنده يتزوجون.

وقد تعارضت الأخبار، وتماثلت الآثار في فضيلة التجريد والتزويج، وتنوع كلام رسول الله ﷺ في ذلك لتنوع الأحوال، فمنهم من فضيلته في التجريد، ومنهم من فضيلته في التاهل، وكل هذا التعارض في حق من نار توقانه برد وسلام لكمال تقواه، وقهره هواه.

وإلا ففي غير هذا الرجل الذي يخاف عليه الفتنة يجب النكاح في حال التوقان المفرط، ويكون الخلاف بين الأئمة في غير التائق.

فالصوفي إذا صار متاهلاً يتعين على الإخوان معاونته بالإيثار، ومسامحته في الاستكثار، إذا رؤى ضعيف الحال قاصراً عن رتبة الرجال كما وصفنا من صبر حتى ظفر لما بلغ الكتاب اجله.

أخبرنا أبو زرعة عن والده أبي الفضل المقدسي الحافظ قال: أنا أبو محمد عبد الله بن محمد الخطيب قال: أنا أبو الحسين محمد بن عبد الله بن اخي ميمي قال: أنا ابو القاسم عبيد الله بن محمد بن عبد العزيز قال: حدثنا محمد بن هارون قال: أنا أبو المغيرة قال: حدثنا صفوان بن عمرو قال: حدثنا عبد الرحمن بن جبير عن ابيه عن عوف بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ إذا جاءه فيء قسمه في يومه، فاعطى المتاهل حظين والعزب حظاً واحداً، فدعينا وكنت ادعى قبل عمار بن ياسر فاعطاني حظين واعطاه حظاً واحدا، فسخط حتى عرف ذلك رسول الله ﷺ في وجهه ومن حضره، فبقيت معه سلسلة من ذهب، فجعل رسول الله ﷺ يرفعها بطرف عصاه وتسقط وهو يقول: «كيف انتم يوم يكثر لكم من هذا؟» فلم يجبه أحد، فقال عمار: وددنا يا رسول الله لو قد اكثر لنا من هذا.

فالتجرد عن الأزواج والأولاد أعون على الوقت للفقير، واجمع لهمه، والذ لعيشه.

ويصلح للفقير في ابتداء أمره قطع العلائق، ومحو العوائق، والتنقل في الأسفار، وركوب الأخطار، والتجرد عن الأسباب، والخروج عن كل ما يكون حجاباً. والتزوج انحطاط من العزيمة إلى الرخص، ورجوع من التروح إلى النغص، وتقيد بالأولاد والأزواج، ودوران حول مظان الإعوجاج، والتفات إلى الدنيا بعد الزهادة، وانعطاف على الهوى بمقتضى الطبيعة والعادة.

قال أبو سليمان الداراني: ثلاث من طلبهن فقد ركن إلى الدنيا: من طلب معاشاً، أو تزوج امرأة، أو كتب الحديث.

وقال: ما رأيت أحداً من أصحابنا تزوج فثبت على مرتبته.

أخبرنا الشيخ طاهر قال: أنا والدى أبو الفضل قال: أنا محمد بن إسماعيل المقرى قال: أنا أحمد بن الحسن قال: أنا حاجب الطوسي قال: حدثنا عبد الرحيم قال: حدثنا الفزاري عن سليمان التيمي عن ابي عثمان النهدي عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء».

وروى رجاء بن حيوة عن معاذ بن جبل قال: "ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر، وإن أخوف ما أخاف عيكم فتنة النساء إذا تسورن بالذهب، ولبسن ربط الشام وعصب اليمن، وأتعبن الغنى، وكلفن الفقير ما لا يجد».

وقال بعض الحكماء: معالجة العزوبة خير من معالجة النساء.

وسئل سهل بن عبد الله عن النساء فقال: الصبر عنهن خير من الصبر عليهن، والصبر عليهن خير من الصبر على النار.

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾[1] لأنه لا يصبر على النساء.

وقيل في قوله تعالى: ﴿ ... رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ... ﴾[2] الغلمة، فإن قدر الفقير على مقاومة النفس، ورزق العلم الوافر بحسن المعاملة في معالجة النفس وصبر عنهن، فقد حاز الفضل، واستعمل العقل، واهتدى إلى الأمر السهل.

قال رسول الله ﷺ : «خيركم بعد المائتين رجل خفيف الحاذ، قيل يا رسول الله وما خفيف الحاذ؟ قال: الذي لا أهل له ولا ولد».

وقال بعض الفقراء لما قيل له تزوج: أنا إلى أن أطلق نفسي أحوج مني إلى التزوج.

وقيل لبشر بن الحارث: إن الناس يتكلمون فيك، فقال: ما يقولون؟ قيل: يقولون إنه تارك للسنة، يعنى النكاح، فقال: قولوا لهم أنا مشغول بالفرض عن السنة.

وكان يقول: لو كنت أعول دجاجة خفت أن أكون جلادا على الجسر.

والصوفي مبتلى بالنفس ومطالبتها، وهو في شغل شاغل عن نفسه، فإذا أضاف إلى مطالبات نفسه مطالبات زوجته يضعف طلبه، وتكل إرادته، وتفتر عزيمته.

والنفس إذا أطعمت طمعت، وإذا أقنعت قنعت، فيستعين الشاب الطالب على حسم مواد خاطر النكاح بإدامة الصوم، فإن للصوم أثرا ظاهرا في قمع النفس وقهرها.

---

(١) سورة النساء: الآية ٢٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

وقد ورد أن رسول الله ﷺ مر بجماعة من الشبان وهم يرفعون الحجارة، فقال: «يا معشر الشبان من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فليصم، فإن الصوم له وجاء» أصل الوجاء رض الخصيتين، كانت العرب تجأ الفحل من الغنم لتذهب فحولته ويسمن. ومنه الحديث «ضحى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين موجوءين».

وقد قيل: هي النفس إن لم تشغلها شغلتك.

فإذا أدام الشاب المريد العمل، وأذاب نفسه في العبادة، تقل عليه خواطر النفس.

وأيضاً شغله بالعبادة يثمر له حلاوة المعاملة، ومحبة الإكثار منه، ويفتح عليه باب السهولة والعيش في العمل، فيغار على حاله ووقته أن يتكدر بهم الزوجة.

ومن حسن أدب المريد في عزوبته أن لا يمكن خواطر النساء من باطنه، وكلما خطر له خاطر النساء والشهوة يفر إلى الله تعالى بحسن الإنابة، فيتداركه الله تعالى حينئذ بقوة العزيمة، ويؤيده بمراغمة النفس.

بل ينعكس على نفسه نور قلبه ثواباً لحسن إنابته، فتسكن النفس عن المطالبة، ثم تعرض على نفسه ما يدخل عليه بالنكاح من الدخول في المداخل المذمومة المؤدية إلى الذل والهوان، وأخذ الشيء من غير وجهه، وما يتوقع من القواطع بسبب التفات الخواطر إلى ضبط امرأة وحراستها والكلف التي لا تنحصر.

وقد سئل عبد الله بن عمر عن جهد البلاء فقال: كثرة العيال، وقلة المال.

وقد قيل: كثرة العيال أحد الفقرين، وقلة العيال أحد اليسارين.

وكان إبراهيم بن أدهم يقول: من تعود أفخاذ النساء لا يفلح.

ولا شك أن المرأة تدعو إلى الرفاهية والدعة، وتمنع عن كثرة الاشتغال بالله وقيام الليل وصيام النهار، ويتسلط عن الباطن خوف الفقر ومحبة الادخار وكل هذا بعيد عن المتجرد.

وقد ورد: إذا كان بعد المائتين أبيحت العزوبة لأمتي.

فإن توالت على الفقير خواطر النكاح، وزاحمت باطنه سيما في الصلاة والأذكار والتلاوة فليستعن بالله أولاً، ثم بالمشايخ والإخوان، ويشرح الحال لهم، ويسألهم مسألة الله له في حسن الاختيار، ويطوف على الأحياء والأموات والمساجد والمشاهد، ويستعظم الأمر، ولا يدخل فيه بقلة الإكتراث، فإنه باب فتنة كبيرة وخطر عظيم.

وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾[1] ويكثر الضراعة إلى الله تعالى، ويكثر البكاء بين يديه في الخلوات، ويكرر الاستخارة.

وإن رزق القوة والصبر حتى يستبين له من فضل الله الخيرة في ذلك فهو الكمال والتمام، فقد يكشف الله تعالى للصادق ذلك منعاً أو إطلاقاً في منامه أو يقظته أو على لسان من يثق إلى دينه وحاله أنه إذا أشار لا يشير إلا على بصيرة، وإذا حكم لا يحكم إلا بحق، فعند ذلك يكون تزوجه مدبراً معاناً فيه.

وسمعنا أن الشيخ عبد القادر الجيلي قال له بعض الصالحين: لم تزوجت؟ فقال: ما تزوجت حتى قال رسول الله ﷺ تزوج، فقال له ذلك الرجل: الرسول ﷺ يأمر بالرخص وطريق القوم التزم بالعزيمة، فلا أعلم ما

---

(١) سورة التغابن: الآية ١٤.

قال الشيخ في جوابه، ولكني أقول رسول الله ﷺ يأمره بالرخصة وأمره على لسان الشرع.

فأما من التجأ إلى الله تعالى وافتقر إليه استخاره فيكاشفه الله بتنبيهه إياه في منامه، وأمره هذا لا يكون أمر رخصة بل هو أمر يتبعه أرباب العزيمة، لأنه من علم الحال لا من علم الحكم.

ويدل على صحة ما وقع له ما نقل عنه أنه قال: كنت أريد الزوجة مدة من الزمان ولا اجترئ على التزوج خوفاً من تكدير الوقت، فلما صبرت إلى أن بلغ الكتاب أجله، ساق الله لي أربع زوجات ما فيهن إلا من تنفق عليّ إرادة ورغبة. فهذه ثمرة الصبر الجميل الكامل.

فإذا صبر الفقير وطلب الفرج من الله يأتيه الفرج والمخرج ﴿...وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾.[1]

فإذا تزوج الفقير بعد الاستقصاء والإكثار من الضراعة والدعاء، وورد عليه وارد من الله تعالى يأذن فيه، فهو الغاية والنهاية، وإن عجز عن الصبر إلى ما ورود الإذن، واستنفد جهده في الدعاء والضراعة فقد يكون ذلك حظه من الله تعالى، ويعان عليه لحسن نيته، وصدق مقصده، وحسن رجائه، واعتماده على ربه.

وقد نقل عن عبد الله بن عباس أنه قال: لا يتم نسك الشاب حتى يتزوج[2].

---

(١) سورة الطلاق: الآية ٢-٣.

(٢) وهذا يتعارض مع ما ذكر سابقاً حول العزوبة وهو يتفق مع قوله ﷺ: ((لا رهبانية في الإسلام)) وقوله صلوات اله وسلامه عليه: ((النكاح سنتى)) .. الحديث.

وعموماً ما قيل عن العزوبة هى آراء وتصرفات شخصية لبعض أهل الطريق، يطبقونها على أنفسهم حسب ما تطمئن إليه قلوبهم، وما يرونه أصلح لحالهم.

ونقل عن شيخ من مشايخ خراسان أنه كان يكثر التزوج حتى لم يكن يخلو عن زوجتين أو ثلاث، فعوتب في ذلك فقال هل يعرف أحد منكم أنه جلس بين يدى الله تعالى جلسة، أو وقف وقفه في معاملته، فخطر على قلبه خاطر شهوة؟

فقالوا: قد يصيبنا ذلك، فقال: لو رضيت في عمرى كله بمثل حالكم في وقت واحد ما تزوجت قط، ولكن ما خطر على قلبى خاطر شهوة قط شغلنى عن حالى إلا نفذته لاستريح منه وأرجع إلى شغلى. ثم قال: منذ أربعين سنة ما خطر على قلبى خاطر معصية.

فالصادقون ما دخلوا فى النكاح إلا على بصيرة، وقصدوا حسن مواد النفس.

وقد يكون للأقوياء والعلماء الراسخين في العلم أحوال في دخولهم في النكاح تختص بهم، وذلك أنهم بعد طول المجاهدات والمراقبات والرياضات تطمئن نفوسهم، وتقبل قلوبهم، وللقلوب إقبال وإدبار.

يقول بعضهم: إن للقلوب إقبالاً وإدباراً، فإذا أدبرت روحت بالإرفاق، وإذا أقبلت ردت إلى الميثاق، فتبقى قلوبهم دائمة الإقبال إلا اليسير، ولا يدوم إقبالها إلا لطمأنينة النفوس، وكفها عن المنازعة، وترك التشبث في القلوب.

فإذا اطمأنت النفوس واستقرت من طيشها ونفورها وشراستها، توفرت عليها حقوقها، وربما يصير من حقوقها حظوظها، لأن في أداء الحق إقناعاً، وفي أخذ الحظ اتساعاً، وهذا من دقيق علم الصوفية، فإنهم يتسعون بالنكاح المباح إيصالاً إلى النفس حظوظها، لأنها ما زالت تخالف هواها حتى صار داؤها دواءها، وصارت الشهوات المباحة واللذات المشروعة لا تضرها ولا تفتر عليها عزائمها.

بل كلما وصلت النفوس الزكية إلى حظوظها ازداد القلب انشراحاً وانفساحاً، ويصير بين القلب والنفس موافقة يعطف أحدهما على الآخر، ويزداد كل واحد منهما بما يدخل على الآخر من الحظ، كلما أخذ القلب حظه من الله خلع على النفس خلع الطمأنينة، فيكون مزيد السكينة للقلب مزيد للطمأنينة للنفس، وينشد:

إن السماء إذا اكتست كست الثرى حللاً يدبجها الغمام الراهم

وكلما أخذت النفس حظها تروح القلب تروح الجار المشفق براحة الجار.

سمعت بعض الفقراء يقول: النفس تقول للقلب: كن معى في الطعام أكن معك في الصلاة. وهذا من الأحوال العزيزة لا تصلح إلا لعالم رباني.

وكم من مدع يهلك بتوهمه هذا في نفسه. ومثل هذا العبد يزداد بالنكاح ولا ينقص. والعبد إذا كمل علمه يأخذ من الأشياء ولا تأخذ الأشياء منه.

وقد كان الجنيد يقول: أنا أحتاج إلى الزوجة كما أحتاج إلى الطعام.

وسمع بعض العلماء بعض الناس يطعن في الصوفية، فقال: يا هذا ما الذى ينقصهم عندك؟ فقال: يأكلون كثيرا، فقال: وأنت أيضاً لو جعت كما يجوعون أكلت كما يأكلون. ثم قال: ويتزوجون كثيرا، قال: وأنت أيضاً لو حفظت فرجك كما يحفظون تزوجت كما يتزوجون. قال: وأي شيء أيضاً؟ قال: يسمعون القول، قال: وأنت أيضاً لو نظرت كما ينظرون سمعت كما يسمعون.

وكان سفيان بن عيينه يقول: كثرة النساء ليست من الدنيا، لأن علياً رضى الله عنه كان أزهد أصحاب رسول الله ﷺ وكان له أربع نسوة

وسبع عشرة سرية. وكان ابن عباس رضى الله عنـه يقـول: خـير هـذه الأمـة أكثرها نساء.

وقـد ذكـر في أخبـار الأنبيـاء أن عـابدا تبتـل للعبـادة حتـى فـاق أهـل زمانه، فذكر ذلك لنبي ذلك الزمان، فقال: نعم الجر لولا أنه تارك لشيء من السـنة، فنمـى ذلـك إلى العـابد، فأهمـه فقـال: مـا تنفعنـى عبـادتى وأنـا تـارك السنة؟ فجاء إلى النبى عليه السلام فسأله فقال: نعم إنك تارك التزوج.

فقال: ما تركته لأنى أحرمه، وما منعنى منـه إلا أنـى فقـير لا شـيء لى وأنا عيال على الناس، يطعمنى هذا مرة وهذا مرة، فـأكره أن أتـزوج بـامرأة أعضلها أو أرهقها جهدا[1]، فقال لـه النـبي ﷺ: ومـا يمنعـك إلا هـذا؟ قـال: نعـم، فقال: أنا أزوجك ابنتى، فزوجه النبي عليه السلام ابنته.

وكان عبد الله بن مسعود يقول: لو لم يبـق مـن عمـرى إلا عشـرة أيـام أحببت أن أتزوج ولا ألقى الله عزباً.

وما ذكر الله تعالى في القرآن من الأنبياء إلا المتأهلين.

وقيل: إن يحيى بن زكريا عليهما السلام تزوج لأجـل السـنة ولم يكـن يقربها[2].

وقيل: إن عيسى عليه السلام سينكح إذا نزل إلى الأرض ويولد له.

وقيل: إن ركعة من متأهل خير من سبعين ركعة من عزب.

أخبرنـا الشـيخ الطاهر بـن أبـي الفضـل قـال أنـا أبـو منصـور محمـد بـن الحسين بن أحمد بن الهيثم المقومى القزوينى قـال أنـا أبـو طلحـة القاسـم بـن

---

(١) وهكذا يؤكد ما ذهبنا إليه في الهامش السابق من أن بعض أهل التصوف ترك الـزواج لأسباب شخصية يراها في نفسه، وأن العزوبة هي أصلح لحاله. والزواج عموماً قد يكون فرضاً أو واجبـاً أو حراماً أو مندوبـاً أو مكروهاً حسب حالـة كـل مكلف: راجع في ذلك كتـاب (دور المـرأة في المجتمع الإسلامى) تاليف المستشار توفيق على وهبه، ط٥، ص ١٥٦/١٥٨، الرياض، ١٤٠٦/١٩٨٣.

(٢) لا دليل على ذلك من كتاب أو سنة. ولأنه إذا فعـل ذلـك يكـون قـد ظلـم مـن تزوجـها ظلمـاً بيناً.

ابي البدر الخطيب قال حدثنا أبو الحسن على بن إبراهيم بن سلمة القطان قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه قال حدثنا احمد بن الأزهر قال حدثنا آدم قال حدثنا عيسى بن ميمون عن القاسم عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «النكاح سنتى، فمن لم يعمل بسنتى فليس منى، فتزوجوا فإنى مكاثر بكم الأمم، ومن كان ذا طول فلينكح، ومن لم يجد فعليه بالصيام فإن الصوم له وجاء».

ومما ينبغى للمتاهل أن يحذر من الإفراط في المخالطة والمعاشرة مع الزوجة إلى حد ينقطع عن أوراده وسياسة أوقاته، فإن الإفراط في ذلك يقوى النفس وجنودها، ويفتر ناهض الهمة.

وللمتاهل بسبب الزوجة فتنتان: فتنة لعموم حاله، وفتنة لخصوص حاله. ففتنة عموم حاله الإفراط في الاهتمام بأسباب المعيشة.

كان الحسن يقول: والله ما أصبح اليوم رجل يطيع امرأته فيما تهوى إلا أكبه الله على وجهه في النار.

وفي الخبر: «يأتى على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولده، يعيرونه بالفقر، ويكلفونه ما لا يطيق، فيدخل في المداخل التي يذهب فيها دينه فيهلك».

وروى أن قوماً دخلوا على يونس عليه السلام فأضافهم، وكان يدخل ويخرج إلى منزله فتؤذيه امرأته وتستطيل عليه وهو ساكت، فعجبوا من ذلك وهابوه أن يسألوه، فقال: لا تعجبوا من هذا فإنى سألت الله فقلت يا رب ما كنت معاقبى به في الآخرة فعجله لي فى الدنيا، فقال: إن عقوبتك بنت فلان تزوج بها، فتزوجت بها وأنا صابر على ما ترون.

فإذا أفرط الفقير في المداراة ربما تعدى حد الاعتدال في وجوه المعيشة متطلباً رضا الزوجة، فهذا فتنة عموم حاله، وفتنة خصوص حاله الإفراط

في المجالسة والمخالطة، فتنطلق النفس عن قيد الاعتدال، وتسترق الغرض بطول الاسترسال، فيستولى على القلب بسبب ذلك السهو والغلفة، ويستجلس مقار المهلة، فيقل الوارد لقلة الأوراد، ويتكدر الحال لإهمال شروط الأعمال.

والطف من هذين الفتنتين فتنة اخرى تختص بأهل القرب والحضُور، وذلك أن للنفوس امتزاجاً وبرابطة الامتزاج تعتضد وتشتد وتتطرى طبيعتها الجامدة، وتلتهب نارها الخامدة. فدواء هذه الفتنة أن يكون للمتأهل عند المجالسة عينان باطنان ينظر بهما إلى مولاه، وعينان ظاهران يستعملهما في طريق هواه. وقد قالت رابعة فى معنى هذا نظماً:

إنـي جعلتـك في الفـؤاد محدثـي ... وأبحـت جسـمي مـن أراد جلوسـي
فالجسـم منـي للجليـس مؤانـس ... وحبيـب قلبـي في الفـؤاد أنيسـي

والطف من هذا فتنة أخرى يخشاها المتأهل، وهو أن يصير للروح استرواح إلى لطف الجمال، ويكون ذلك الاسترواح موقوفاً على الروح، ويصير ذلك وليجة في حب الروح المخصوص بالتعلق بالحضرة الإلهية، فتتبلد الروح، وينسد باب المزيد من الفتوح، وهذه البلادة في الروح يعز الشعور بها فلتحذر.

ومن هذا القبيل دخلت الفتنة على طائفة قالوا بالمشاهدة. وإذا كان في باب الحلال وليجة في الحب يتولد منها بلادة الروح في القيام بوظائف حب الحضرة الإلهية، فما ظنك فيمن يدعى ذلك في باب غير مشروع، يغره سكون النفس. فيظن أنه لو كان من قبيل الهوى ما سكنت النفس، والنفس لا تسكن في ذلك دائماً بل تسلب من الروح ذلك الوصف وتأخذه إليها.

على أني استبحثت عما يبتلى المفتونون بالمشاهدة، فوجدت المحمى من ذلك من صورة الفسق عنده رغوة شراب الشهوة، إذ لو ذهبت علة الشراب ما

بقيت الرغوة. فليحذر ذلك جداً، ولا يسمع ممن يدعى فيه حالاً وصحة فإنه كذاب مدع.

ولهذا المعنى قال الأطباء: الجماع يسكن هيجان العشق، وإن كان من غير المعشوق فليعلم أن مستنده الشهوة. ويكذب من يدعى فيه حالاً. وهذه فتن المتأهل.

وفتنة العزب مرور النساء بخاطره، وتصورهن في متخيله، ومن أعطى الطهارة في باطنه لا يدنس باطنه بخواطر الشهوة، وإذا سنح الخاطر يمحوه بحسن الإنابة واللياذ بالهرب. ومتى سامر الفكر كثف الخاطر وخرج من القلب إلى الصدر، وعند ذلك يحذر إحساس العضو بالخاطر، فيصير ذلك عملاً خفياً. وما أقبح مثل هذا بالصادق المتطلع إلى الحضور واليقظة، فيكون ذلك فاحشة الحال. وقد قيل: مرور الفاحشة بقلب العارفين كفعل الفاعلين.

والله أعلم.

الباب الثاني والعشرون
في القول في السماع قبولاً وإيثاراً

قال الله تعالى: ﴿... فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.(١)

قيل: أحسنه أي أهداه وأرشده.

وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ...﴾(٢) هذا السماع هو السماع الحق الذي لا يختلف فيه اثنان من أهل الإيمان، محكوم لصاحبه بالهداية واللب، وهذا سماع ترد حرارته على برد اليقين فتفيض العين بالدمع، لأنه تارة يثير حزناً والحزن حار، وتارة يثير شوقاً والشوق حار، وتارة يثير ندماً والندم حار، فإذا أثار السماع هذه الصفات من صاحب قلب مملوء ببرد اليقين أبكى وأدمع، لأن الحرارة والبرودة إذا اصطدما عصرا ماء، فإذا ألم السماع بالقلب تارة يخف إلمامه، فيظهر أثره في الجسد، ويقشعر منه الجلد.

قال الله تعالى: ﴿...تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ...﴾(٣) وتارة يعظم وقعه ويتصوب أثره إلى فوق نحو الدماغ، كالمخبر للعقل، فيعظم وقع المتجدد الحادث، فتتدفق منه العين بالدمع، وتارة يتصوب أثره إلى الروح فتموج منه الروح موجاً يكاد يضيق عنه نطاق القلب، فيكون من ذلك الصياح والاضطراب، وهذه كلها أحوال يجدها أربابها من أصحاب الحال، وقد يحكيها بدلائل هوى النفس أرباب المحال.

---

(١) سورة الزمر: الآية ١٧ - ١٨ .
(٢) سورة المائدة: الآية ٨٣.
(٣) سورة الزمر: الآية ٢٣.

روى أن عمر رضى الله عنه كان ربما مر بآية في ورده فتخنقه العبرة ويسقط ويلزم البيت اليوم واليومين حتى يعاد ويحسب مريضاً.

فالسماع يستجلب الرحمة من الله الكريم.

روى زيد بن أسلم قال: قرأ أبي بن كعب عند رسول الله ﷺ فرقوا، فقال رسول الله ﷺ: «اغتنموا الدعاء عند الرقة فإنها رحمة من الله تعالى».

وروت أم كلثوم قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا اقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت عنه الذنوب كما تحات عن الشجرة اليابسة ورقها».

وورد أيضاً «إذا اقشعر الجلد من خشية الله حرمه الله تعالى على النار».

وهذه جملة لا تنكر ولا اختلاف فيها، إنما الاختلاف في استماع الأشعار بالألحان، وقد كثرت الأقوال في ذلك وتباينت الأحوال، فمن منكر يلحقه بالفسق، ومن مولع به يشهد بأنه واضح الحق، ويتجاذبان في طرفي الإفراط والتفريط.

قيل لأبي الحسن بن سالم: كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد وسرى السقطى وذو النون يسمعون؟ فقال: كيف أنكر السماع وقدَ اجازه وسمعه من هو خير مني، فقد كان جعفر الطيار يسمع، وإنما المنكر اللهو واللعب في السماع، وهذا قول صحيح.

اخبرنا الشيخ طاهر بن أبي الفضل عن أبيه الحافظ المقدسى قال أنا أبو القاسم الحسين بن محمد بن الحسن الخوافي قال: أنا أبو محمد عبد الله بن يوسف قال حدنا أبو بكر بن وثاب قال حدثنا عمرو بن الحارث قال حدثنا الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة رضى الله عنها ان أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان تغنيان وتضربان بدفين، ورسول الله ﷺ مسجى بثوبه، فانتهرهما أبو بكر، فكشف رسول الله ﷺ عن وجهه، وقال: «دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد».

وقالت عائشة رضي الله عنها: رأيت رسول الله ﷺ يسترني بردائه وأنا انظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد حتى أكون أنا أسأم.

وقد ذكر الشيخ أبو طالب المكى رحمه الله ما يدل على تجويزه.

ونقل عن كثير من السلف صحابى وتابعى وغيرهم.

وقول الشيخ ابى طالب المكى يعتبر لوفور علمه، وكمال حاله، وعلمه بأحوال السلف، ومكان ورعه وتقواه، وتحريه الأصوب والأولى.

وقال: في السماع حرام وحلال وشبهة.

فمن سمعه بنفس مشاهدة شهوة وهوى فهو حرام، ومن سمعه بمعقوله على صفة مباح من جارية أو زوجة كان شبهة لدخول اللهو فيه، ومن سمعه بقلب يشاهد معاني تدله على الدليل، ويشهده طرقات الجليل فهو مباح.

وهذا قول الشيخ أبي طالب المكى وهو الصحيح، فإذا لا يطلق القول بمنعه وتحريمه والإنكار على من يسمع، كفعل القراء المتزهدين المبالغين في الإنكار، ولا يفسح فيه على الإطلاق، كفعل بعض المستهترين به المهملين شروطه وآدابه، المقيمين على الإصرار.

ونفصل الأمر فيه تفصيلاً، ونوضح الماهية فيه تحريماً وتحليلاً.

فأما الدف والشبابة وإن كان فيهما في مذهب الشافعي فسحة فالأولى تركهما والأخذ بالأحوط والخروج من الخلاف، وأما غير ذلك فإن كان من القصائد في ذكر الجنة والنار والتشويق إلى دار القرار، ووصف نعم الملك الجبار، وذكر العبادات والترغيب في الخيرات، فلا سبيل إلى الإنكار.

ومن ذلك القبيل قصائد الغزاة والحجاج في وصف الغزو والحج، مما يثير كامن العزم من الغازى وساكن الشوق من الحاج. وأما ما كان فيه ذكر القدود والخدود ووصف النساء فلا يليق بأهل الديانات الاجتماع لمثل ذلك.

وأما ما كان من ذكر الهجر والوصل والقطيعة والصد مما يقرب جملة على أمور الحق سبحانه وتعالى من تلون أحوال المريدين ودخول الآفات على الطالبين، فمن سمع ذلك وحدث عنده ندم على ما فات، أو تجدد عنده عزم لما هو آت فكيف ينكر سماعه.

وقد قيل إن بعض الواجدين يقتات بالسماع، ويتقوى به على الطى والوصال، ويثير عنده من الشوق ما يذهب عنه لهب الجوع، فإذا استمع العبد إلى بيت من الشعر وقلبه حاضر فيه، كأن يسمع الحادى يقول مثلاً:

أنوب إليك يا رحمن إنى ... أسأت وقد تضاعفت الذنوب
فأما من هوى ليلى وحبى ... زيارتها فإنى لا أتوب

فطاب قلبه لما يجده من قوة عزمه على الثبات في أمر الحق إلى الممات، يكون في سماعه هذا ذكر الله تعالى.

قال بعض أصحابنا: كنا نعرف مواجيد أصحابنا في ثلاثة أشياء: عند المسائل، وعند الغضب، وعند السماع.

وقال الجنيد: تنزل الرحمة على هذه الطائفة في ثلاثة مواضع: عند الأكل لأنهم يأكلون عن فاقة، وعند المذاكرة لأنهم يتحاورون في مقامات الصديقين، وأحوال النبيين، وعند السماع لأنهم يسمعون بوجد ويشهدون حقاً.

وسئل رويم عن وجد الصوفية عند السماع فقال: يتنبهون للمعاني التى تعزب عن غيرهم، فيشير إليهم فيتنعمون بذلك من الفرح، ويقع

الحجاب للوقت، فيعود ذلك الفرح بكاء، فمنهم من يمـزق ثيابـه، ومنـهم مـن يبكى ومنهم من يصيح.

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن ابن خلف إجازة عن السـلمى قـال سمعـت أبـا سهل محمد بن سـليمان يقـول: المستمع بـين اسـتتار وتجـل، فالاسـتتار يـورث التلهب، والتجلى يورث المزيد، فالاستتار يتولد منـه حركـات المريديـن، وهـو محـل الضعـف والعجـز، والتجلى يتولـد منـه السكون للواصلـين، وهـو محـل الاستقامة والتمكين، وكذلك محل الحضرة ليس فيه إلا الذبول تحت موارد الهيبـة.

قـال الشيخ أبـو عبـد الرحمـن السلمى: سمعـت جـدى يقـول: المسـتمع ينبغى أن يستمع بقلب حى ونفس ميتة، ومن كان قلبه ميتـا ونفسـه حيـا لا يحل له السماع.

وقيل في قوله تعالى: ﴿...يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ...﴾ (١) الصوت الحسن.

وقال عليه السلام: «لله أشـد أذنـا بـالرجل الحسـن الصـوت بـالقرى، مـن صاحب قينة إلى قينته».

نقل عن الجنيد قـال: رأيـت إبليـس في النـوم فقلـت لـه: هـل تظفـر مـن أصحابنا بشيء أو تنال منهم شيئا؟ فقال: إنه يعسر على شأنهم ويعظم على أن أصيب منهم شيئا إلا في وقتين، قلت: أي وقـت؟ قـال: وقـت السـماع، وعنـد النظر، فإني استرق منهم فيه وأدخل عليهم به.

قال: فحكيت رؤياى لبعض المشايخ فقالوا: لـو رأيتـه. قلت لـه: يـا أحمـق مـن سمـع منـه إذا سمـع، ونظـر إليـه إذا نظـر، أتربـح أن عليـه شـيئا أو تظفـر بشيء منه. فقلت: صدقت.

---

(١) سورة فاطر: الآية ١.

وروت عائشة رضى الله عنها قالت كانت عندى جارية تسمعنى، فدخل رسول الله ﷺ وهى على حالها، ثم دخل عمر ففرت، فضحك رسول الله ﷺ، فقال عمر: ما يضحكك يا رسول الله؟ فحدثته حديث الجارية، فقال: لا ابرح حتى أسمع ما سمع رسول الله، فأمرها رسول الله ﷺ فأسمعته.

وذكر الشيخ أبو طالب المكى قال: كان لعطاء جاريتان تلحنان، وكان إخوانه يجتمعون إليهما، وقال: أدركنا أبا مروان القاضى وله جوار يسمعن التلحين أعدهن للصوفية.

وهذا القول نقلته من قول الشيخ أبى طالب، فقال: وعندى اجتناب ذلك هو الصواب، وهو لا يعلم إلا بشرط طهارة القلب، وغض البصر، والوفاء بشرط قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾[1]، وما هذا القول من الشيخ أبي طالب المكى إلا مستغرب عجيب، والتنزه عن مثل ذلك هو الصحيح.

وفي الحديث في مدح داود عليه السلام إنه كان حسن الصوت بالنياحة على نفسه، وبتلاوة الزبور، حتى كان يجتمع الإنس والجن والطير لسماع صوته، وكان يحمل من مجلسه آلاف من الخنازير.

وقال عليه السلام في مدح أبي موسى الأشعرى: «لقد اعطى مزماراً من مزامير آل داود».

وروى عنه عليه السلام أنه قال: «إن من الشعر لحكمه».

ودخل رجل على رسول الله ﷺ وعنده قوم يقرءون القرآن وقوم ينشدون الشعر، فقال: يا رسول الله قرآن وشعر؟ فقال: «من هذا مرة ومن هذا مرة».

وأنشد النابغة عند رسول الله ﷺ أبياته التى فيها:

---

(١) سورة غافر، الآية ١٩.

ولا خير في حلم إذا لم يكن له بوادر تحمي صفوة أن يكدرا
ولا خير في امرئ إذا لم يكن له حكيم إذا ما أورد الأمر اصدرا

فقال له رسول الله ﷺ: «أحسنت يا أبا ليلى لا يفضض الله فاك» فعاش أكثر من مائة سنة وكان أحسن الناس ثغراً.

وكان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبراً في المسجد فيقوم على المنبر قائماً يهجو الذين كانوا يهجون رسول الله ﷺ، ويقول النبي ﷺ: إن روح القدس مع حسان ما دام ينافح عن رسول الله ﷺ.

ورأى بعض الصالحين أبا العباس الخضر قال: فقلت له ما تقول في السماع الذي يختلف فيه أصحابنا؟ فقال: هو الصفا الزلال لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء.

ونقل عن ممشاد الدينوري قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام فقلت يا رسول الله هل تنكر من هذا السماع شيئاً؟ فقال: ما أنكره ولكن قل لهم يفتتحون قبله بقراءة القرآن ويختمون بعده بالقرآن.

فقلت: يا رسول الله إنهم يؤذوني وينبسطون، فقال: احتملهم يا أبا على هم أصحابك. فكان ممشاد يفتخر ويقول: كناني رسول الله ﷺ.

وأما وجه الإنكار فيه فهو أن يرى جماعة من المريدين دخلوا في مبادئ الإرادة ونفوسهم ما تمرنت على صدق المجاهدة حتى يحدث عندهم علم بظهور صفات النفس وأحوال القلب، حتى تنضبط حركاتهم بقانون العلم، ويعملون ما لهم وعليهم مشتغلين به.

حكى أن ذا النون لما دخل بغداد دخل عليه جماعة ومعهم قوال، فاستأذنوه أن يقول شيئاً، فأذن له، فأنشد:

القــوال صغــير هــواك عذبـــني	فكيــف بــه إذا احتنكــا
وأنــت جمعـت مــن قلبـي	هـوى قـد كـان مشـتركا
أمـا ترثـي لكتئـب	إذا ضحـك الخلـي بكـي

فطاب قلبه وقام وتواجد وسقط على جبهته والدم يقطر من جبهته ولا يقع على الأرض، ثم قام واحد منهم فنظر إليه ذو النون فقال: اتق الذى يراك حين تقوم، فجلس الرجل وكان جلوسه لموضع صدقه وعلمه أنه غير كامل الحال غير صالح للقيام متواجداً.

فيقوم أحدهم من غير تدبر وعلم في قيامه، وذلك إذا سمع إيقاعاً موزوناً بسمع يؤدى ما سمعه إلى طبع موزون، فيتحرك بالطبع الموزون للصوت الموزون والإيقاع الموزون، وينسبل حجاب نفسه المنبسط بانبساط الطبع على وجه القلب، ويستفزه النشاط المنبعث من الطبع، فيقوم يرقص موزوناً بتصنع، وهو محرم عند أهل الحق، ويحسب ذلك طيبة للقلب، وما رأى وجه القلب وطيبته بالله تعالى.

ولعمرى هو طيبة القلب ولكن قلب ملون بلون النفس، ميال إلى الهوى، موافق للردى، لا يهتدى إلى حسن النية في الحركات، ولا يعرف شروط صحة الإرادات، ولمثل هذا الراقص قيل:

الرقص نقص، لأنه رقص مصدره الطبع، غير مقترن بنية صالحة لا سيما إذا انضاف إلى ذلك شوب حركاته بصريح النفاق بالتودد والتقرب إلى بعض الحاضرين من غير نية، بل دلالة نشاط النفس من المعانقة وتقبيل اليد والقدم، وغير ذلك من الحركات التى لا يعتمدها من المتصوفة إلا من ليس له من التصوف إلا مجرد زى وصورة.

أو يكون القوال أمرد تنجذب النفوس إلى النظر إليه، وتستلذ ذلك وتضمر خواطر السوء، أو يكون للنساء إشراف على الجمع، وتتراسل البواطن

المملوءة من الهوى بسفارة الحركات والرقص وإظهار التواجد، فيكون ذلك عين الفسق المجمع على تحريمه.

فأهل المواخير حينئذ أرجى حالاً ممن يكون هذا ضميره وحركاته، لأنهم يرون فسقهم، وهذا لا يراه ويريه عباده لمن لا يعلم ذلك.

افترى أحداً من أهل الديانات يرضى بهذا ولا ينكره؟

فمن هذا الوجه توجه للمنكر الإنكار، وكان حقيقاً بالاعتذار، فكم من حركات موجبة للمقت، وكم من نهضات تذهب رونق الوقت، فيكون إنكار المنكر على المريد الطالب يمنعه عن مثل هذه الحركات، ويحذره من مثل هذه المجالس وهذا إنكار صحيح.

وقد يرقص بعض الصادقين بإيقاع ووزن من غير إظهار وجد وحال، ووجه نيته في ذلك إنه ربما يوافق بعض الفقراء في الحركة، فيتحرك بحركة موزونة غير مدع بها حالاً ووجداً، يجعل حركته في طرف ا لباطل لأنها وإن لم تكن محرمة في حكم الشرع ولكنها غير محللة بحكم الحال لما فيها من اللهو، فتصير حركاته ورقصه من قبيل المباحات التي تجرى عليه من الضحك والمداعبة، وملاعبة الأهل والولد.

ويدخل ذلك في باب الترويح للقلب، وربما صار ذلك عبادة بحسن النية إذا نوى به استجمام النفس، كما نقل عن أبي الدرداء أنه قال: إنى لأستجم نفسي بشيء من الباطل ليكون ذلك عوناً لى على الحق.

ولموضع الترويح كرهت الصلاة في أوقات، ليستريح عمال الله، وترتفق النفوس ببعض مآربها من ترك العمل، وتستطيب أوطان المهمل.

والآدمي تركيبه المختلف، وترتيب خلقه المتنوع بتنوع أصول خلقته - وقد سبق شرحه في غير هذا الباب - لا تفي قواه بالصبر على الحق الصرف، فيكون التفسح في أمثال ما ذكرناه من المباح الذي ينزع إلى لهو ما باطلاً

يستعان به على الحق، فإن المباح وإن لم يكن باطلاً في حقيقة الشرع، لأن حد المباح ما استوى طرفاه واعتدل جانباه، ولكنه باطل بالنسبة إلى الأحوال.

ورأيت في بعض كلام سهل بن عبد الله يقول في وصفه للصادق: الصادق يكون جهله مزيداً لعلمه، وباطلة مزيداً لحقه، ودنياه مزيداً لآخرته، ولهذا المعنى حبب إلى رسول الله ﷺ النساء، ليكون ذلك حظ نفسه الشريفة، الموهوب لها حظوظها، الموفر عليها حقوقها، لموضع طهارتها وقدسها، فيكون ما هو نصيب الباطل الصرف في حق الغير من المباحات المقبولة برخصة الشرع، المردودة بعزيمة الحال في حقه ﷺ متسماً بسمة العبادات.

وقد ورد في فضيلة النكاح ما يدل على أنه عبادة، وذلك من طريق القياس لاشتماله على المصالح الدينية والدنيوية، على ما أطنب في شرحه الفقهاء في مسألة التخلي لنوافل العبادات.

فإذا يخرج هذا الراقص بهذه النية، المتبرئ من دعوى الحال في ذلك من زمن إنكار المنكر، فيكون رقصه لا عليه ولا له، وربما كان بحسن النية في الترويح يصير عبادة، سيما إن أضمر في نفسه فرحاً بربه، ونظر إلى شمول رحمته وعطفه، ولكن لا يليق الرقص بالشيوخ ومن يقتدى به، لما فيه من مشابهة اللهو، واللهو لا يليق بمنصبهم، ويباين حال المتمكن مثل ذلك.

وأما وجه منع الإنكار في ا لسماع، فهو أن المنكر للسماع على الإطلاق من غير تفصيل لا يخلو من أحد أمور ثلاثة: إما جاهل بالسنن والآثار، وإما مغتر بما أتيح له من أعمال الأخيار، وإما جامد الطبع لا ذوق له فيصر على الإنكار. وكل واحد من هؤلاء الثلاثة يقابل بما سوف يقبل.

أما الجاهل بالسنن والآثار فيعرف بما أسلفناه من حديث عائشة رضى الله عنها، وبالأخبار والآثار الواردة في ذلك، وفي حركة بعض المتحركين

تعرف رخصة رسول الله ﷺ للحبشة في الرقص، ونظر عائشة رضى الله عنها إليهم مع رسول الله ﷺ، هذا إذا سلمت الحركة من المكاره التى ذكرناها.

وقد روى أن رسول الله ﷺ قال لعلى رضى الله عنه: «أنت منى وأنا منك» فخجل. وقال لجعفر: «اشبهت خلقى وخلقى» فخجل. وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا» فخجل. وكان خجل جعفر في قصة ابنة حمزة لما اختصم فيها على وجعفر وزيد.

وأما المنكر المغرور بما أتيح له من أعمال الأخيار فيقال: تقربك إلى الله بالعبادة لشغل جوارحك بها، ولولا نية قلبك ما كان لعمل جوارحك قدر، فإنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى، والنية لنظرك إلى ربك خوفاً أو رجاء.

فالسامع من الشعر بيتاً يأخذ منه معنى يذكره ربه، إما فرحاً أو حزناً أو انكسارا أو افتقارا، كيف يقلب قلبه في أنواع ذلك ذاكرا لربه. ولو سمع صوت طائر طاب له ذلك الصوت، وتفكر في قدرة الله تعالى وتسويته حنجرة الطائر، وتسخيره حلقه، ومنشأ الصوت، وتأديته إلى الأسماع، كان في جميع ذلك الفكر مسبحاً مقدساً. فإذا سمع صوت آدمى وحضره مثل ذلك الفكر وامتلأ باطنه ذكرا وفكرا كيف ينكر ذلك.

حكى بعض الصالحين قال: كنت معتكفاً في جامع جده على البحر. فرأيت يوماً طائفة يقولون في جانب منه شيئاً فأنكرت ذلك بقلبى وقلت فى بيت من بيوت الله تعالى يقولون الشعر، فرأيت رسول الله ﷺ في المنام تلك الليلة وهو جالس في تلك الناحية وإلى جنبه أبو بكر، وإذا أبو بكر يقول شيئاً من القول والنبي ﷺ يستمع إليه ويضع يده على صدره كالواجد بذلك، فقلت في نفسى: ما كان ينبغي لى أن أنكر على أولئك الذين كانوا يسمعون، وهذا رسول الله ﷺ يسمع وأبو بكر إلى جنبه يقول، فالتفت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول هذا حق بحق، أو حق من حق.

بل إذا كان ذلك الصوت من أمرد يخشى بالنظر إليه الفتنة، أو من امرأة غير محرم، وإن وجد من الأذكار والأفكار ما ذكرنا، يحرم سماعه لخوف الفتنه لا لمجرد الصوت، ولكن يجعل سماع الصوت حريم الفتنة، ولكل حرام حريم ينسحب عليه حكم المنع لوجه المصلحة، كالقبلة للشاب الصائم، حيث جعلت حريم حرام الوقاع، وكالخلوة بالأجنبية وغير ذلك. فعلى هذا قد تقتضى المصلحة المنع من السماع إذا علم حال السامع وما يؤديه إليه سماعه، فيجعل المنع حريم الحرام وهكذا.

وقد ينكر السماع جامد الطبع، عديم الذوق، فيقال له: العنين لا يعلم لذة الوقاع، والمكفوف ليس له بالجمال البارع استمتاع، وغير المصاب لا يتكلم بالاسترجاع، فماذا ينكر من محب تربى باطنه بالشوق والمحبة، ويرى انحباس روحه الطيارة في مضيق قفص النفس الأمارة، يمر بروحه نسيم انس الأوطان، وتلوح له طوالع جنود العرفان، وهو بوجود النفس في دار الغربة يتجرع كأس الهجران، يئن تحت أعباء المجاهدة، ولا تحمل عنه سوانح المشاهدة، وكلما قطع منازل النفس بكثرة الأعمال، لا يقرب من كعبة الوصال، ولا يكشف له المسبل من الحجاب، فيتروح بنفس الصعداء، ويرتاح باللائح من شدة البرحاء، ويقول مخاطباً للنفس والشيطان وهما المانعان:

أيا جبلي نعمان بالله خليا	نسيم الصبا يخلص إلى نسيمها
فإن الصبا ريح إذا ما تنسمت	على قلب محزون تجلت همومها
اجد بردها او تشف منى حرارة	على كبد لم يبق إلا صميمها
الا إن أدوائى بليلى قديمة	واقتل داء العاشقين قديمها

ولعل المنكر يقول: هل المحبة إلا امتثال الأمر وهل يعرف غير هذا، وهل هناك إلى الخوف من الله، وينكر المحبة الخاصة التى تختص بالعلماء الراسخين والأبدال المقربين، ولما تقرر فى فهمه القاصر أن المحبة تستدعى

مثالا وخيالا واجناسا واشكالا، انكر محبة القوم، ولم يعلم أن القوم بلغوا فى رتب الإيمان إلى أتم من المحسوس، وجادوا من فرط الكشف والعيان بالأرواح والنفوس.

روى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه ذكر غلاما كان فى بنى إسرائيل على جبل، فقال لأمه: من خلق السماء؟ قالت: الله، قال: من خلق الأرض؟ قالت: الله، قال: من خلق الجبال؟ قالت: الله، قال: من خلق الغيم؟ قالت: الله، فقال: إنى أسمع لله شأنا، ورمى بنفسه من الجبل فتقطع.

فالجمال الأزلى الإلهى منكشف للأرواح غير مكيف للعقل ولا مفسر للفهم، لأن العقل موكل بعالم الشهادة لا يهتدى من الله سبحانه إلا إلى مجرد الوجود، ولا يتطرق إلى حريم الشهود المتجلى فى طى الغيب المنكشف للأرواح بلا ريب. وهذه الرتبة من مطالعة الجمال رتبة خاصة، وأعم منها رتبة المحبة الخاصة دون العامة من مطالعة جمال الكمال من الكبرياء والجلال، والاستقلال بالمنح والنوال.

والصفات المنقسمة إلى ما ظهر منها فى الآباد ولازم الذات فى الآزال، فللكمال جمال لا يدرك بالحواس، ولا يستنبط بالقياس، وفى مطالعة ذلك الجمال أخذ طائفة من المحبين خصوا بتجلى الصفات، ولهم بحسب ذلك ذوق وشوق ووجد وسماع، والأولون منحوا قسطا من تجلى الذات، فكان وجدهم على قدر الوجود، وسماعهم على حد الشهود.

وحكى بعض المشايخ قال: رأينا جماعة ممن يمشى على الماء والهواء يسمعون السماع، ويجدون به، ويتولهون عنده[1].

وقال بعضهم: كنا على الساحل، فسمع بعض إخواننا فجعل يتقلب على الماء يمره ويجئ حتى رجع إلى مكانه.[2]

ونقل أن بعضهم كان يتقلب على النار عند السماع ولا يحس بها.[3]

(١، ٢، ٣) هذه كلها روايات مجهولة غير معروف راويها ولا من شاهدها وليس لها دليل نقلى أو عقلى يسندها.

ونقل أن بعض الصوفية ظهر منه وجد عند السماع، فأخذ شمعة فجعلها فى عينه. قال الناقل: قربت من عينه انظر فرأيت نارا أو نورا يخرج من عينه يرد نار الشمعة.

وحكى عن بعضهم أنه كان إذا وجد عند السماع ارتفع عن الأرض فى الهواء أذرعا يمر ويجئ فيه.

وقال الشيخ أبو طالب المكى رحمه الله فى كتابه: إن أنكرنا السماع مجملا مطلقا غير مقيد مفصل يكون إنكارا على سبعين صديقا، وإن كنا نعلم أن الإنكار أقرب إلى قلوب القراء والمتعبدين، إلا أنا لا نفعل ذلك، لأنا نعلم ما لا يعلمون، وسمعنا عن السلف من الأصحاب والتابعين ما لا يسمعون.

وهذا قول الشيخ عن علمه الوافر بالسنن والآثار، مع اجتهاده وتحريه الصواب، ولكن نبسط لأهل الإنكار لسان الاعتذار، ونوضح لهم الفرق بين سماع يؤثر وبين سماع ينكر.

وسمع الشبلى قائلا يقول:

أسائل عن سلمى فهل من مخبر　　　يكون له علم بها أين تَنزل

فزعق الشبلى وقال: لا والله ما فى الدارين عنه مخبر.

وقيل: الوجد سر صفات الباطن، كما أن الطاعة سر صفات الظاهر، وصفات الظاهر الحركة والسكون، وصفات الباطن الأحوال والأخلاق.

وقال أبو نصر السراج: أهل السماع على ثلاث طبقات: فقوم يرجعون فى سماعهم إلى مخاطبات الحق لهم فيما يسمعون، وقوم يرجعون فيما يسمعون إلى مخاطبات أحوالهم ومقامهم وأوقاتهم، فهم مرتبطون المجردون الذين قطعوا العلائق ولم تتلوث قلوبهم بمحبة الدنيا والجمع والمنع، فهم يسمعون لطيبة قلوبهم، ويليق بهم السماع، فهم أقرب الناس إلى السلامة،

واسلمهم من الفتنة، وكل قلب ملوث بحب الدنيا فسماعه سماع طبع وتكلف.

وسئل بعضهم عن التكلف فى السماع فقال: هو على ضربين: تكلف فى المستمع لطلب جاه أو منفعة دنيوية، وذلك تلبيس وخيانة، وتكلف فيه لطلب الحقيقة، كمن يطلب الوجد بالتواجد، وهو بمنزلة التباكى المندوب إليه.

وقول القائل إن هذه الهيئة من الاجتماع بدعة، يقال له: إنما البدعة المحذورة الممنوع منها بدعة تزاحم سنة مأمورا بها، وما لم يكن هكذا فلا باس به، وهذا كالقيام للداخل لم يكن، فكان فى عادة العرب ترك ذلك حتى نقل أن رسول الله ﷺ كان يدخل ولا يقام له[1].

وفى البلاد التى فيها هذا القيام لهم عادة إذا اعتمد ذلك لتطييب القلوب والمداراة لا باس به، لأن تركه يوحش القلوب ويوغر الصدور، فيكون ذلك من قبيل العشرة وحسن الصحبة، ويكون بدعة لا بأس بها، لأنها لم تزاحم سنة مأمورة.

---

(١) سبق ذكر خلاف ذلك فكانوا في بعض الأحيان يقومون، وكان الرسول ﷺ يقوم لبعضهم كما سبق وذكره المؤلف. ومعنى ذلك أن كلا التصرفين مباح بناء على ما ذكر آنفاً وما ذكر هنا.

الباب الثالث والعشرون
فى القول فى السماع ردا وإنكارا

قد ذكرنا وجه صحة السماع وما يليق منه بأهل الصدق، وحيث كثرت الفتنة بطريقة، وزالت العصمة فيه، وتصدى للحرص عليه أقوام قلت أعمالهم، وفسدت أحوالهم، وأكثروا الاجتماع للسماع، وربما يتخذ للاجتماع طعام تطلب النفوس الاجتماع لذلك، لا رغبة للقلوب فى السماع، كما كان من سير الصادقين، فيصير السماع معلولا تركن إليه النفوس طلبا للشهوات، واستحلاء لمواطن اللهو والغفلات، ويقطع ذلك على المريد طلب المزيد، ويكون بطريقة تضييع الأوقات، وقلة الحظ من العبادات، وتكون الرغبة فى الاجتماع طلبا لتناول الشهوة واسترواحا لأولى الطرب واللهو والعشرة. ولا يخفى أن هذا الاجتماع مردود عند أهل الصدق.

وكان يقال: لا يصح السماع إلا لعارف مكين، ولا يباح لمريد مبتدى، وقال الجنيد رحمه الله تعالى: إذا رأيت المريد يطلب السماع فاعلم أن فيه بقية البطالة.

وقيل: إن الجنيد ترك السماع، فقيل له كنت تستمع، فقال مع من؟ قيل له تسمع لنفسك، فقال ممن، لأنهم كانوا لا يسمعون إلا من أهل مع اهل، فلما فقد الإخوان ترك. فما اختاروا السماع حيث اختاروه إلا بشروط وقيود وآداب يذكرون به الآخرة، ويرغبون فى الجنة، ويحذرون من النار، ويزداد به طلبهم، وتحسن به احوالهم، ويتفق لهم ذلك اتفاقا فى بعض الأحايين، لا أن يجعلوه دأبا وديدنا حتى يتركوا لأجله الأوراد.

وقد نقل عن الشافعى ﷺ انه قال فى كتاب القضاء: الغناء لهو مكروه يشبه الباطل. وقال: من استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته.

واتفق أصحاب الشافعى أن المراة غير المحرم لا يجوز الاستماع إليها، سواء أكانت حرة أو مملوكة أو مكشوفة الوجه أو من وراء حجاب.

ونقل عن الشافعى ﷺ أنه كان يكره الطقطقة بالقضيب ويقول: وضعه الزنادقة ليشغلوا به عن القرآن. وقال: لا بأس بالقراءة بالألحان وتحسين الصوت بها بأى وجه كان.

وعند مالك ﷺ إذا اشترى جارية فوجدها مغنية فله أن يردها بهذا العيب، وهو مذهب سائر أهل المدينة.

وهكذا مذهب الإمام أبى حنيفة ﷺ.

وسماع الغناء من الذنوب وما أباحه إلا نفر قليل من الفقهاء، ومن أباحه من الفقهاء أيضا لم ير إعلانه فى المساجد والبقاع الشريفة.

وقيل فى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾[1] قال عبد الله بن مسعود ﷺ: هو الغناء والاستماع إليه.

وقيل فى قوله تعالى ﴿ وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[2] أى مغنون. رواه عكرمة عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما، وهو الغناء بلغة حمير، يقول أهل اليمن: سمد فلان إذا غنى.

وقوله تعالى ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾[3] قال مجاهد: الغناء والمزامير.

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال «كان إبليس أول من ناح وأول من تغنى».

---

(١) سورة لقمان: آية ٦.
(٢) سورة النجم: آية ٦١.
(٣) سورة الإسراء: آية ٦٤.

وروى عبد الرحمن بن عوف ﷺ أن النبى ﷺ قال: «إنما نهيت عن صوتين فاجرين: صوت عند نعمة، وصوت عند مصيبة».

وقد روى عن عثمان ﷺ أنه قال: ما غنيت ولا تمنيت، ولا مسست ذكرى بيمينى منذ بايعت رسول الله ﷺ.

وروى عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: الغناء ينبت النفاق فى القلب.

وروى أن ابن عمر ﷺ مر عليه قوم وهم محرمون وفيهم رجل يتغنى، فقال: ألا لا سمع الله لكم، ألا لا سمع الله لكم.

وروى أن إنسانا سأل القاسم بن محمد عن الغناء فقال: أنهاك عنه واكرهه لك، قال: احرام هو؟ قال: انظر يا ابن أخى إذا ميز الله الحق من الباطل فى أيهما يجعل الغناء.

وقال الفضيل بن عياض: الغناء رقية الزنا.

وعن الضحاك: الغناء مفسدة للقلب، مسخطة للرب.

وقال بعضهم: إياك والغناء فإنه يزيد الشهوة، ويهدم المروءة، وإنه لينوب عن الخمر، ويفعل ما يفعل السكر.

وهذا الذى ذكره هذا القائل صحيح، لأن الطبع الموزون يفيق بالغناء والأوزان، ويستحسن صاحب الطبع عند السماع ما لم يكن يستحسنه من الفرقعة بالأصابع والتصفيق والرقص، وتصدر منه أفعال تدل على سخافة العقل.

وروى عن الحسن أنه قال: ليس الدف من سنة المسلمين.

والذى نقل عن رسول الله ﷺ أنه سمع الشعر لا يدل على إباحة الغناء، فإن الشعر كلام منظوم وغيره كلام منثور، فحسنه حسن وقبيحه قبيح، وإنما يصير غناء بالألحان.

وأن أنصف المنصف وتفكر فى اجتماع أهل الزمان، وقعود المغنى بُدفه والمشبب بشبابته، وتصور فى نفسه هل وقع مثل هذا الجلوس والهيئة بحضرة رسول الله ﷺ، وهل استحضروا قوالا وقعدوا مجتمعين لاستماعه، لا شك بأنه ينكر ذلك من حال رسول الله ﷺ واصحابه.

ولو كان فى ذلك فضيلة تطلب ما أهملوها. فمن يشير بأنه فضيلة تطلب ويجتمع لها لم يحظ بذوق معرفة أحوال رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين، واستروح إلى استحسان بعض المتأخرين ذلك، وكثيرا ما يغلط الناس فى هذا. وكلما احتج عليهم بالسلف الماضين يحتجون بالمتأخرين، وكان السلف أقرب إلى عهد رسول الله ﷺ، وهديهم أشبه بهدى رسول الله ﷺ وكثير من الفقراء يستمع عند قراءة القرآن بأشياء من غير غلبة.

قال عبد الله بن عروة بن الزبير: قلت لجدتى أسماء بنت ابى بكر الصديق رضى الله عنهما: كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قرئ عليهم القرآن؟ قالت: كانوا كما وصفهم الله تعالى تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم. قال قلت: إن ناسا اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خر أحدهم مغشيا عليه، قالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وروى أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما مر برجل من أهل العراق يتساقط، قال: ما لهذا؟ قالوا: إنه إذا قرئ عليه القرآن وسمع ذكر الله تعالى سقط، فقال ابن عمر رضى الله عهما: إنا لنخشى الله وما نسقط، إن الشيطان يدخل فى جوف أحدهم، ما هكذا كان يصنع أصحاب رسول الله ﷺ.

وذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون إذا قرئ القرآن، فقال: بيننا وبينهم أن يقعد واحد منهم على ظهر بيت باسطا رجليه ثم يقرأ عليه القرآن من أوله إلى آخره، فإن رمى بنفسه فهو صادق.

وليس هذا القول منهم إنكارا على الإطلاق، إذ يتفق ذلك لبعض الصادقين، ولكن للتصنع المتوهم فى حق الأكثرين، وقد يكون ذلك من البعض تصنعا ورياء، ويكون من البعض لقصور علم ومخامرة جهل ممزوج بهوى، يلم بأحدهم يسير من الوجد فيتبعه بزيادات يجهل أن ذلك يضر بدينه، وقد لا يجهل أن ذلك من النفس، ولكن النفس تسترق السمع استراقا خفيا، تخرج الوجد عن الحد الذى ينبغى أن يقف عليه، وهذا يباين الصدق.

نقل أن موسى عليه السلام وعظ قومه، فشق منهم رجل قميصه، فقيل لموسى عليه السلام: قل لصاحب القميص لا يشق قميصه ويشرح قلبه.

وأما إذا انضاف إلى السماع أن يسمع من أمرد، فقد توجهت الفتنة، وتعين على أهل الديانات إنكار ذلك.

قال بقية بن الوليد: كانوا يكرهون النظر إلى الغلام الأمرد الجميل.

وقال عطاء: كل نظرة يهواها القلب فلا خير فيها.

وقال بعض التابعين: ما أنا اخوف على الشاب التائب من السبع الضارى خوفى عليه من الغلام الأمرد يقعد إليه.

وقال بعض التابعين أيضا: اللوطية على ثلاثة أصناف: صنف ينظرون، وصنف يصافحون، وصنف يعملون ذلك العمل.

فقد تعين على طائفة الصوفية اجتناب مثل هذه الجماعات واتقاء مواضع التهم، فإن التصوف صدق كله، وجد كله.

يقول بعضهم: التصوف كله جد فلا تخلطوه بشيء من الهزل.

فهذه الآثار دلت على اجتناب السماع وأخذ الحذر منه. والباب الأول بما فيه دل على جوازه بشروطه، وتنزيهه عن المكاره التى ذكرناها.

وقد فصلنا القول وفرقنا بين القصائد والغناء وغير ذلك.

وكان جماعة من الصالحين لا يسمعون، ومع ذلك لا ينكرون على من يسمع بنية حسنة ويراعى الأدب فيه.

الباب الرابع والعشرون
فى القول فى السماع ترفعا واستغناء

اعلم أن الوجد يشعر بسابقة فقد، فمن لم يفقد لم يجد، وإنما كان الفقد لمزاحمة وجود العبد بوجود صفاته وبقاياه، فلو تمحض عبدا لتمحض حرا، ومن تمحض حرا أفلت من شرك الوجد. فشرك الوجد يصطاد البقايا، ووجود البقايا لتخلف شيء من العطايا.

قال الحصرى رحمه الله: ما أدون حال من يحتاج إلى مزعج يزعجه.

فالوجد بالسماع فى حق المحق، كالوجد بالسماع فى حق المبطل من حيث النظر إلى انزعاجه وتأثير الباطن به، وظهور أثره على الظاهر، وتغييره للعبد من حال إلى حال. وإنما يختلف الحال بين المحق والمبطل. إن المبطل يجد لوجود هوى النفس، والمحق يجد لوجوده إرادة القلب، ولهذا قيل: السماع لا يحدث فى القلب شيئا وإنما يحرك ما فى القلب، فمن تعلق باطنه بغير الله يحركه السماع فيجد بالهوى، ومن متعلق باطنه بمحبة الله يجد بالإرادة إرادة القلب. فالمبطل محجوب بحجاب النفس، والمحق محجوب بحجاب القلب، وحجاب النفس حجاب أرضى ظلمانى، وحجاب القلب حجاب سماوى نورانى. ومن لم يفقد بدوام التحقق بالشهود ولا يتعثر بأذيال الوجود، فلا يسمع ولا يجد.

ومن هذه المطالعة قال بعضهم: الوجد نار دم كلى لا ينفذ فى قول.

ومر ممشاد الدينورى رحمه الله بقوم فيهم قوال، فلما رأوه أمسكوا، فقال ارجعوا إلى ما كنتم فيه، فوالله لو جمعت ملاهى الدنيا فى أذنى ما شغل همى ولا شفى ما بى.

فالوجد صراخ الروح المبتلى بالنفس تارة فى حق المبطل، وبالقلب تارة فى حق المحق، فمثار الوجد الروح الروحانى فى حق المحق والمبطل، ويكون الوجد تارة من فهم المعانى يظهر، وتارة من مجرد النغمات والألحان. فما كان من قبيل المعانى تشارك النفس الروح فى السماع فى حق المبطل، ويشارك القلب فى حق المحق، وما كان من قبيل مجرد النغمات، تتجرد الروح للسماع، ولكن فى حق المبطل تسترق النفس السمع، وفى حق المحق يسترق القلب السمع. ووجه استلذاذ الروح النغمات أن العالم الروحانى مجمع الحسن والجمال، ووجود التناسب فى الأكوان مستحسن قولا وفعلا، ووجود التناسب فى الهياكل والصور ميراث الروحانية، فمتى سمع الروح النغمات اللذيذة، والألحان المتناسبة، تأثر به لوجود الجنسية، ثم يتقيد ذلك بالشرع بمصالح عالم الحكمة، ورعاية الحدود للعبد عين المصلحة عاجلا وآجلا.

ووجه آخر: إنما يستلذ الروح النغمات لأن النغمات بها نطق النفس مع الروح بالإيماء الخفى إشارة ورمزا بين المتعاشقين، وبين النفوس والأرواح تعاشق أصلى، ينزع ذلك إلى أنوثة النفس وذكورة الروح، والميل والتعاشق بين الذكر والأنثى بالطبيعة واقع. قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾[1] وفى قوله سبحانه (منها) إشعار بتلازم وتلاصق موجب للائتلاف. والتعاشق والنغمات تستلذها الروح، لأنها مناغاة بين المتعاشقين.

وكما أن فى عالم الحكمة كونت حواء من آدم، ففى عالم القدرة كونت النفس من الروح الروحانى، فهذا التآلف من هذا الأصل، وذلك أن النفس روح حيوانى تجنس بالقرب من الروح الروحانى. وتجنسها بأن امتازت من أرواح جنس الحيوان بشرف القرب من الروح الروحانى، فصارت نفسا، فإذا تكون النفس من الروح الروحانى فى عالم القدرة، كتكون حواء من آدم فى عالم الحكمة. فهذا التآلف والتعاشق، ونسبة الأنوثة والذكورة من ههنا ظهر،

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٨٩.

وبهذا الطريق استطابت الروح النغمات لأنها مراسلات بين المتعاشقين، ومكالمة بينهما. وقد قال القائل:

تكلم منا فى الوجود عيوننا فنحن سكوت والهوى يتكلم

فإذا استلذ الروح النغمة، وجدت النفس المعلولة بالهوى، وتحركت بما فيها لحدوث العارض، ووجد القلب المعلول بالإرادة، وتحرك بما فيها لوجود العارض فى الروح.

شربنا وأهرقنا على الأرض وللأرض من كاس الكرام نصيب

فنفس المبطل أرض لسماء قلبه، وقلب المحق أرض لسماء روحه. فالبالغ مبلغ الرجال، والمتجوهر المتجرد من أعراض الأحوال، خلع نعلى النفس والقلب بالوادى المقدس، وفى مقعد صدق عند مليك مقتدر استقر وعرس، وحرق بنور العيان أجرام الألحان، ولم تصغ روحه إلى مناغاة عاشقه، لشغله بمطالعة آثار محبوبه. فالهائم المشتاق لا يسعه كشف ظلامة العشاق.

ومن هذا حاله لا يحركه السماع رأسا. وإذا كانت الألحان لا تلحق هذا الروح مع لطافة مناجاتها،وخفى لطف مناغاتها، كيف يلحقه السماع بطريق فهم المعانى وهو أكثف، ومن يضعف عن حمل لطيف الإشارات كيف يتحمل ثقل أعباء العبارات.

وأقرب من هذا عبارة تقرب إلى الأفهام، الوجد وارد يرد من الحق سبحانه وتعالى، ومن يريد الله لا يقنع بما من عند الله، ومن صار فى محل القرب متحققا به لا يلهيه ولا يحركه ما ورد من عند الله. فالوارد من عند الله مشعر ببعد، والقريب واجد فما يصنع بالوارد. والوجد نار والقلب للواجد ربه نور، والنور ألطف من النار، والكثيف غير مسيطر على اللطيف.

فما دام الرجل البالغ مستمرا على جادة استقامته، غير منحرف عن وجه معهوده بنوازع وجوده لا يدركه الوجد بالسماع، فإن دخل عليه فتور

او عاقه قصور بدخول الابتلاء عليه من المبلى المحسن، يتألف المحن من تفاريق صور الابتلاء، اى يدخل عليه وجود يدركه الواجد لعود العبد عند الابتلاء إلى حجاب القلب، فمن هو مع الحق إذا زل وقع على القلب، ومن هو مع القلب إذا زل وقع على النفس.

سمعت بعض مشايخنا يحكى عن بعضهم أنه وجد من السماع، فقيل له: أين حالك من هذا؟ فقال: دخل على داخل أوردنى هذا المورد.

قال بعض أصحاب سهل: صحبت سهلا سنين ما رايته تغير عند شيء كان يسمعه من الذكر والقرآن، فلما كان فى آخر عمره قرئ عنده ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ ﴾[1] فارتعد وكاد يسقط، فسألته عن ذلك، قال: نعم لحقنى ضعف. وسمع مرة ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ ﴾[2] فاضطرب، فسأله ابن سالم وكان صاحبه، قال: قد ضعفت، فقيل له: إن كان هذا من الضعف فما القوة؟ قال: القوة أن الكامل لا يرد وارد إلا يبتلعه بقوة حاله فلا يغيره الوارد.

ومن هذا القبيل قول أبى بكر ﷺ: هكذا كنا حتى قست القلوب، لما رأى الباكى يبكى عند قراءة القرآن. وقوله: قست، اى تصلبت وادمنت سماع القرآن وألفت أنواره فما استغربته حتى تغير.

والواجد كالمستغرب، ولهذا قال بعضهم: حالى قبل الصلاة كحالى فى الصلاة. إشارة منه إلا استمرار حال الشهود، فهكذا فى السماع كقبل السماع.

وقد قال الجنيد: لا يضر نقصان الوجد مع فضل العلم، وفضل العلم أتم من فضل الوجد.

---

(١) سورة الحديد: آية ١٥.
(٢) سورة الفرقان: آية ٢٦.

وبلغنا عن الشيخ حماد رحمه الله أنه كان يقول: البكاء من بقية الوجود. وكل هذا يقرب البعض من البعض فى المعنى لمن عرف الإشارة فيه وفهم، وهو عزيز الفهم، عزيز الوجود.

واعلم أن للباكين عند السماع مواجيد مختلفة. فمنهم من يبكى خوفا، ومنهم من يبكى شوقا، ومنهم من يبكى فرحا، كما قال القائل:

طفح السرور على حتى أننى   من عظم ما قد سرنى أبكانى

قال الشيخ أبو بكر الكتانى رحمه الله: سماع العوام على متابعة الطبع، وسماع المريدين رغبة ورهبة، وسماع الأولياء رؤية الآلاء والنعماء، وسماع العارفين على المشاهدة، وسماع أهل الحقيقة على الكشف والعيان، ولكل واحد من هؤلاء مصدر ومقام.

وقال أيضا: الموارد ترد فتصادف شكلا أو موافقا، فأى وارد صادف شكلا مازجه، وأى وارد صادف موافقا ساكنه، وهذه كلها مواجيد أهل السماع، وما ذكرناه حال من ارتفع عن السماع، وهذا الاختلاف منزل على اختلاف أقسام البكاء التى ذكرناها من الخوف والشوق والفرح، وأعلاها بكاء الفرح بمثابة قادم يقدم على أهله بعد طول غربته، فعند رؤية الأهل يبكى من قوة الفرح وكثرته.

وفى البكاء رتبة أخرى أعز من هذه، يعز ذكرها، ويكبر نشرها، لقصور الأفهام عن إدراكها، فربما يقابل ذكرها بالإنكار، ويخفى بالاستكبار، ولكن يعرفها من وجدها قدما ووصولا، أو فهمها نظرا كثيرا ومثولا، وهو بكاء الوجدان، غير بكاء الفرح، وحدوث ذك فى بعض مواطن حق اليقين. ومن حق اليقين فى الدنيا لمامات يسيرة، فيوجد البكاء فى بعض مواطنه، لوجود تغاير وتباين بين المحدث والقديم، فيكون البكاء رشحا هو من وصف الحدثان لوهج سطوة عظمة الرحمن.

ويقرب من ذلك مثلا فى الشاهد قطر الغمام يتلاقى مختلف الأجرام. وهذا وإن عز مشعر ببقية تقدح فى صرف الفناء.

نعم قد يتحقق العبد فى الفناء متجردا عن الآثار، منغمسا فى الأنوار، ثم يرتقى منه إلى مقام البكاء، ويرد إليه الوجود مطهرا، فتعود إليه أقسام البكاء خوفا وشوقا وفرحا ووجدانا، بمشاكلة صورها، ومباينة حقائقها، بفرق لطيف يدركه أربابه، وعند ذلك يعود عليه من السماع أيضا قسم، وذلك القسم مقدور له، مقهور معه، يأخذه إذا أراد.

ويرده إذا أراد، ويكون هذا السماع من المتمكن بنفس اطمأنت واستنارت، وباينت طبيعتها، واكتسبت طمأنينتها، واكسبها الروح معنى منه، فيكون سماعه نوع تمتع للنفس، كتمتعها بمباحات اللذات والشهوات، لا أن يأخذ السماع منه أو يزيد به، أو يظهر عليه منه أثر، فتكون النفس فى ذلك بمثابة الطفل فى حجر الوالد، يفرحه فى بعض الأوقات ببعض مآربه.

ومن هذا القبيل ما نقل أن أبا محمد الراشى كان يشغل أصحابه بالسماع، وينعزل عنهم ناحية يصلى، فقد تطرق هذه النغمات مثل هذا المصلى فتتدلى إليها النفس متنعمة بذلك، فيزداد مورد الروح من الأنس صفاء عند ذلك، لبعد النفس عن الروح فى تمتعها، فإنها مع طمأنينتها بوصف من الأجنبية بوضعها وجبلتها، وفى بعدها توفر أقسام الروح من الفتوح، ويكون طروق الألحان سمعه فى الصلاة، غير محيل بينه وبين حقيقة المناجاة، وفهم تنزيل الكلمات، وتصل الأقسام إلى محالها غير مزاحمة ولا مزاحمة، وذلك كله لسعة شرح الصدر بالإيمان.

والله المحسن المنان.

ولهذا قيل: السماع لقوم كالدواء، ولقوم كالغذاء، ولقوم كالمروحة. ومن عود أقسام البكاء ما روى أن رسول الله ﷺ قال لأبىّ «اقرأ»، فقال: اقرأ

عليك وعليك انزل؟ فقال «احب ان اسمعه من غيرى» فافتتح سورة النساء حتى بلغ قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾[1] فإذا عيناه تهملان.

وروى ان رسول الله ﷺ استقبل الحجر واستلمه ثم وضع شفتيه عليه طويلا يبكى وقال «يا عمر ههنا تسكب العبرات».

والتمكن تعود إليه أقسام البكاء، وفى ذلك فضيلة سألها النبى ﷺ فقال «اللهم ارزقنى عينين هطالتين».

ويكون البكاء فى الله، فيكون لله، ويكون بالله وهو الأتم، لعوده إليه بوجود مستأنف موهوب له من الكريم المنان فى مقام البقاء.

---

(١) سورة النساء: آية ٤١.

الباب الخامس والعشرون
فى القول فى السماع تأدبا واعتناء

ويتضمن هذا الباب آداب السماع، وحكم التخريق وإشارات المشايخ فى ذلك، وما فى ذلك من المأثور والمحظور.

مبنى التصوف على الصدق فى سائر الأحوال، وهو جد كله لا ينبغى لصادق أن يتعمد الحضور فى مجمع يكون فيه سماع إلا بعد أن يخلص النية لله تعالى، ويتوقع به مزيدا فى إرادته وطلبه، ويحذر من ميل النفس لشيء من هواها، ثم يقدم الاستخارة للحضور، ويسأل الله تعالى إذا عزم البركة فيه، وإذا حضر يلزم الصدق والوقار بسكون الأطراف.

قال أبو بكر الكتانى رحمه الله: المستمع يجب أن يكون فى سماعه غير مستروح إليه، يهيج منه السماع وجدا أو شوقا او غلبة أو واردا، والوارد عليه يفنيه عن كل حركة وسكون، فيتقى الصادق استدعاء الوجد، ويجتنب الحركة فيه مهما أمكن سيما بحضرة الشيوخ.

حكى أن شابا كان يصحب الجنيد رحمه الله، وكلما سمع شيئا زعق وتغير فقال له يوما: إن ظهر منك شيء بعد هذا فلا تصحبنى، فكان بعد ذلك يضبط نفسه، وربما كان من كل شعرة منه تقطر قطرة عرق، فلما كان يوما من الأيام زعق زعقة فخرج روحه.

فليس من الصدق إظهار الوجد من غير وجد نازل، أو ادعاء الحال من غير حال حاصل، وذلك عين النفاق.

قيل: كان النصراباذى رحمه الله كثير الولع بالسماع، فعوتب فى ذلك، فقال: نعم هو خير من أن نقعد ونغتاب، فقال له أبو عمرو بن بجيد وغيره من إخوانه: هيهات يا أبا القاسم زلة فى السماع شر من كذا وكذا سنة نغتاب

الناس، وذلك ان زلة السماع إشارة إلى الله تعالى، وترويح للحال بصريح الحال، وفى ذلك ذنوب متعددة.

منها: أنه يكذب على الله تعالى أنه وهب له شيئا وما وهب له، والكذب على الله من أقبح الزلات.

ومنها: أن يغر بعض الحاضرين فيحسن به الظن، والغرور خيانة. قال عليه السلام ((من غشنا فليس منا)).

ومنها: أنه إذا كان مبطلا ويرى بعين الصلاح، فسوف يظهر منه بعد ذلك ما يفسد عقيدة المعتقد فيه، فيفسد عقيدته فى غيره ممن يظن به الخير من امثاله، فيكون سببا إلى فساد العقيدة فى أهل الصلاح، ويدخل بذلك ضرر على الرجل الحسن الظن مع فساد عقيدته، فينقطع عنه مدد الصالحين ويتشعب من هذا آفات كثيرة يعثر عليها من يبحث عنها.

ومنها: أنه يحوج الحاضرين إلى موافقته فى قيامه وقعوده، فيكون متكلفا مكلفا للناس بباطله، ويكون فى الجمع من يرى بنور الفراسة أنه مبطل، ويحمل على نفسه الموافقة للجمع مداريا، ويكثر شرح الذنوب فى ذلك. فليتق الله ربه ولا يتحرك إلا إذا صارت حركته حركة المرتعش الذى لا يجد سبيلا إلى الإمساك، وكالعاطس الذى لا يقدر أن يرد العطسة، وتكون حركته بمثابة النفس الذى يدعوه إليه داعية الطبع قهرا.

قال السرى: شرط الواجد فى زعقته أن يبلغ إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لا يشعر فيه بوجه. وقد يقع هذا لبعض الواجدين نادرا، وقد لا يبلغ الواجد هذه الرتبة من الغيبة، ولكن زعقته تخرج كالتنفس بنوع إرادة ممزوجة بالاضطرار، فهذا الضبط من رعاية الحركات ورد الزعقات، وهو فى تمزيق الثياب آكد، فإن ذلك يكون إتلاف المال، وإنفاق المحال.

وهكذا رمى الخرقة إلى الحادى، لا ينبغى أن يفعل إلا إذا حضرته نية يجتنب فيها التكلف والمراءاة، وإذا حسنت النية فلا بأس بإلقاء الخرقة إلى الحادى، فقد روى عن كعب بن زهير أنه دخل على رسول الله ﷺ المسجد وأنشده أبياته التى أولها:

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول

حتى انتهى إلى قوله فيها:

إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

فقال له رسول الله ﷺ «من أنت»؟ فقال: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، أنا كعب بن زهير، فرمى رسول الله ﷺ بعشرة آلاف، فوجه إليه: ما كنت لأوثر بثوب رسول الله ﷺ أحدا. فلما مات كعب بعث معاوية إلى أولاده بعشرين ألفا وأخذ البردة، وهى البردة الباقية عند الإمام الناصر لدين الله اليوم، عادت بركتها على أيامه الزاهرة.

وللمتصوفة آداب يتعاهدونها، ورعايتها حسن الأدب فى الصحبة والمعاشرة. وكثير من السلف لم يكونوا يعتمدون ذلك، ولكن كل شىء استحسنوه وتواطئوا عليه ولا ينكره الشرع لا وجه للإنكار فيه.

فمن ذلك أن أحدهم إذا تحرك فى السماع فوقعت منه خرقة أو نازله وجد ورمى عمامته إلى الحادى، فالمستحسن عندهم موافقة الحاضرين له فى كشف الرأس إذا كان ذلك من متقدم وشيخ. وإن كان ذلك من الشبان فى حضرة الشيوخ فليس على الشيوخ موافقة الشبان فى ذلك، وينسحب حكم الشيوخ على بقية الحاضرين فى ترك الموافقة للشبان، فإذا سكتوا عن السماع يرد الواجد إلى خرقته، ويوافقه الحاضرون برفع العمائم، ثم ردها على الرؤوس فى الحال للموافقة.

والخرقة إذا رميت إلى الحادى هى للحادى إذا قصد إعطاءه إياها، وإن لم يقصد إعطاءها للحادى فقيل هى للحادى، لأن المحرك هو، ومنه صدر الوجب لرمى الخرقة. وقال بعضهم: هى للجمع والحادى واحد منهم، لأن المحرك قول الحادى مع بركة الجمع فى إحداث الوجد، وإحداث الوجد لا يتقاصر عن قول القائل فيكون الحادى واحدا منهم فى ذلك.

روى أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: من وقف بمكان كذا فله كذا، ومن قتل فله كذا، ومن أسر فله كذا، فتسارع الشبان وأقام الشيوخ والوجوه عند الرايات، فلما فتح الله على المسلمين طلب الشبان أن يجعل ذلك لهم، فقال الشيوخ: كنا ظهرا لكم ورداء فلا تذهبوا بالغنائم دوننا، فأنزل الله تعالى ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾[1].

وقيل: إذا كان القوال من القوم يجعل كواحد منهم، وإذا لم يكن من القوم فما كان له قيمة يؤثر به، وما كان من خرق الفقراء يقسم بينهم.

وقيل: إذا كان القوال أجيرا فليس له منها شيء، وإن كان متبرعا يؤثر بذلك. وكل هذا إذا لم يكن هناك شيخ يحكم، فأما إذا كان هناك شيخ يهاب ويمتثل أمره فالشيخ يحكم فى ذلك بما يرى، فقد تختلف الأحوال فى ذلك. وللشيخ اجتهاد فيفعل ما يرى، فلا اعتراض لأحد عليه. وإن فداها بعض المحبين أو بعض الحاضرين فرضى القوال والقوم بما رضوا به، وعاد كل واحد منهم إلى خرقته فلا بأس بذلك. وإذا اصر واحد على الإيثار بما خرج منه لنية له فى ذلك يؤثر بخرقته الحادى.

وأما تمزيق الخرقة المجروحة التى مزقها واجد صادق عن غلبة سلبت اختياره، كغلبة النفس، فمن يعتمد إمساكه فنيتهم فى تفرقتها وتمزيقها التبرك بالخرقة، لأن الوجد أثر من آثار فضل الحق، وتمزيق الخرقة أثر من آثار الوجد، فصارت الخرقة متأثرة بأثر ربانى من حقها أن تفدى بالنفوس وتترك

---

(١) سورة الأنفال: آية ١.

على الرؤوس إكراما وإعزازا، تضوع أرواح تجد من ثيابهم يوم القدوم لقرب العهد بالدار، كان رسول الله ﷺ يستقبل الغيث ويتبرك به ويقول «حديث عهد بربه».

فالخرقة المزقة حديثة العهد، فحكم المجروحة أن تفرق على الحاضرين، وحكم ما يتبعها من الخرق الصحاح أن يحكم فيها الشيخ إن خصص بشيء منها بعض الفقراء فله ذلك، وإن خرقه خرقا فله ذلك، ولا يقال هذا تفريط وسرف، فإن الخرقة الصغيرة ينتفع بها فى موضعها عند الحاجات كالكبيرة.

وروى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ﷺ أنه قال: أهدى لرسول الله ﷺ حلة حرير فأرسل بها إلى، فخرجت فيها فقال لى «ما كنت لأكره لنفسى شيئا أرضاه لك، فشققها بين النساء خمرا» وفى روية: أتيته فقلت ما أصنع بها ألبسها؟ قال: «لا ولكن اجعلها خمرا بين الفواطم» أراد فاطمة بنت أسد، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ، وفاطمة بنت حمزة. وفى هذه الرواية أن الهدية كانت حلة مكفوفة بحرير. وهذا وجه فى السنة لتمزيق الثوب وجعله خرقا.

حكى أن الفقهاء والصوفية بنيسابور اجتمعوا فى دعوة فوقعت الخرقة، وكان شيخ الفقهاء الشيخ أبا محمد الجوينى وشيخ الصوفية الشيخ أبا القاسم القشيرى، فقسمت الخرقة على عادتهم، فالتفت الشيخ أبو محمد إلى بعض الفقهاء وقال سرا: هذا سرف وإضاعة للمال، فسمع أبو القاسم القشيرى، ولم يقل شيئا حتى فرغت القسمة ثم استدعى الخادم وقال انظر فى الجمع من معه سجادة خرق اثنتى بها، فجاءه بسجادة ثم أحضر رجلا من أهل الخبرة فقال: هذه السجادة بكم تشترى فى المزاد؟ قال: بدينار، قال: ولو كانت قطعة واحدة كم تساوى؟ قال: نصف دينار، ثم التفت إلى الشيخ أبى محمد وقال: هذا لا

يسمى إضاعة المال، والخرقة الممزقة تقسم على جميع الحاضرين، من كان من الجنس أو من غير الجنس إذا كان حسن الظن بالقوم معتقدا للتبرك بالخرقة.

روى طارق بن شهاب أن أهل البصرة غزوا نهاوند، وأمدهم أهل الكوفة وعلى أهل الكوفة عمار بن ياسر، فظهروا، وأراد أهل البصرة ألا يقسموا لأهل الكوفة من الغنيمة شيئا، فقال رجل من بني تميم لعمار: أيها الأجدع تريد أن تشاركنا في غنائمنا؟ فكتب إلى عمر بذلك، فكتب عمر رضي ﷺ: أن الغنيمة لمن شهد الواقعة.

وذهب بعضهم إلى أن المجروح من الخرق يقسم على الجمع، وما كان من ذلك صحيحا يعطى للقوال، واستدل بما روى عن أبي قتادة قال: لما وضعت الحرب أوزارها يوم حنين، وفرغنا من القوم، قال رسول الله ﷺ «من قتل قتيلا فله سلبه» وهذا له وجه في الخرقة الصحيحة. فأما المجروحة فحكمها إسهام الحاضرين والقسمة لهم. ولو دخل على الجمع وقت القسمة من لم يكن حاضرا قسم له.

روى أبو موسى الأشعري ﷺ قال: لما قدمنا على رسول الله ﷺ بعد خيبر بثلاث فأسهم لنا ولم يسهم لأحد لم يشهد الفتح غيرنا.

ويكره للقوم حضور غير الجنس عندهم في السماع، كمتزهد لا ذوق له من ذلك فينكر ما لا ينكر، أو صاحب دنيا يحوج إلى المداراة والتكلف، أو متكلف للوجد يشوش الوقت على الحاضرين بتواجده.

أخبرنا أبو زرعة طاهر عن والده أبي الفضل الحافظ المقدسي قال: أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الملك المظفري بسرجس قال: أخبرنا أبو على الفضل بن منصور بن نصر الكاغدي السمرقندي إجازة قال: حدثنا الهيثم بن كليب قال: أخبرنا أبو بكر عمار بن إسحاق قال: حدثنا سعيد بن عامر عن شعبة عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس قال: كنا عند رسول الله ﷺ إذ نزل عليه

جبريل عليه السلام فقال: يا رسول الله إن فقراء أمتك يدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام، ففرح رسول الله ﷺ فقال: هل فيكم من ينشدنا؟ فقال بدوى: نعم يا رسول الله، فقال هات، فأنشأ الأعرابى:

لقد لسعت حية الهوى كبدى   فلا طبيب لها ولا راقى
إلا الحبيب الذى شغفت به   فعنده رقيتى وترياقى

فتواجد رسول الله ﷺ وتواجد الأصحاب معه حتى سقط رداؤه عن منكبه، فلما فرغوا أوى كل واحد منهم إلى مكانه. قال معاوية بن أبى سفيان: ما أحسن لعبكم يا رسول الله، فقال: مه يا معاوية ليس بكريم من لم يهتز عند سماع ذكر الحبيب. ثم قسم رداءه رسول الله ﷺ على من حاضرهم بأربعمائة قطعة. فهذا الحديث أوردناه مسندا كما سمعناه ووجدناه. وقد تكلم فى صحته أصحاب الحديث. وما وجدنا شيئا نقل عن رسول الله ﷺ يشاكل وجد أهل الزمان وسماعهم واجتماعهم وهيئتهم إلا هذا. وما أحسنه من حجة للصوفية وأهل الزمان فى سماعهم وتمزيقهم الخرق وقسمتها أن لو صح والله أعلم. ويخالج سرى أنه غير صحيح، ولم أجد فيه ذوق اجتماع النبى ﷺ مع أصحابه وما كانوا يعتمدونه على ما بلغنا فى هذا الحديث ويأبى القلب قبوله والله أعلم بذلك.

الباب السادس والعشرون
فى خاصية الأربعينية التى يتعاهدها الصوفية

ليس مطلوب القوم من الأربعين شيئا مخصوصا لا يطلبونه فى غيرها، ولكن لما طرقتهم مخالفات حكم الأوقات أحبوا تقييد الوقت بالأربعين، رجاء أن ينسحب حكم الأربعين على جميع زمانهم، فيكونوا فى جميع أوقاتهم كهيئتهم فى الأربعين، على أن الأربعين خصت بالذكر فى قول رسول الله ﷺ «من أخلص لله أربعين صباحا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه».

وقد خص الله تعالى الأربعين بالذكر فى قصة موسى عليه السلام، وأمره بتخصيص الأربعين بمزيد تبتل. قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾[1] وذلك أن موسى عليه السلام وعد بنى إسرائيل وهم بمصر أن الله تعالى إذا أهلك عدوهم واستنقذهم من أيديهم يأتيهم بكتاب من عند الله تعالى، فيه تبيان الحلال والحرام، والحدود والأحكام.

فلما فعل الله ذلك، وأهلك فرعون، سأل موسى ربه الكتاب، فأمره الله تعالى أن يصوم ثلاثين يوما، وهو ذو القعدة، فلما تمت الثلاثون ليلة، أنكر خلوف فمه فتسوك بعود خرنوب، فقالت له الملائكة: كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك، فأمره الله تعالى أن يصوم عشرة أيام من ذى الحجة، وقال له: أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك، ولم يكن صوم موسى عليه السلام ترك الطعام بالنهار وأكله بالليل، بل طوى الأربعين من غير أكل، فدل على أن خلو المعدة من الطعام أصل كبير فى الباب حتى احتاج موسى إلى ذلك مستعدا لمكالمة الله تعالى.

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٤٢.

والعلوم اللدنية فى قلوب المنقطعين إلى الله تعالى ضرب من المكالمة، ومن انقطع إلى الله أربعين يوما مخلصا متعاهدا نفسه بخفة المعدة، يفتح الله عليه العلوم اللدنية، كما أخبر رسول الله ﷺ بذلك، غير أن تعيين الأربعين من المدة فى قول رسول الله ﷺ وفى أمر الله تعالى موسى عليه السلام بذلك، والتحديد والتقييد بالأربعين لحكمة فيه، ولا يطلع أحد على حقيقة ذلك إلا الأنبياء إذا عرفهم الحق ذلك، أو من يخصه الله تعالى بتعريف ذلك من غير الأنبياء.

ويلوح فى سر ذلك معنى والله أعلم، وذلك أن الله تعالى لما أراد بتكوين آدم من تراب قدر التخمير بهذا القدر من العدد كما ورد: خمر طينة آدم بيده أربعين صباحا، فكان آدم لما كان مستصلحا لعمارة الدارين، وأراد الله تعالى منه عمارة الدنيا.

كما أراد منه عمارة الجنة، كون من التراب تركيبا يناسب عالم الحكمة والشهادة وهذه الديار الدنيا.

وما كانت عمارة الدنيا تأتى منه وهو غير مخلوق من أجزاء أرضية سفلية بحسب قانون الحكمة فمن التراب كونه، وأربعين صباحا خمر طينه ليبعد بالتخمير أربعين صباحا بأربعين حجابا من الحضرة الإلهية، ومواطن القرب، إذ لو لم يتعوق بهذا الحجاب ما عمرت الدنيا، فتأصل البعد عن مقام القرب فيه لعمارة عالم الحكمة وخلافة الله تعالى فى الأرض[1].

فالتبتل لطاعة الله تعالى والإقبال عليه، والانتزاع عن التوجه إلى أمر المعاش بكل يوم يخرج عن حجاب هو معنى فيه مودع، وعلى قدر زوال كل حجاب ينجذب ويتخذ منزلا فى القرب من الحضرة الإلهية التى هى مجمع العلوم ومصدرها، فإذا تمت الأربعون ذلت الحجب وانصبت إليه العلوم والمعارف انصبابا.

---

(١) هذا اجتهاد من المصنف رحمه الله.

ثم العلوم والمعارف هي أعيان انقلبت أنوارا باتصال إكسير نوع العظمة الإلهية بها، فانقلبت أعيان حديث النفس علوما إلهامية، وتصدت أجرام حديث النفس لقبول أنوار العظمة، فلولا وجود النفس وحديثها ما ظهرت العلوم الإلهية، لأن حديث النفس وعاء وجودى لقبول الأنوار، وما للقلب فى ذاته لقبول العلم شيء. وقول رسول الله ﷺ ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، أشار إلى القلب باعتبار أن للقلب وجها إلى النفس، باعتبار توجهه إلى عالم الشهادة، وله وجه إلى الروح باعتبار توجهه إلى عالم الغيب، فيستمد القلب العلوم المكونة فى النفس، ويخرجها إلى اللسان الذى هو ترجمانه. فظهور العلوم من القلب لأنها متأصلة فيه.

فللقب والروح مراتب من قرب الملهم سبحانه وتعالى فوق رتب الإلهام. فالعبد بانقطاعه إلى الله تعالى واعتزال الناس يقطع مسافات وجوده، ويستنبط من معدن نفسه جواهر العلوم. وقد ورد فى الخبر ((الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا)).

ففى كل يوم بإخلاصه فى العمل لله يكشف طبقة من الطباق الترابية الجبلية المبعدة عن الله تعالى، إلى أن يكشف باستكمال الأربعين أربعين طبقة فى كل يوم طبقة من أطباق حجابه. وآية صحة هذا العبد وعلامة تأثره بالأربعين ووفائه بشروط الإخلاص أن يزهد بعد الأربعين فى الدنيا، ويتجافى عن دار الغرور، وينيب إلى دار الخلود، لأن الزهد فى الدنيا من ضرورة ظهور الحكمة، ومن لم يزهد فى الدنيا ما ظفر بالحكمة، ومن لم يظفر بالحكمة بعد الأربعين تبين أنه قد اخل بالشروط، ولم يخلص لله تعالى، ومن لم يخلص لله ما عبد الله، لأن الله تعالى أمرنا بالإخلاص كما أمرنا بالعمل، فقال تعالى ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾[1].

---

(١) سورة البينة، آية ٥.

اخبرنا الشيخ طاهر بن ابى الفضل إجازة قال انا ابو بكر احمد بن خلف إجازة قال انا ابو عبد الرحمن السلمى قال انا ابو منصور الضبعى قال حدثنا محمد بن اشرس قال حدثنا حفص بن عبد الله قال حدثنا إبراهيم بن طهمان عن عاصم عن زرعة صفوان بن عسال ﷺ عن النبى ﷺ قال: ((إذا كان يوم القيامة يجئ الإخلاص والشرك يجثوان بين يدى الرب عز وجل، فيقول الرب للإخلاص: انطلق أنت وأهلك إلى الجنة، ويقول للشرك: انطلق أنت وأهلك إلى النار)).

وبهذا الإسناد قال السلمى: سمعت على بن سعيد وسألته عن الإخلاص ما هو؟ قال: سمعت محمد بن جعفر الخصاف وسألته عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت احمد بن بشار عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت ابا يعقوب الشروطى عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت احمد بن غسان عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت احمد بن على الهجيمى عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت عبد الواحد بن زيد عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت الحسن عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت حذيفة عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت النبى ﷺ عن الإخلاص ما هو؟ قال: ((سألت جبريل عليه السلام عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو؟ قال: هو سر من سرى أودعته قلب من احببت من عبادى)).

فمن الناس من يدخل الخلوة على مراغمة النفس، إذ النفس بطبعها كارهة للخلوة، ميالة إلى مخالطة الخلق، فإذا ازعجها عن مقار عادتها، وحبسها عن طاعة الله تعالى، يعقب كل مرارة تدخل عليها حلاوة فى القلب.

قال ذو النون رحمه الله: لم أر شيئا ابعث على الإخلاص من الخلوة، ومن احب الخلوة فقد استمسك بعمود الإخلاص، وظفر بركن من أركان الصدق.

وقال الشبلى رحمه الله لرجل استوصاه: الزم الوحدة، وامح اسمك عن القوم، واستقبل الجدار حتى تموت.

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: الوحدة منية الصديقين.

ومن الناس من ينبعث من باطنه داعية الخلوة، وتنجذب النفس إلى ذلك، وهذا أتم وأكمل وأدل على كمال الاستعداد.

وقد روى من حال رسول الله ﷺ ما يدل على ذلك فيما حدثنا ضياء الدين أبو النجيب إملاء قال أخبرنا الحافظ إسماعيل بن أحمد المقرى قال أنا جعفر بن الحكاك المكى قال أنا أبو عبد الله الصنعانى قال أنا أبو عبد الله البغوى قال أنا إسحاق الديرى قال أنا عبد الرازق عن معمر قال أخبرنى الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يأتى حراء فيتحنث فيه الليالى ذوات العدد ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ، فقال رسول الله ﷺ: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ﴾ حتى بلغ ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾[1]. فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره، حتى دخل على خديجة فقال: زملونى، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة: ما لى وأخبرها الخبر، فقال: قد خشيت على عقلى، فقالت: كلا أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل، وكان امرأ تنصر فى الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربى، ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخا كبيرا قد عمى، فقالت له

---

(١) سورة العلق: آيات ١: ٥.

خديجة: يا عم اسمع من ابن أخيك، فقال ورقة: يا ابن أخى ماذا ترى؟ فأخبره الخبر رسول الله ﷺ، فقال لرسول الله ﷺ: هذا هو الناموس الذى أنزل على موسى، يا ليتنى جذعا، ليتنى فيها أكون حيا حين يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ أو مخرجى هم؟ قال ورقة: نعم إنه لم يأت أحد قط بما جئت به إلا عودى وأوذى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا».

وحدث جابر بن عبد الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحى فقال فى حديثه «فبينما أنا أمشى سمعت صوتا من السماء فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض، فجئثت منه رعبا، فرجعت فقلت: زملونى زملونى، فدثرونى فأنزل الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ إلى ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾[1].

وقد نقل أن رسول الله ﷺ ذهب مرارا كى يردى نفسه من شواهق الجبال، فكلما وافى ذروة جبل لكى يلقى نفسه تبدى له جبرائيل عليه السلام: فقال: يا محمد إنك لرسول الله حقا، فيسكن لذلك جأشه، وإذا طالت عليه فترة الوحى عاد لمثل ذلك، فيتبدى له جبريل فيقول له مثل ذلك.

فهذه الأخبار المنبئة عن بدء أمر رسول الله ﷺ هى الأصل فى إيثار المشايخ الخلوة للمريدين والطالبين، فإنهم إذا أخلصوا لله تعالى فى خلواتهم يفتح الله عليهم ما يؤنسهم فى خلوتهم تعويضا من الله إياهم عما تركوا لأجله.

ثم خلوة القوم مستمرة وإنما الأربعون واستكمالها له أثر ظاهر فى ظهور مبادئ بشائر الحق سبحانه وتعالى وسنوح مواهبه السنية.

---

(١) سورة المدثر: آيات ١: ٥.

الباب السابع والعشرون
فى ذكر فتوح الأربعينية

وقد غلط فى طريق الخلوة والأربعينية قوم وحرفوا الكلم عن مواضعه ودخل عليهم الشيطان، وفتح عليهم بابا من الغرور، ودخلوا الخلوة على غير أصل مستقيم من تادية حق الخلوة بالإخلاص، وسمعوا أن المشايخ والصوفية كانت لهم خلوات، وظهرت لهم وقائع، وكوشفوا بغرائب وعجائب، فدخلوا الخلوة لطلب ذلك، وهذا عين الاعتلال ومحض الضلال. وإنما القوم اختاروا الخلوة والوحدة لسلامة الدين، وتفقد أحوال النفس، وإخلاص العمل لله تعالى.

نقل عن ابى عمرو الأنماطى انه قال: لن يصفو للعاقل فهم الأخير إلا بإحكامه ما يجب عليه من إصلاح الحال الأول والمواطن التى ينبغى أن يعرف منها أمزداد هو أم منتقص، فعليه أن يطلب مواضع الخلوة لكى لا يعارضه شاغل فيفسد عليه ما يريده.

انبأنا طاهر بن أبى الفضل إجازة عن أبى بكر بن خلف إجازة قال انبأنا ابو عبد الرحمن قال سمعت أبا تميم المغربى يقول: من اختار الخلوة على الصحبة فينبغى أن يكون خاليا من جميع الأفكار إلا ذكر ربه عز وجل، وخاليا من جميع المرادات إلا مراد ربه، وخاليا من مطالبة النفس من جميع الأسباب، فإن لم يكن بهذه الصفة فإن خلوته توقعه فى فتنة أو بلية.

أخبرنا أبو زرعة إجازة قال أنا أبو بكر إجازة قال أنا أبو عبد الرحمن قال سمعت منصورا يقول سمعت محمد بن حامد يقول: جاء رجل إلى زيارة ابى بكر الوراق وقال له: أوصنى، فقال: وجدت خير الدنيا والآخرة فى الخلوة والقلة، ووجدت شرهما فى الكثرة والاختلاط، فمن دخل الخلوة معتلا فى دخوله دخل عليه الشيطان، وسول له أنواع الطغيان، وامتلأ من الغرور

والمحال، فظن أنه على حسن الحال، فقد دخلت الفتنة على قوم دخلوا الخلوة بغير شروطها، وأقبلوا على ذكر من الأذكار، واستجمعوا نفوسهم بالعزلة عن الخلوة، ومنعوا الشواغل من الحواس كفعل الرهابين والبراهمة والفلاسفة.

والوحدة فى جمع الهم لها تأثير فى صفاء الباطن مطلقا، فما كان من ذلك بحسن سياسة الشرع وصدق المتابعة لرسول الله ﷺ أنتج تنوير القلب، والزهد فى الدنيا، وحلاوة الذكر، والمعاملة لله بالإخلاص من الصلاة والتلاوة وغير ذلك، وما كان من ذلك من غير سياسة الشرع ومتابعة رسول الله ﷺ ينتج صفاء فى النفس يستعان به على اكتساب علوم الرياضة مما يعتنى به الفلاسفة والدهريون خذلهم الله تعالى.

وكلما اكثر من ذلك بعد عن الله، ولا يزال المقبل على ذلك يستغويه الشيطان بما يكتسب من العلوم الرياضية، أو بما قد يتراءى له من صدق الخاطر وغير ذلك، حتى يركن إليه الركون التام، ويظن أنه فاز بالمقصود، ولا يعلم أن هذا الفن من الفائدة غير ممنوع من النصارى والبراهمة، وليس هو المقصود من الخلوة يقول بعضهم إن الحق يريد منك الاستقامة وأنت تطلب الكرامة.

وقد يفتح على الصادقين من خوارق العادات وصدق الفراسة، ويتبين ما سيحدث فى المستقبل، وقد لا يفتح عليهم ذلك، ولا يقدح فى حالهم عدم ذلك، وإنما يقدح فى حالهم الانحراف عن حد الاستقامة، فما يفتح من ذلك على الصادقين يصير سببا لمزيد إيقانهم، والداعى لهم إلى صدق المجاهدة والمعاملة والزهد فى الدنيا والتخلق بالأخلاق الحميدة.

وما يفتح من ذلك على ما ليس تحت سياسة الشرع يصير سببا لمزيد بعده وغروره وحماقته، واستطالته على الناس وازدرائه بالخلق، ولا يزال به حتى يخلع ربقة الإسلام عن عنقه، وينكر الحدود والأحكام والحلال والحرام،

ويظن ان المقصود من العبادات ذكر الله تعالى، ويترك متابعة الرسول ﷺ، ثم يتدرج من ذلك إلى تلحد وتزندق، نعوذ بالله من الضلال.

وقد يلوح لأقوام خيالات يظنونها وقائع، ويشبهونها بوقائع المشايخ من غير علم بحقيقة ذلك، فمن أراد تحقيق ذلك فليعلم أن العبد إذا أخلص لله واحسن نيته وقعد فى الخلوة أربعين يوما أو اكثر، فمنهم من يباشر باطنه صفو اليقين، ويرفع الحجاب عن قلبه، ويصير كما قال قائلهم رأى قلبى ربى.

وقد يصل إلى هذا المقام تارة بإحياء الأوقات بالصالحات، وكف الجوارح، وتوزيع الأوراد من الصلاة والتلاوة والذكر على الأوقات، وتارة يبادئه الحق لموضع صدقه، وقوة استعداده ومبادئه، من غير عمل وجد منه، وتارة يجد ذلك بملازمة ذكر واحد من الأذكار، لأنه لا يزال يردد ذلك الذكر ويقوله، وتكون عبادته الصلوات الخمس بسننها الراتبة فحسب، وسائر اوقاته مشغولة بالذكر الواحد، لا يتخللها فتور، ولا يوجد منه قصور، ولا يزال يردد ذلك الذكر ملتزما به، حتى فى طريق الوضوء وساعة الأكل لا يفتر عنه.

واختار جماعة من المشايخ من الذكر كلمة:

لا إله إلا الله.

وهذه الكلمة لها خاصية فى تنوير الباطن وجمع الهمم إذا داوم عليها صادق مخلص، وهى من مواهب الحق لهذه الأمة، وفيها خاصية لهذه الأمة فيما حدثنا شيخنا ضياء الدين إملاء قال أنا أبو القاسم الدمشقى الحافظ قال أنا عبد الكريم بن الحسين قال أنا عبد الوهاب الدمشقى قال أنا محمد بن خريم قال حدثنا هشام بن عمار قال حدثنا الوليد بن مسلم قال أنا عبد الرحمن بن زيد عن أبيه: أن عيسى بن مريم عليه السلام قال: رب أنبئنى

عن هذه الأمة المرحومة، قال: أمة محمد عليه الصلاة والسلام، علماء حنفاء اتقياء حلماء أصفياء حكماء كأنهم أنبياء، يرضون منى بالقليل من العطاء، وأرضى منهم باليسير من العمل، وأدخلهم الجنة بلا إله إلا الله، يا عيسى هم أكثر سكان الجنة، لأنها لم تذل ألسن قوم قط بلا إله إلا الله كما ذلت ألسنتهم، ولم تذل رقاب قوم قط بالسجود كما ذلت رقابهم.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: إن هذه الآية مكتوبة فى التوراة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾[1] وحرز للمؤمنين وكنزا للأميين، أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب فى الأسواق، ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح، ولن أقبضه حتى تقام به الملة المعوجة بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتحوا أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا.

فلا يزال العبد فى خلوته يردد هذه الكلمة على لسانه، مع مواطأة القلب، حتى تصير الكلمة متأصلة فى القلب، مزيلة لحديث النفس، ينوب معناها فى القلب عن حديث النفس، فإذا استولت الكلمة، وسهلت على اللسان يتشربها القلب، فلو سكت اللسان لم يسكت القلب، ثم تتجوهر فى القلب، وبتجوهرها يستكن نور اليقين فى القلب، حتى إذا ذهبت صورة الكلمة من اللسان والقلب لا يزال نورها متجوهرا، ويتخذ الذكر مع رؤية عظمة المذكور سبحانه وتعالى، ويصير الذكر حينئذ ذكر الذات، وهذا الذكر هو المشاهدة والمكاشفة والمعاينة، أعنى ذكر الذات بتجوهر نور الذكر، وهذا هو المقصد الأقصى من الخلوة.

وقد يحصل هذا من الخلوة لا بذكر الكلمة، بل بتلاوة القرآن إذا أكثر من التلاوة، واجتهد فى مواطأة القلب حديث النفس، فيدخل على العبد سهولة فى التلاوة والصلاة، ويتنور الباطن بتلك السهولة فى التلاوة والصلاة،

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٤٥.

وبتجوهر نور الكلام فى القلب، ويكون منه أيضا ذكر الذات، ويجتمع نور الكلام فى القلب مع مطالعة عظمة المتكلم سبحانه وتعالى، ودون هذه الموهبة ما يفتح على العبد من العلوم الإلهامية اللدنية، وإلى حين بلوغ العبد هذا المبلغ من حقيقة الذكر والتلاوة إذا صفا باطنه، قد يغيب فى الذكر من كمال أنسه وحلاوة ذكره، حتى يلتحق فى غيبته فى الذكر بالنائم.

وقد تتجلى له الحقائق فى لبسة الخيال أولا، كما تنكشف الحقائق للنائم فى لبسة الخيال، كمن رأى فى المنام أنه قتل حية، فيقول له المعبر تظفر بالعدو، فظفره بالعدو هو كشف كاشفه الحق تعالى به، وهذا الظفر روح مجرد صاغ ملك الرؤيا له جسدا لهذا الروح من خيال الحية، فالروح الذى هو كشف الظفر اخبار الحق، ولبسة الخيال الذى هو بمثابة الجسد مثال انبعث من نفس الرائى فى المنام من استصحاب القوة الوهمية والخيالية من اليقظة، فيتألف روح كشف الظفر مع جسد مثال الحية، فافتقر إلى التعبير، إذ لو كشف بالحقيقة التى هى روح الظفر من غير هذا المثال الذى هو بمثابة الجسد ما احتاج إلى التعبير، فكان يرى الظفر ويصح الظفر.

وقد يتجرد الخيال باستصحاب الخيال والوهم من اليقظة فى المنام من غير حقيقة، فيكون المنام أضغاث أحلام لا يعبر، وقد يتجرد لصاحب الخلوة المنبعث من ذاته، من غير أن يكون وعاء لحقيقة، فلا يبنى على ذلك ولا يلتفت إليه، فليس ذلك واقعة وإنما هو خيال، فأما إذا غاب الصادق فى ذكر الله تعالى حتى يغيب عن المحسوس، بحيث لو دخل عليه داخل من الناس لا يعلم به لغيبته فى الذكر.

فعند ذلك قد ينبعث فى الابتداء من نفسه مثال وخيال ينفخ فيه روح الكشف، فإذا عاد من غيبته فإما يأتيه تفسيره من باطنه موهبة من الله تعالى، وإما يفسره له شيخه كما يعبر المنام، ويكون ذلك واقعه، لأنه كشف حقيقة فى لبسة مثال، وشرط صحة الواقعة الإخلاص فى الذكر أولا، ثم الاستغراق

فى الذكر ثانيا، وعلامة ذلك الزهد فى الدنيا وملازمة التقوى، لأن الله جعله بما يكاشف به فى واقعة من غير لبسة المثال، فيكون ذلك كشفا وإخبارا من الله تعالى إياه، ويكون ذلك تارة بالرؤية وتارة بالسماع، وقد يسمع من باطنه، وقد يطرق ذلك من الهواء لا من باطنه كالهواتف، يعلم ذلك أمرا يريد الله إحداثه له أو لغيره، فيكون إخبار الله إياه بذلك مزيدا ليقينه، أو يرى فى المنام حقيقة الشيء.

نقل عن بعضهم أنه أتى بشراب فى قدح، فوضعه من يده وقال: قد حدث فى العالم حدث ولا أشرب هذا دون أن أعلم ما هو، فانكشف له أن قوما دخلوا مكة وقتلوا فيها.

وحكى عن أبى سليمان الخواص قال: كنت راكبا حمارا لى يوما، وكان يؤذيه الذباب فيطأطئ راسه، فكنت اضرب راسه بخشبة كانت فى يدى، فرفع الحمار راسه إلى وقال اضرب فإنك على راسك تضرب. قيل له: يا أبا سليمان وقع لك ذلك أو سمعته؟ فقال: سمعته يقول كما سمعتنى.

وحكى عن أحمد بن عطاء الروزبارى قال: كان لى مذهب فى أمر الطهارة، فكنت ليلة من الليالى استنجى إلى أن مضى ثلث الليل ولم يطب قلبى، فتضجرت فبكيت وقلت: يا رب العفو، فسمعت صوتا ولم أر أحدا يقول: يا أبا عبد الله العفو فى العلم. وقد يكاشف الله تعالى عبده بآيات وكرامات تربية للعبد وتقوية ليقينه وإيمانه.

قيل: كان عند جعفر الخلدى رحمه الله فص له قيمة، وكان يوما من الأيام راكبا فى السمارية فى دجلة، فهم أن يعطى الملاح قطعة، وحل الخرقة فوقع الفص فى الدجلة، وكان عنده دعاء للضالة مجرب، وكان يدعو به، فوجد الفص فى وسط أوراق كان يتفحصها. والدعاء هو أن يقول: [**يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه أجمع على ضالتى**].

وسمعت شيخنا بهمذان حكى له شخص أنه كوشف فى بعض خلواته بولد له فى جيحون، كاد يسقط فى الماء من السفينة، قال فزجرته فلم يسقط، وكان هذا الشخص بنواحى همذان وولده بجيحون، فلما قدم الولد أخبر أنه كاد يسقط فى الماء فسمع صوت والده فلم يسقط.

وقال عمر ﷺ: يا سارية الجبل، على المنبر بالمدينة، وسارية بنهاوند، فأخذ سارية نحو الجبل وظفر بالعدو، فقيل لسارية: كيف علمت ذلك؟ فقال: سمعت صوت عمر وهو يقول يا سارية الجبل.

سئل ابن سالم وكان قد قال: للإيمان أربعة أركان، ركن منه الإيمان بالقدرة، وركن منه الإيمان بالحكمة، وركن منه التبرى من الحول والقوة، وركن منه الاستعانة بالله عز وجل فى جميع الأشياء. قيل له: ما معنى قولك الإيمان بالقدرة؟ فقال: هو أن تؤمن ولا تنكر أن يكون لله عبد بالمشرق قائما على يمينه، ويكون من كرامة الله له أن يعطيه من القوة ما ينقلب من يمينه على يساره فيكون بالمغرب، نؤمن بجواز ذلك وكونه.

وحكى لى فقير أنه كان بمكة وأرجف على شخص ببغداد أنه قد مات، فكاشفه الله بالرجل وهو راكب يمشى فى سوق بغداد، فأخبر إخوانه أن الشخص لم يمت، وكان كذلك حتى ذكر لى هذا الشخص أنه فى تلك الحالة التى كوشف بالشخص راكبا، قال رأيته فى السوق وأنا أسمع بأذنى صوت المطرقة من الحداد فى سوق بغداد.

وكل هذه مواهب الله تعالى، وقد يكاشف بها قوم وتعطى، وقد يكون فوق هؤلاء من لا يكون له شيء من هذا، لأن هذه كلها تقوية اليقين، ومن منح صرف اليقين لا حاجة له إلى شيء من هذا.

فكل هذه الكرامات دون ما ذكرناه من تجوهر الذكر فى القلب ووجود ذكر الذات، فإن تلك الحكمة فيها تقوية للمريدين، وتربية للسالكين،

ليزدادوا بها يقينا يجذبون به إلى مراغمة النفوس، والسلو عن ملاذ الدنيا، ويستنهض منهم بذلك ساكن عزمهم لعمارة الأوقات بالقربات، فيتروحون بذلك، ويرقون لطريقة من كوشف بصرف اليقين من ذلك، لمكان أن نفسه أسرع إجابة، وأسهل انقيادا، وأتم استعدادا.

والأولون استلين بذلك، منهم ما استوعر واستكشف، منهم ما استتر، وقد لا يمنع صور ذلك الرهابين والبراهمة، ممن هو غير منتهج سبل الهدى، وراكب طريق الردى، ليكون ذلك فى حقهم مكرا واستدراجا، ليستحسنوا حالهم، ويستقروا فى مقار الطرد والبعد إبقاء لهم فيما أراد الله منهم من العمى والضلال، والردى والوبال، حتى لا يغتر السالك بيسير شيء يفتح له، ويعلم أنه لو مشى على الماء والهواء لا ينفعه ذلك حتى يؤدى حق التقوى والزهد.

فأما من تعوق بخيال، أو قنع بمحال ولم يحكم أساس خلوته بالإخلاص يدخل الخلوة بالزور، ويخرج بالغرور، فيرفض العبادات ويستحقرها، ويسلبه الله تعالى لذة المعاملة، وتذهب عن قلبه هيبة الشريعة، ويفتضح فى الدنيا والآخرة.

فليعلم الصادق أن المقصود من الخلوة التقرب إلى الله تعالى بعمارة الأوقات، وكف الجوارح عن المكروهات، فيصلح لقوم من أرباب الخلوة إدامة الأوراد، وتوزيعها على الأوقات، ويصلح لقوم ملازمة ذكر واحد، ويصلح لقوم دوام المراقبة، ويصلح لقوم الانتقال من الذكر إلى الأوراد، ولقوم الانتقال من الأوراد إلى الذكر، ومعرفة مقادير ذلك يعلمه المصحوب للشيخ، المطلع على اختلاف الأوضاع وتنويعها، مع نصحه للأمة وشفقته على الكافة، يريد المريد لله لا لنفسه، غير مبتلى بهوى نفسه، محبا للاستتباع. ومن كان محبا للاستتباع فما يفسده مثل هذا أكثر مما يصلحه.

الباب الثامن والعشرون
فى كيفية الدخول فى الأربعينية

روى أن داود عليه السلام لما ابتلى بالخطيئة خر لله ساجدا أربعين يوما وليلة حتى أتاه الغفران من ربه. وقد تقرر أن الوحدة والعزلة ملاك الأمر ومتمسك أرباب الصدق، فمن استمرت أوقاته على ذلك فجميع عمره خلوة وهو الأسلم لدينه، فإن لم يتيسر له ذلك وكان مبتلى بنفسه أولا ثم بالأهل والأولاد ثانيا، فليجعل لنفسه من ذلك نصيبا.

نقل عن سفيان الثورى فيما روى أحمد بن حرب عن خالد بن زيد عنه أنه كان يقال: ما أخلص العبد لله أربعين صباحا إلا أنبت الله سبحانه الحكمة فى قلبه، وزهده الله فى الدنيا، ورغبه فى الآخرة، بصره داء الدنيا ودواءها، فيتعاهد العبد نفسه فى كل سنة مرة.

وأما المريد الطالب إذا أراد أن يدخل الخلوة، فأكمل الأمر فى ذلك أن يتجرد من الدنيا، ويخرج كل ما يملكه ويغتسل غسلا كاملا بعد الاحتياط للثوب والمصلى بالنظافة والطهارة، ويصلى ركعتين، ويتوب إلى الله تعالى من ذنوبه، ببكاء وتضرع، واستكانة وتخشع، ويسوى بين السريرة والعلانية، ولا ينطوى على غل وغش وحقد وحسد وخيانة.

ثم يقعد فى موضع خلوته ولا يخرج إلا لصلاة الجمعة وصلاة الجماعة، فترك المحافظة على صلاة الجماعة غلط وخطأ، فإن وجود تفرقة فى خروجه يكون له شخص يصلى معه جماعة فى خلوته، ولا ينبغى أن يرضى بالصلاة منفردا البتة، فيترك الجماعة يخشى عليه آفات، وقد رأينا من يتشوش عقله فى خلوته، ولعل ذلك بشؤم إصراره على ترك صلاة الجماعة، غير أنه ينبغى أن يخرج من خلوته لصلاة الجماعة وهو ذاكر لا يفتر عن الذكر، ولا يكثر إرسال الطرف إلى ما يرى، ولا يصغى إلى ما يسمع،

لأن القوة الحافظة والمتخيلة كلوح ينتقش بكل مرئى ومسموع، فيكثر ذلك الوسواس وحديث النفس والخيال، ويجتهد أن يحضر الجماعة بحيث يدرك مع الإمام تكبيره الإحرام، فإذا سلم الإمام وانصرف ينصرف إلى خلوته، ويتقى فى خروجه استجلاء نظر الخلق إليه، وعلمهم بجلوسه فى خلوته، فقد قيل: لا تطمع فى المنزلة عند الله وأنت تريد المنزلة عند الناس.

وهذا أصل ينفسد به كثير من الأعمال إذا أهمل، وينصلح به كثير من الأحوال إذا اعتبر. ويكون فى خلوته جاعلا وقته شيئا واحدا موهوبا لله بإدامة فعل الرضا، إما تلاوة أو ذكرا أو صلاة أو مراقبة، وأى وقت فتر عن هذه الأقسام ينام، فإن أراد تعين أعداد من الركعات ومن التلاوة والذكر، أتى بذلك شيئا فشيئا، وإن أراد أن يكون بحكم الوقت يعتمد أخف ما على قلبه من هذه الأقسام، فإذا فتر عن ذلك ينام،وإن أراد أن يبقى فى سجود واحد أو ركوع واحد أو ركعة واحدة أو ركعتين ساعة أو ساعتين فعل.

ويلازم فى خلوته إدامة الوضوء، ولا ينام إلا عن غلبة بعد أن يدفع النوم عن نفسه مرات، فيكون هذا شغله ليله ونهاره، وإذا كان ذكرا لكلمة لا إله إلا الله وسئمت النفس الذكر باللسان يقولها بقلبه من غير حركة اللسان. وقد قال سهل بن عبد الله: إذا قلت لا إله إلا الله مد الكلمة وانظر إلى قدم الحق فأثبته وأبطل ما سواه وليعلم أن الأمر كالسلسلة يتداعى حلقة حلقة، فليكن دائم التلزم بفعل الرضا.

وأما قوت من فى الأربعينية والخلوة، فالأولى أن يقتنع بالخبز والملح، ويتناول كل ليلة رطلا واحدا بالبغدادى، يتناوله بعد العشاء الآخرة، وإن قسمه نصفين يأكل أول الليل نصف رطل وآخر الليل نصف رطل فيكون ذلك أخف للمعدة، وأعون على قيام الليل وأحيائه بالذكر والصلاة وإن أراد تأخير فطوره إلى السحر فليفعل.

وإن لم يصبر على ترك الإدام يتناول الإدام، وإن كان الإدام شيئا يقوم مقام الخبز ينقص من الخبز بقدر ذلك، وإن أراد التقلل من هذا القدر أيضا ينقص كل ليلة دون اللقمة، بحيث ينتهى تقلله فى العشر الأخير من الأربعين إلى نصف رطل.

وإن قوى قنع النفس بنصف رطل من أول الأربعين ونقص يسيرا كل ليلة بالتدريج، حتى يعود فطوره إلى ربع رطل فى العشر الأخير.

وقد اتفق مشايخ الصوفية على أن بناء أمرهم على أربعة أشياء: قلة الطعام، وقلة المنام، وقلة الكلام، والاعتزال عن الناس، وقد جعل للجوع وقتان: أحدهما آخر الأربع والعشرين ساعة، فيكون من الرطل لكل ساعتين أوقية بأكلة واحدة، يجعلها بعد العشاء الآخرة، أو يقسمها أكلتين كما ذكرنا، والوقت الآخر على رأس اثنتين وسبعين ساعة، فيكون الطى ليلتين والإفطار فى الليلة الثالثة، ويكون لكل يوم وليلة ثلث رطل، وبين هذين الوقتين وقت وهو أن يفطر من كل ليلتين ليلة، ويكون لكل يوم وليلة نصف رطل، وهذا ينبغى أن يفعله إذا لم ينتج ذلك عليه سآمة وضجرا، وقلة انشراح فى الذكر والمعاملة، فإذا وجد شيئا من ذلك فليفطر كل ليلة ويأكل الرطل فى الوقتين أو الوقت الواحد، فالنفس إذا أخذت بالإفطار من كل ليلتين ليلة ثم ردت إلى الإفطار كل ليلة تقنع، وإن سومحت بالإفطار كل ليلة لا تقنع بالرطل وتطلب الإدام والشهوات. وقس على هذا، فهى إن أطعمت طمعت، وإن أقنعت قنعت.

وقد كان بعضهم ينقص كل ليلة حتى يرد النفس إلى أقل قوتها. ومن الصالحين من كان يعبر القوت بنوى التمر، وينقص كل ليلة نواة.

ومنهم من كان يعبر بعود رطب، وينقص كل ليلة بقدر نشاف العود.

ومنهم من كان ينقص كل ليلة ربع سبع الرغيف، حتى يفنى الرغيف فى شهر. ومنهم من كان يؤخر الأكل ولا يعمل فى تقليل القوت، ولكن يعمل فى تأخيره بالتدريج، حتى تندرج ليلة فى ليلة، وقد فعل ذلك طائفة حتى انتهى طيهم إلى سبعة أيام، وعشرة أيام، وخمسة عشر يوما، إلى الأربعين.

وقد قيل لسهل بن عبد الله: هذا الذى يأكل فى كل أربعين وأكثر أكلة أين يذهب لهب الجوع عنه؟ قال: يطفئه النور. وقد سألت بعض الصالحين عن ذلك فذكر لى كلاما بعبارة دلت على أنه يجد فرحا بربه ينطفئ معه لهب الجوع، وهذا فى الخلق واقع أن الشخص يطرقه فرح وقد كان جائعا فيذهب عنه الجوع. وهكذا فى طرق الخوف يقع ذلك.

ومن فعل ذلك ودرج نفسه فى شيء من هذه الأقسام التى ذكرناها لا يؤثر ذلك فى نقصان عقله واضطراب جسمه، إذا كان فى حماية الصدق والإخلاص، وإنما يخشى فى ذلك وفى دوام الذكر على من لا يخلص لله تعالى.

وقد قيل: حد الجوع أن لا يميز بين الخبز وغيره مما يؤكل. ومتى عيبت النفس الخبز فليس بجائع، وهذا المعنى قد يوجد فى آخر الحدين بعد ثلاثة أيام وهذا جوع الصديقين، وطلب الغذاء عند ذلك يكون ضرورة لقوام الجسد والقيام بفرائض العبودية، ويكون هذا حد الضرورة لمن لا يجتهد فى التقليل بالتدريج. فأما من درج نفسه فى ذلك فقد يصير على أكثر من ذلك إلى الأربعين كما ذكرنا. وقد قال بعضهم: حد الجوع أن يبزق، فإذا لم يقع الذباب على بزاقه يدل هذا على خلو المعدة من الدسومة، وصفاء البزاق كالماء الذى لا يقصده الذباب.

روى أن سفيان الثورى وإبراهيم بن أدهم ﷺ كانا يطويان ثلاثا ثلاثا، وكان أبوبكر الصديق ﷺ يطوى ستا. وكان عبد الله ابن الزبير ﷺ يطوى سبعة أيام.

واشتهر حال جدنا محمد بن عبد الله المعروف بعمويه رحمه الله، وكان صاحب أحمد الأسود الدينورى أنه كان يطوى أربعين يوما. وأقصى ما بلغ فى هذا المعنى الطى رجل أدركنا زمانه، وما رأيته كان فى أبهر يقال له الزاهد خليفة، كان يأكل فى كل شهر لوزة، ولم نسمع أنه بلغ فى هذه الأمة أحد بالطى والتدريج إلى هذا الحد، وكان فى أول أمره على ما حكى ينقص القوت بنشاف العود، ثم طوى حتى انتهى إلى اللوزة فى الأربعين.

ثم إنه قد يسلك هذا الطريق جمع من الصادقين، وقد يسلك غير الصادق هذا لوجود هوى مستكن فى باطنه، يهون عليه ترك الأكل إذا كان له استجلاء لنظر الخلق، وهذا عين النفاق نعوذ بالله من ذلك. والصادق ربما يقدر على الطى إذا لم يعلم بحاله أحد، وربما تضعف عزيمته فى ذلك إذا علم بأنه يطوى، فإن صدقه فى الطى ونظره إلى من يطوى لأجله يهون عليه الطى.

فإذا علم به أحد تضعف عزيمته فى ذلك، وهذا علامة الصادق، فمهما احس فى نفسه أنه يحب أن يرى بعين التقلل فليتهم نفسه، فإن فيه شائبة النفاق، ومن يطوى لله يعوضه الله تعالى فرحا فى باطنه ينسيه الطعام، وقد لا ينسى الطعام ولكن امتلاء قلبه بالأنوار يقوى جاذب الروح الروحانى، فيجذبه إلى مركزه ومستقره من العالم الروحانى، وينفر بذلك عن أرض الشهوة النفسانية.

وأما أثر جاذب الروح إذا تخلف عن جاذب النفس عند كمال طمانينتها، وانعكاس أنوار الروح عليها بواسطة القلب المستنير، فأجل من

جذب المغناطيس للحديد، إذ المغناطيس يجذب الحديد لروح فى الحديد مشاكل للمغناطيس، فيجذبه بنسبة الجنسية الخاصة، فإذا تجنست النفس بعكس نور الروح الواصل إليها بواسطة القلب يصير فى النفس روح استمدها القلب من الروح، وأداها إلى النفس، فتجذب الروح النفس بجنسية الروح الحادثة فيها، فيزدرى الأطعمة الدنيوية والشهوات الحيوانية، ويتحقق عنده قول رسول الله ﷺ «أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى».

ولا يقدر على ما وصفناه إلا عبد تصير أعماله وأقواله وسائر أحواله ضرورة، فيتناول من الطعام أيضا ضرورة، ولو تكلم مثلا بكلمة من غير ضرورة التهب فيها نار الجوع التهاب الحلفاء بالنار، لأن النفس الراقدة تستيقظ بكل ما يوقظها، وإذا استيقظت نزعت إلى هواها. فالعبد المراد بهذا إذا فطن لسياسة النفس، ورزق العلم، سهل عليه الطى، وتداركته المعونة من الله تعالى، لا سيما إن كوشف بشيء من المنح الإلهية.

وقد حكى لى فقير أنه اشتد به الجوع، وكان لا يطلب ولا يتسبب. قال فلما انتهى جوعى إلى الغاية بعد أيام فتح الله على بتفاحة، قال فتناولت التفاحة وقصدت أكلها، فلما كسرتها كوشفت بحوراء نظرت إليها عقيب كسرها، فحدث عندى من الفرح بذلك ما استغنيت عن الطعام أياما. وذكر لى أن الحوراء خرجت من وسط التفاحة، والإيمان بالقدرة ركن من أركان الإيمان، فسلم ولا تنكر.

وقال سهل بن عبد الله رحمه الله: من طوى أربعين يوما ظهرت له القدرة من الملكوت وكان يقال: لا يزهد العبد حقيقة الزهد الذى لا مشوبة فيه إلا بمشاهدة قدرة من الملكوت.

وقال الشيخ أبو طالب المكى رحمه الله: عرفنا من طوى أربعين يوما برياضة النفس فى تأخير القوت. وكان يؤخر فطره كل ليلة إلى نصف

سبع الليل، حتى يطوى ليلة فى نصف شهر، فيطوى الأربعين فى سنة وأربعة اشهر، فتندرج الأيام والليالى حتى يكون الأربعين بمنزلة يوم واحد.

وذكر لى ان الذى فعل ذلك ظهرت له آيات من الملكوت، وكوشف بمعانى قدرة من الجبروت، تجلى الله بها له كيف شاء.

واعلم أن هذا المعنى من الطى والتقلل، لو انه عين الفضيلة ما فات أحدا من الأنبياء، ولكان رسول الله ﷺ يبلغ من ذلك إلى أقصى غاياته، ولا شك أن لذلك فضيلة لا تنكر، ولكن لا ينحصر مواهب الحق تعالى فى ذلك، فقد يكون من يأكل كل يوم أفضل ممن يطوى أربعين يوما، وقد يكون من لا يكاشف بشيء من معانى القدرة أفضل ممن يكاشف بها إذا كاشفه الله بصرف المعرفة. فالقدرة أثر من القادر.

ومن أهل لقرب القادر لا يستغرب ولا يستنكر شيئا من القدرة، ويرى القدرة تتجلى له من سجف أجزاء علم الحكمة، فإذا أخلص العبد لله تعالى أربعين يوما واجتهد فى ضبط أحواله بشيء من الأنواع التى ذكرنا من العمل والذكر والقوت وغير ذلك، تعود بركة تلك الأربعين على جميع أوقاته وساعاته، وهو طريق حسن اعتمده طائفة من الصالحين. وكان جماعة من الصالحين يختارون للأربعين ذا القعدة وعشر ذى الحجة، وهى أربعون موسى عليه السلام.

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إجازة قال أنا أبو منصور محمد ابن عبد الملك بن خيرون إجازة قال أنا أبو محمد الحسن بن على الجوهرى إجازة قال أنا أبو عمر محمد بن العباس قال حدثنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد قال حدثنا الحسين بن الحسن المروزى قال حدثنا عبد الملك ابن المبارك قال حدثنا أبو معاوية الضرير قال حدثنا الحجاج عن مكحول قال: قال رسول الله ﷺ: «من أخلص لله تعالى العبادة أربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه».

الباب التاسع والعشرون
فى أخلاق الصوفية وشرح الخلق

الصوفية أوفر الناس حظا فى الاقتداء برسول ﷺ، وأحقهم بإحياء سنته، والتخلق بأخلاق رسول الله ﷺ من حسن الاقتداء وإحياء سنته على ما أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين شيخ الإسلام ابو أحمد عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح عبد الملك بن أبى القاسم الهروى قال أنا أبو نصر عبد العزيز ابن محمد الترياقى قال أنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحى قال أنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبى قال أنا أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى قال حدثنا مسلم بن حاتم الأنصارى البصرى قال حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى عن أبيه عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب قال: قال أنس بن مالك ﷺ: قال لى رسول الله ﷺ «يا بنى إن قدرت أن تصبح وتمسى وليس فى قلبك غش لأحد فافعل، ثم قال: يا بنى وذلك من سنتى، ومن أحيا سنتى فقد أحيانى، ومن أحيانى كان معى فى الجنة».

فالصوفية أحيوا سنة رسول الله ﷺ، لأنهم وفقوا فى بدايتهم لرعاية أقواله، وفى وسط حالهم اقتدوا بأعماله، فأثمر لهم ذلك أن تحققوا فى نهاياتهم بأخلاقه، وتحسين الأخلاق لا يتأتى إلا بعد تزكية النفس، وطريق التزكية بالإذعان لسياسة الشرع، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1]. لما كان أشرف الناس وأزكاهم نفسا كان أحسنهم خلقا، قال مجاهد: [على خلق عظيم] أى على دين عظيم. والدين مجموع الأعمال الصالحة والأخلاق الحسنة.

سئلت عائشة ﵂ عن خلق رسول الله ﷺ، قالت: [كان خلقه القرآن].

---

(١) سورة القلم: آية ٤.

قال قتادة: هو ما كان يأتمر به من أمر الله تعالى وينتهى عما نهى الله عنه، وفى قول عائشة: [كان خلقه القرآن]، سر كبير، وعلم غامض، ما نطقت بذلك إلا بما خصها الله تعالى به من بركة الوحى السماوى، وصحبة رسول الله ﷺ، وتخصيصه إياها بكلمة «خذوا شطر دينكم من هذه الحميراء».

وذلك أن النفوس مجبولة على غرائز وطبائع هى من لوازمها وضرورتها، خلقت من تراب، ولها بحسب ذلك طبع، وخلقت من ماء ولها بحسب ذلك طبع، وهكذا من حمأ مسنون، ومن صلصال كالفخار، وبحسب تلك الأصول التى هى مبادئ تكونها استفادت صفات من البهيمية والسبعية والشيطانية. وإلى صفة الشيطنة فى الإنسان إشارة بقوله تعالى ﴿ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾(1). لدخول النار فى الفخار. وقد قال الله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾(2).

والله تعالى بخفى لطفه وعظيم عنايته نزع نصيب الشيطان من رسول الله ﷺ على ما ورد فى حديث حليمة ابنة الحارث أنها قالت فى حديث طويل: فبينا نحن خلف بيوتنا ورسول الله ﷺ مع أخ له من الرضاعة فى بهم لنا جاءنا أخوه يشتد فقال: ذاك أخى القرشى قد جاءه رجلان عليهما ثياب بياض فاضطجعاه فشقا بطنه، فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه فنجده قائما ممتقعا لونه، فاعتنقه أبوه وقال: أى بنى ما شأنك؟ قال: جاءنى رجلان عليهما ثياب بياض فاضطجعانى فشقا بطنى ثم استخرجا منه شيئا فطرحاه ثم رداه كما كان، فرجعنا به معنا.

فقال أبوه: يا حليمة لقد خشيت أن يكون ابنى هذا قد أصيب، انطلقى بنا فلنرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف. قالت فاحتملناه، فما راع

---

(1) سورة الرحمن: آية ١٤.
(2) سورة الرحمن: آية ١٥.

أمه إلا وقد قدمنا به عليها. قالت: ما ردكما، قد كنتما عليه حريصين؟ قلنا: لا والله لا ضير إلا أن الله عز وجل قد أدى عنا وقضينا الذى كان علينا وقلنا نخشى الإتلاف والإحداث نرده إلى أهله.

فقالت: ما ذاك بكما فاصدقانى شأنكما، فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره. فقالت: خشيتما عليه الشيطان كلا والله ما للشيطان عليه سبيل، وإنه لكائن لابنى هذا شأن، ألا أخبركما بخبره؟ قلنا: بلى، قالت: حملت به فما حملت حملا قط أخف منه. قالت: فأريت فى النوم حين حملت به كأنه خرج منى نور قد أضاءت به قصور الشام، ثم وقع حين ولدته وقوعا لم يقعه المولود معتمدا على يديه رافعا رأسه إلى السماء، فدعاه عنكما.

فبعد أن طهر الله رسوله من نصيب الشيطان بقيت النفس الزكية النبوية على حد نفوس البشر لها ظهور بصفات وأخلاق مبقاه على رسول الله ﷺ رحمة للخلق، لوجود أمهات تلك الصفات فى نفوس الأمة بمزيد من الظلمة لتفاوت حال رسول الله ﷺ وحال الأمة، فاستمدت تلك الصفات المبقاة بظهورها فى رسول الله ﷺ بتنزيل الآيات المحكمات بإزائها لقمعها تأديبا من الله لنبيه، رحمة خاصة له، وعامة للأمة، موزعة لنزول الآيات على الآناء والأوقات عند ظهور الصفات.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾[1]. وتثبيت الفؤاد بعد اضطرابه بحركة النفس بظهور الصفات، لارتباط بين القلب والنفس وعند كل اضطراب، آية متضمنة لخلق صالح سنى، إما تصريحا أو تعريضا، كما تحركت النفس الشريفة النبوية لما كسرت رباعيته وصار الدم يسيل على الوجه، ورسول الله ﷺ يمسحه ويقول «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم» فأنزل الله تعالى ﴿ لَيْسَ لَكَ

(١) سورة الفرقان: آية ٣٢.

﴿ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾[1]. فاكتسى القلب النبوى لباس الاصطبار، وفاء بعد الاضطراب إلى القرار.

فلما توزعت الآيات على ظهور الصفات فى مختلف الأوقات، صفت الأخلاق النبوية بالقرآن ليكون خلقه القرآن، ويكون فى إبقاء تلك الصفات فى نفس رسول الله ﷺ معنى قوله عليه السلام «إنما أنسى لأسن» فظهور صفات نفسه الشريفة وقت استنزال الآيات لتأديب نفوس الأمة وتهذيبها رحمة فى حقهم، حتى تتزكى نفوسهم« وتشرف أخلاقهم: قال رسول الله ﷺ «الأخلاق مخزونة عند الله تعالى فإذا أراد الله تعالى بعبد خيرا منحه منها خلقا».

وقال ﷺ «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وروى عنه ﷺ «أن لله تعالى مائة وبضعة عشر خلقا، من آتاه واحدا منها دخل الجنة».

فتقديرها وتحديدها لا يكون إلا بوحى سماوى إلى النبى، المرسل، والله تعالى أبرز إلى الخلق أسماءه منبئة عن صفاته سبحانه وتعالى، وما أظهرها لهم إلا ليدعوهم إليها، ولولا أن الله تعالى أودع فى القوى البشرية التخلق بهذه الأخلاق ما أبرزها لهم دعوة لهم إليها يختص برحمته من يشاء. ولا يبعد والله أعلم أن قول عائشة رضى الله عنها: [كان خلقه القرآن]، فيه رمز غامض وإيماء خفى إلى الأخلاق الربانية، فاحتشمت من الحضرة الإلهية أن تقول كان متخلقا بأخلاق الله تعالى، فعبرت عن المعنى بقولها: [كان خلقه القرآن].

قال الجنيد رحمه الله: كان خلقه عظيما لأنه لم يكن له همة سوى الله تعالى.

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٢٨.

وقال الواسطى رحمه الله تعالى: لأنه جاد بالكونين عوضا عن الحق.

وقيل: لأنه عليه السلام عاشر الخلق بخلقه وباينهم بقلبه، وهذا ما قاله بعضهم فى معنى التصوف: التصوف الخلق مع الخلق، والصدق مع الحق.

وقيل: عظم خلقه حيث صغرت الأكوان فى عينيه بمشاهدة مكونها.

وقيل: سمى خلقه عظيما لاجتماعه مكارم الأخلاق فيه.

وقد ندب رسول الله ﷺ امته إلى حسن الخلق فى حديث أخبرنا به الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال انا أبو الفتح الهروى قال انا أبو نصر الترياقى قال انا أبو محمد الجراحى قال انا أبو العباس المحبوبى قال انا أبو عيسى الحافظ الترمذى قال حدثنا أحمد بن الحسين بن خراض قال حدثنا بن حبان بن هلال قال حدثنا مبارك بن فضالة قال حدثنى عبد الله بن سعيد عن محمد بن المنكدر عن جابر ﷺأن رسول الله ﷺ قال «إن من أحبكم إلى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى مجلسا يوم القيامة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون. قالوا: يا رسول الله علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفقيهقون؟ قال: المتكبرون» والثرثار هو المكثار من الحديث: والمتشدق: المتطاول على الناس فى الكلام.

قال الواسطى رحمه الله: الخلق العظيم أن لا يخاصم ولا يخاصم.

وقال أيضا: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1] لوجدانك حلاوة المطالعة على سرك.

وقال أيضا: لأنك قبلت فنون ما أسديت إليك من نعمى أحسن مما قبله غيرك من الأنبياء والرسل.

---

(١) سورة القلم، آية ٤.

وقال الحسين: لأنه لم يؤثر فيك جفاء الخلق مع مطالعة الحق.

وقيل: الخلق العظيم لباس التقوى، والتخلق بأخلاق الله تعالى، إذ لم يبق للأعواض عنده خطر.

وقال بعضهم: قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ﴾[1]، اتم، لأنه حيث قال (وإنك) احضره، وإذا احضره أغفله وحجبه. وقوله (لأخذنا) اتم، لأن فيه فناء. وفى قول هذا القائل نظر، فهلا قال: إن كان فى ذلك فناء ففى قوله (وإنك) بقاء، وهو بقاء بعد فناء، والبقاء أتم من الفناء، وهذا أليق بمنصب الرسالة، لأن الفناء إنما عز لمزاحمة وجود مذموم، فإذا نزع المذموم من الوجود وتبدلت النعوت، فأى عزة تبقى فى الفناء، فيكون حضوره بالله لا بنفسه، فأى حجبة تبقى هنالك؟.

وقيل: من أوتى الخلق العظيم فقد أوتى أعظم المقامات، لأن للمقامات ارتباطا عاما، والخلق ارتباط بالنعوت والصفات.

وقال الجنيد: اجتمع فيه أربعة أشياء: السخاء، والألفة، والنصيحة، والشفقة.

وقال ابن عطاء: الخلق العظيم أن لا يكون له اختيار، ويكون تحت الحكم مع فناء النفس وفناء المألوفات.

وقال أبو سعيد القرشى: العظيم هو الله، ومن أخلاقه الجود والكرم والصفح والعفو والإحسان، ألا ترى إلى قوله عليه السلام «إن لله مائة وبضعة عشر خلقا من اتى بواحد منها دخل الجنة» فلما تخلق بأخلاق الله تعالى وجد الثناء عليه بقوله ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾[2].

---

(١) سورة الحاقة: الآيات ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) سورة القلم: آية ٤.

وقيل: عظم خلقك لأنك لم ترض بالأخلاق، وسرت ولم تسكن إلى النعوت حتى وصلت إلى الذات.

وقيل: لما بعث محمد ﷺ إلى الحجاز حجزه بها عن اللذات والشهوات، وألقاه في الغربة والجفوة، فلما صفا بذلك عن دنس الأخلاق قال له ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾[1].

وأخبرنا الشيخ الصالح أبو زرعة بن الحافظ أبى الفضل محمد بن طاهر المقدسى عن أبيه قال أنا أبو عمر المليحى قال أنا أبو محمد عبد الله بن يوسف قال أنا أبو سعيد بن الأعرابى قال حدثنا جعفر بن الحجاج الرقى قال أنا أيوب بن محمد الوزان قال حدثنى الوليد قال حدثنى ثابت عن يزيد عن الأوزاعى عن الزهرى عن عروة، عن عائشة رضى الله عنها قالت:

كان نبى ﷺ يقول «مكارم الأخلاق عشرة، تكون فى الرجل ولا تكون فى أبيه، وتكون فى العبد ولا تكون فى سيده، يقسمها الله تعالى لمن أراد به السعادة: صدق الحديث، وصدق البأس، وأن لا يشبع وجاره وصاحبه جائعان، وإعطاء السائل، والمكافأة بالصنائع، وحفظ الأمانة، وصلة الرحم، والتذمم للصاحب، وإقراء الضيف، ورأسهن الحياء».

وسئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، قال «تقوى الله وحسن الخلق».

وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار قال «الغم والفرح» يكون هذا الغم غم فوات الحظوظ العاجلة، لأن ذلك يتضمن التسخط والتضجر، وفيه الاعتراض على الله تعالى وعدم الرضا بالقضاء. ويكون الفرح المشار إليه الفرح بالحظوظ العاجلة المنوع منه بقوله تعالى ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾[2]. وهو الفرح الذى قال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ

(١) سورة القلم: آية ٤.
(٢) سورة الحديد: آية ٢٣.

قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾[1]. لما راى مفاتحه تنوء بالعصبة اولى القوة. فاما الفرح بالأقسام الأخروية فمحمود ينافس فيه. قال الله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾[2].

وفسر عبد الله بن المبارك حسن الخلق فقال: هو بسط الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى.

فالصوفية راضوا نفوسهم بالمكابدات والمجاهدات حتى أجابت إلى تحسين الأخلاق. وكم من نفس تجيب إلى الأعمال ولا تجيب إلى الأخلاق. فنفوس العباد أجابت إلى الأعمال ولا تجيب إلى الأخلاق. فنفوس العباد اجابت إلى الأعمال وجمحت عن الأخلاق، ونفوس الزهاد أجابت إلى بعض الأخلاق دون البعض، ونفوس الصوفية أجابت إلى الأخلاق الكريمة كلها.

اخبرنا الشيخ أبو زرعة إجازة عن أبى بكر بن خلف إجازة عن السلمى قال سمعت حسين بن أحمد بن جعفر يقول سمعت أبا بكر الكتانى يقول: التصوف خلق فمن زاد عليك بالخلق زاد عليك بالتصوف.

فالعباد أجابت نفوسهم إلى الأعمال لأنهم يسلكون بنور الإسلام، والزهاد أجابت نفوسهم إلى بعض الأخلاق لكونهم سلكوا بنور الإيمان. والصوفية أهل القرب سلكوا بنور الإحسان، فلما باشر بواطن أهل القرب والصوفية نور اليقين، وتأصل فى بواطنهم ذلك انصلح القلب بكل أرجائه وجوانبه، لأن القلب يبيض بعضه بنور الإسلام، وبعضه بنور الإيمان، وكله بنور الإحسان والإيقان، فإذا ابيض القلب وتنور انعكس نوره على النفس.

وللقلب وجه إلى النفس ووجه إلى الروح. وللنفس وجه إلى القلب ووجه إلى الطبع والغريزة. والقلب إذا لم يبيض كله لم يتوجه إلى الروح بكله، ويكون ذا وجهين: وجه إلى الروح، ووجه إلى النفس، فإذا ابيض كله

---

(١) سورة القصص: آية ٧٦.

(٢) سورة يونس: آية ١٠.

توجه إلى الروح بكله فيتداركه مدد الروح، ويزداد إشراقا وتنورا، وكلما انجذب القلب إلى الروح انجذبت النفس إلى القلب، وكلما انجذبت توجهت إلى القلب بوجهها الذى يليه، وتنور النفس لتوجهها إلى القلب بوجهها الذى يلى القلب، وعلامة تنورها طمأنينتها.

قال الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ ﴾[1]. وتنور وجهها الذى يلى القلب بمثابة نورانية أحد وجهى الصدف لاكتساب النورانية من اللؤلؤ، وبقاء شيء من الظلمة على النفس لنسبة وجهها الذى يلى الغريزة والطبع، كبقاء ظاهر الصدف على ضرب من الكدر والنقصان مخالفا لنورانية باطنه. وإذا تنور أحد وجهى النفس لجأت إلى تحسين الأخلاق وتبديل النعوت، ولذلك سمى الأبدال أبدالا. والسر الأكبر فى ذلك أن قلب الصوفى بدوام الإقبال على الله، ودوام الذكر بالقلب واللسان يرتقى إلى ذكر الذات، ويصير حينئذ بمثابة العرش، فالعرش قلب الكائنات فى عالم الخلق والحكمة، والقلب عرش فى عالم الأمر والقدرة.

قال سهل بن عبد الله التسترى: القلب كالعرش، والصدر كالكرسى.

وقد ورد عن الله تعالى ‹‹لا يسعنى أرضى ولا سمائى، ويسعنى قلب عبدى المؤمن››.

فإذا اكتحل القلب بنور ذكر الذات، وصار بحرا مواجا من نسمات القرب، جرى فى جداول أخلاق النفس صفاء النعوت والصفات، وتحقق التخلق بأخلاق الله تعالى.

حكى عن الشيخ أبى على الفارمزى أنه حكى عن شيخه أبى القاسم الكركانى أنه قال: إن الأسماء التسعة والتسعين تصير أوصافا للعبد السالك،

---

(١) سورة الفجر، الآيات ٢٧ ـ ٢٨.

وهو بعد فى السلوك غير واصل، ويكون الشيخ عنى بهذا أن العبد يأخذ من كل اسم وصفا يلائم ضعف حال البشر وقصوره، مثل أن يأخذ من اسم الله تعالى الرحيم معنى من الرحمة على قدر قصور البشر.

وكل إشارات المشايخ فى الأسماء والصفات التى هى أعز علومهم على هذا المعنى والتفسير، وكل من توهم بذلك شيئا من الحلول تزندق وألحد. وقد أوصى رسول الله ﷺ معاذا بوصية جامعة لمحاسن الأخلاق، فقال له «يا معاذ أوصيك بتقوى الله، وصدق الحديث، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وحفظ الجوار، ورحمة اليتيم، ولين الكلام، وبذل السلام، وحسن العمل، وقصر الأمل، وقصد العمل، ولزوم الإيمان، والتفقه فى القرآن، وحب الآخرة، والجزع من الحساب، وخفض الجناح، وإياك أن تسب حليما، أو تكذب صادقا، أو تطمع آثما، أو تعصى إماما عادلا، أو تفسد أرضا. أوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر، وأن تحدث لكل ذنب توبة، السر بالسر، والعلانية بالعلانية، بذلك أدب الله عباده، ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب».

وروى معاذ أيضا عن رسول الله ﷺ قال «حف الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب».

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على بإسناده المتقدم إلى الترمذى ﷺ قال أنبأنا أبو كريب قال حدثنا قبيصة بن الليث عن مطرف عن عطاء عن أم الدرداء عن أبى الدرداء قال سمعت النبى عليه السلام يقول «ما من شيء يوضع فى الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة».

وقد كان من أخلاق رسول الله ﷺ أنه كان أسخى الناس، لا يبيت عنده دينار ولا درهم، وإن فضل ولم يجد من يعطيه ويأتيه الليل لا يأوى إلى منزله حتى يبرأ منه، ولا ينال من الدنيا. وأكثر قوت عامه من أيسر ما

يجد من التمر والشعير، ويضع ما عدا ذلك فى سبيل الله، لا يسأل شيئا إلا يعطى، ثم يعود إلى قوت عامه فيؤثر منه، حتى ربما احتاج قبل انقضاء العام.

وكان يخصف النعل، ويرقع الثوب، ويخدم فى مهنة أهله، ويقَطع اللحم معهن.

وكان أشد الناس حياء، وأكثرهم تواضعا.

فصلوات الرحمن عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الباب الثلاثون
فى تفصيل أخلاق الصوفية

من احسن اخلاق الصوفية التواضع، ولا يلبس العبد لبسة افضل من التواضع. ومن ظفر بكنز التواضع والحكمة يقيم نفسه عند كل احد مقدارا يعلم أنه يقيمه. ويقيم كل أحد على ما عنده من نفسه، ومن رزق هذا فقد استراح وأراح، وما يعقلها إلا العالمون.

اخبرنا ابو زرعة عن ابيه الحافظ المقدسى قال أنا عثمان بن عبد الله قال أنا عبد الرحمن بن إبراهيم قال حدثنا عبد الرحمن بن حمدان قال حدثنا ابو حاتم الرازى قال حدثنا النضر بن عبد الجبار قال أنا ابن لهيعة عن يزيد بن ابى حبيب عن سنان بن سعد عن انس أن رسول الله ﷺ قال «إن الله تعالى أوحى إلى أن تواضعوا، ولا يبغى بعضكم على بعض».

وقال عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾[1]. قال «على البر والتقوى والرهبة وذلة النفس».

وكان من تواضع رسول الله ﷺ أن يجيب دعوة الحر والعبد، ويقبل الهدية، ولو أنها جرعة لبن، أو فخذ ارنب، ويكافئ عليها، ويأكلها، ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين.

واخبرنا ابو زرعة إجازة عن ابن خلف إجازة عن السلمى قال أنا أحمد بن على المقرى قال أنا محمد بن المنهال قال حدثنى ابى عن محمد بن جابر اليمانى عن سليمان بن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ «إن من راس التواضع أن تبدأ بالسلام على من لقيت، وترد على من سلم عليك، وأن ترضى بالدون من المجلس، وألا تحب المدحة والتزكية والبر».

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٣١.

وورد أيضا عنه عليه السلام ((طوبى لمن تواضع من غير منقصة، وذل فى نفسه من غير مسكنة)).

سئل الجنيد عن التواضع فقال: خفض الجناح، ولين الجانب.

وسئل الفضيل عن التواضع فقال: تخضع للحق، وتنقاد له، وتقبله ممن قاله، وتسمع منه.

وقال أيضا: من رأى لنفسه قيمة فليس له فى التواضع نصيب.

وقال وهب بن منبه: مكتوب فى كتب الله: إنى أخرجت الذر من صلب آدم، فلم أجد قلبا أشد تواضعا إلى من قلب موسى عليه السلام، فلذلك اصطفيته وكلمته.

وقيل: من عرف كوامن نفسه لم يطمع فى الغلو والشرف، ويسلك سبيل التواضع، فلا يخاصم من يذمه،ويشكر الله لمن يحمده.

وقال أبو حفص: من أحب أن يتواضع قلبه فليصحب الصالحين وليلتزم بحرمتهم، فمن شدة تواضعهم فى أنفسهم يقتدى بهم ولا يتكبر.

وقال لقمان عليه السلام: لكل شيء مطية ومطية العمل التواضع.

وقال النوى: خمسة أنفس أعز الخلق فى الدنيا: عالم زاهد، وفقيه صوفى، وغنى متواضع، وفقير شاكر، وشريف سنى.

وقال الجلاء: لولا شرف التواضع كنا إذا مشينا نخطر.

وقال يوسف بن أسباط وقد سئل ما غاية التواضع قال: أن تخرج من بيتك فلا تلقى أحدا إلا رأيته خيرا منك.

ورأيت شيخنا ضياء الدين أبا النجيب وكنت معه فى سفره إلى الشام وقد بعث بعض أبناء الدنيا له طعاما على رؤوس الأسارى من الإفرنج وهم

فى قيودهم، فلما مدت السفرة والأسارى ينتظرون الأوانى حتى تفرغ، قال للخادم: أحضر الأسارى حتى يقعدوا على السفرة مع الفقراء، فجاء بهم واقعدهم على السفرة صفا واحدا، وقام الشيخ من سجادته ومشى إليهم وقعد بينهم كالواحد منهم، فاكل واكلوا، وظهر لنا وجهة ما نازل باطنه من التواضع لله، والانكسار فى نفسه، وانسلاخه من التكبر عليهم بإيمانه وعلمه وعمله.

اخبرنا ابو زرعة إجازة عن ابى بكر بن خلف إجازة عن السلمى قال سمعت أبا الحسين الفارسى يقول سمعت الجريرى يقول: صح عند أهل المعرفة أن للدين راس مال: خمسة فى الظاهر وخمسة فى الباطن.

فأما اللواتى فى الظاهر، فصدق فى اللسان، وسخاوة فى الملك، وتواضع فى الأبدان، وكف الأذى، واحتماله بلا إباء.

واما اللواتى فى الباطن، فحب وجود سيده، وخوف الفراق من سيده، ورجاء الوصول إلى سيده، والندم على فعله، والحياء من ربه.

وقال يحيى بن معاذ: التواضع فى الخلق حسن،

ولكن فى الأغنياء أحسن، والتكبر سمج فى الخلق، ولكن فى الفقراء أسمج.

وقال ذو النون: ثلاثة من علامات التواضع: تصغير النفس معرفة بالعيب، وتعظيم الناس حرمة للتوحيد، وقبول الحق والنصيحة من كل واحد.

وقيل لأبى يزيد: متى يكون الرجل متواضعا؟ قال: إذا لم ير لنفسه حقا ما ولا حالا من علمه بشرها وازدرائها، ولا يرى أن فى الخلق شرا منه.

قال بعض الحكماء: وجدنا التواضع مع الجهل والبخل أحمد من الكبر مع الأدب والسخاء.

وقيل لبعض الحكماء: هل تعرف نعمة لا يحسد عليها، وبلاء لا يرحم صاحبه عليه؟ قال: نعم، أما النعمة فالتواضع، وأما البلاء فالكبر.

والكشف عن حقيقة التواضع أن التواضع رعاية الاعتدال بين الكبر والضعة، فالكبر رفع الإنسان نفسه فوق قدره، والضعة وضع الإنسان نفسه مكانا يزرى به ويقضى إلى تضييع حقه.

وقد انفهم من كثير من إشارات المشايخ فى شرح التواضع أشياء إلى حد أقاموا التواضع فيه مقام الضعة، ويلوح فيه الهوى من أوج الإفراد إلى حضيض التفريط، ويوهم انحرافا عن حد الاعتدال، ويكون قصدهم فى ذلك المبالغة فى قمع نفوس المريدين خوفا عليهم من العجب والكبر، فقل أن ينفك مريد من مبادئ ظهور سلطان الحال من العجب، حتى لقد نقل عن جمع من الكبار كلمات مؤذية بالإعجاب. وكل ما نقل من ذلك القبيل من المشايخ لبقايا السكر عندهم، وانحصارهم فى مضيق سكر الحال، وعدم الخروج إلى فضاء الصحو فى ابتداء أمرهم، وذلك إذا حدق صاحب البصيرة نظره يعلم أنه من استراق النفس السمع عند نزول الوارد على القلب، والنفس إذا استرقت السمع عند ظهور الوارد على القلب ظهرت بصفتها على وجه لا يجفو على الوقت وصلافة الحال.

فيكون من ذلك كلمات مؤذنة بالعجب، كقول بعضهم: من تحت خضراء السماء مثلى؟ وقول بعضهم: قدمى على رقبة جميع الأولياء، وكقول بعضهم: أسرجت وألجمت وطفت فى أقطار الأرض وقلت هل من مبارز، فلم يخرج إلى أحد، إشارة منه فى ذلك إلى تفرده فى وقته.

ومن اشكل عليه ذلك، ولم يعلم أنه من استراق النفس السمع، فليزن ذلك بميزان أصحاب رسول الله ﷺ وتواضعهم، واجتنابهم أمثال هذه الكلمات، واستبعادهم أن يجوز للعبد التظاهر بشيء من ذلك، ولكن يجعل لكلام الصادقين وجه فى الصحة، ويقال إن ذلك طرح عليهم فى سكر الحال، وكلام السكارى يحمل.

فالمشايخ أرباب التمكين لما علموا فى النفوس هذا الداء الدفين، بالغوا فى شرح التواضع إلى حد الحقوه بالضعة تداويا للمريدين. والاعتدال فى التواضع أن يرضى الإنسان بمنزلة دون ما يستحقه، ولو أمن الشخص جموح النفس لأوقفها على حد يستحقه من غير زيادة ولا نقصان.

ولكن لما كان الجموح فى جبلة النفس لكونها مخلوقة من صلصال كالفخار، فيها نسبة النارية وطلب الاستعلاء بطبعها إلى مركز النار، احتاجت للتداوى بالتواضع وإيقافها دون ما تستحقه، لئلا يتطرق إليها الكبر. فالكبر ظن الإنسان أنه أكبر من غيره، والتكبر إظهاره ذلك، وهذه صفة لا يستحقها إلا الله تعالى، ومن ادعاها من المخلوقين يكون كاذبا.

والكبر يتولد من الإعجاب، والإعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن، والجهل الانسلاخ من الإنسانية حقيقة. وقد عظم الله تعالى شأن الكبر بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾(٢).

وقد ورد قول الله تعالى: ((الكبرياء ردائى، والعظمة إزارى، فمن نازعنى واحدا منهما قصمته)) وفى رواية ((قذفته فى نار جهنم)).

---

(١) سورة النحل: الآية ٢٣.
(٢) سورة الزمر: الآية ٦٠.

وقال عز وجل ردا للإنسان في طغيانه إلى حده ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ ﴾(٢).

وابلغ من هذا قوله تعالى ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝ ﴾(٣).

وقد قال بعضهم لبعض المتكبرين: أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت فيما بين ذلك حامل العذرة.

وقد نظم الشاعر هذا المعنى:

كيف يزهو من رجيعه ... أبد الدهر ضجيعه

وإذا ارتحل التواضع من القلب وسكن الكبر، انتشر أثره في بعض الجوارح، ويرشح الإناء بما فيه، فتارة يظهر أثره في العنق بالتمايل، وتارة في الخد بالتصعير، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾(٤).

وتارة يظهر في الراس عند استعصاء النفس. قال الله تعالى ﴿ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝ ﴾(٥).

وكما أن الكبر له انقسام على الجوارح والأعضاء تتشعب منه شعب، فكذلك بعضها أكثف من البعض، كالتيه والزهو والعزة وغير ذلك، إلا أن العزة تشتبه بالكبر من حيث الصورة، وتختلف من حيث الحقيقة، كاشتباه التواضع بالضعة، والتواضع محمود، والضعة مذمومة، والكبر مذموم، والعزة محمودة. قال الله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٦).

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٣٧.
(٢) سورة الطارق: الآيات ٥ـ٦.
(٣) سورة عبس: الآيات ١٧ ـ ١٩.
(٤) سورة لقمان: الآية ١٨.
(٥) سورة المنافقون: الآية ٥.
(٦) سورة المنافقون: الآية ٨.

والعزة غير الكبر، ولا يحل لمؤمن أن يذل نفسه، فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه، وإكرامها أن لا يضعها لأغراض عاجلة دنيوية، كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه وإنزالها فوق منزلتها.

قال بعضهم للحسن: ما أعظمك فى نفسك، قال: لست بعظيم ولكننى عزيز.

ولما كانت العزة غير مذمومة، وفيها مشاكلة بالكبر، قال الله تعالى: ﴿ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[1] فيه إشارة خفية لإثبات العزة بالحق، فالوقوف على حد التواضع من غير انحراف إلى الضعة وقوف على صراط العزة المنصوب على متن نار الكبر، ولا يؤيد فى ذلك ولا يثبت عليه إلا أقدام العلماء الراسخين، والسادة المقربين، ورؤساء الأبدال والصديقين.

قال بعضهم: من تكبر فقد أخبر عن نذالة نفسه، ومن تواضع فقد أظهر كرم طبعه.

وقال الترمذى: التواضع على ضربين: الأول أن يتواضع العبد لأمر الله ونهيه، فإن النفس لطلب الراحة تتلهى عن أمره، والشهوة التى فيها تهوى فى نهيه، فإذا وضع نفسه لأمره ونهيه فهو تواضع، والثانى أن يضع نفسه لعظمة الله، فإن اشتهت نفسه شيئا مما أطلق له من كل نوع من الأنواع منعها ذلك. وجملة ذلك أن يترك مشيئته لمشيئة الله تعالى.

واعلم أن العبد لا يبلغ حقيقة التواضع إلا عند لمعان نور المشاهدة فى قلبه، فعند ذلك تذوب النفس، وفى ذوبانها صفاؤها من غش الكبر والعجب، فتلين وتطيع للحق والخلق لمحو آثارها، وسكون وهجها وغبارها. وكان الحظ الأوفر من التواضع لنبينا عليه السلام فى أوطان القرب، كما روى عن عائشة ﵂ فى الحديث الطويل قالت: فقدت رسول الله ﷺ ذات ليلة

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٣٧.

فاخذنى ما يأخذ النساء من الغيرة ظنا منى أنه عند بعض أزواجه، فطلبته فى حجر نسائه فلم أجده، فوجدته فى المسجد ساجدا كالثوب الخلق وهو يقول فى سجوده ((سجد لك سوادى وخيالى، وآمن بك فؤادى، وقر بك لسانى، وها أنا ذا بين يديك يا عظيم يا غافر الذنب العظيم)).

وقوله عليه السلام ((سجد لك سوادى وخيالى)) استقصاء فى التواضع بمحو آثار الوجود حيث لم تتخلف ذرة منه عن السجود ظاهرا وباطنا.

ومتى يكن للصوفى حظ من التواضع الخاص على بساط القرب لا يتوفر حظه من التواضع للخلق. وهذه سعادات إن أقبلت جاءت بكليتها. والتواضع من أشرف أخلاق الصوفية.

ومن أخلاق الصوفية المداراة، واحتمال الأذى من الخلق. وبلغ من مداراة رسول الله ﷺ أنه وجد قتيلا من أصحابه بين اليهود، فلم يحف عليهم ولم يزد على مر الحق، بل وداه بمائه ناقة من قبله، وإن بأصحابه لحاجة إلى بغير واحد يتقوون به.

وكان من حسن مداراته أن لا يذم طعاما، ولا ينهر خادما.

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفضل الكرخى قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنى قتيبة قال حدثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لى أف قط، وما قال لى لشيء صنعته لم صنعته، ولا لشيء تركته لم تركته. وكان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقا! وما مسست خزا قط ولا حريرا ولا شيئا كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مساقط ولا عطرا كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ.

فالمداراة مع كل احد من الأهل والأولاد والجيران والأصحاب والخلق كافة من اخلاق الصوفية، وباحتمال الأذى يظهر جوهر النفس.

وقد قيل: لكل شيء جوهر، وجوهر الإنسان العقل، وجوهر العقل الصبر.

اخبرنا ابو زرعة طاهر عن ابيه الحافظ المقدسي قال انا ابو محمد الصرفيني قال أنا أبو القاسم عبيد الله بن حبابة قال أنا أبو القاسم عبد الله ابن محمد بن عبد العزيز قال حدثنا على بن الجعد قال انا شعبة عن الأعمش عن ابن عمر عن النبي ﷺ انه قال «المؤمن الذى يعاشر الناس ويصبر على أذاهم خير من الذى لا يخالطهم ولا يصبر على آذاهم».

وفي الخبر «ايعجز احدكم ان يكون كابي ضمضم. قيل: ماذا كان يصنع ابو ضمضم؟ قال: كان إذا اصبح قال: اللهم إنى تصدقت اليوم بعرضي على من ظلمنى، فمن ضربنى لا أضربه، ومن شتمنى لا أشتمه، ومن ظلمنى لا أظلمه».

واخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب قال انا ابو الفتح الهروى قال حدثنا الترياقى قال انا الجراحى قال انا المحبوبي قال انا ابو عيسى الترمذى قال حدثنا ابن أبى عمر قال حدثنا سفيان عن محمد بن المنكدر عن عروة عن عائشة ﵂ قالت: استاذن رجل على رسول الله ﷺ وانا عنده فقال «بئس ابن العشيرة أو اخو العشيرة» ثم اذن له فألان له القول، فلما خرج قلت يا رسول الله قلت له ثم النت له القول، قال «يا عائشة إن من شر الناس من يتركه الناس أو يدعه الناس اتقاء فحشه».

وروى أبو ذر عن رسول الله ﷺ انه قال «اتق الله حينما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».

فما شيء يستدل به على قوة عقل الشخص ووفور علمه وحلمه كحسن المداراة. والنفس لا تزال تشمئز ممن يعكس مرادها، ويستفزها الغيظ والغضب، وبالمداراة قطع حمة النفس، ورد طيشها ونفورها.

وقد ورد «من كظم غيظا وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخبره فى أى الحوار شاء».

وروى جابر ﷺ عن رسول الله ﷺ قال «ألا أخبركم على من تحرم النار؟ على كل هين لين سهل قريب».

وروى أبو مسعود الأنصارى ﷺ قال: أتى النبى عليه السلام برجل فكلمه فأرعد فقال «هون عليك فإنى لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد».

وعن بعضهم فى معنى لين جانب الصوفية:

هينون لينون أيسار بنو يسر	سواس مكرمة أبناء أيسار
لا ينطقون عن الفحشاء إن نطقوا	ولا يمارون إن ماروا بإكثار
من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم	مثل النجوم التى يسرى بها السارى

وروى أبو الدرداء عن النبى ﷺ قال «من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من الخير، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير».

حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إملاء قال حدثنا أبو عبد الرحمن محمد بن أبى عبد الله المالينى قال أنا أبو الحسين عبد الرحمن بن أبى طلحة الداودى قال أنا أبو محمد بعد الله الحموى السرخسى قال أنا أبو عمر ابن عيسى ابن عمر السمرقندى قال أنا عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى قال أنا محمد بن أحمد بن أبى خلف قال حدثنا عبد الرحمن محمد عن محمد بن إسحاق قال حدثنى عبد الله بن أبى بكر عن رجل من العرب قال: زحمت رسول الله ﷺ يوم حنين وفى رجلى نعل كثيفة فوطئت بها

على رجل رسول الله فنفحنى نفحة بسوط فى يده وقال بسم الله أوجعتنى. قال: فبت لنفسى لايما أقول أوجعت رسول الله. قال: فبت بليلة كما يعلم الله، فلما أصبحنا إذا رجل يقول أين فلان؟ قلت هذا والله الذى كان منى بالأمس. قال فانطلقت وأنا متخوف، فقال لى إنك وطئت بنعلك على رجلى بالأمس فأوجعتنى فنفحتك نفحة بالسوط، فهذه ثمانون نعجة فخذها بها.

ومن أخلاق الصوفية الإيثار والمواساة، ويحملهم على ذلك فرط الشفقة والرحمة طبعا وقوة اليقين شرعا، يؤثرون بالموجود، ويصبرون على المفقود.

قال أبو يزيد البسطامى: ما غلبنى أحد ما غلبنى شاب من أهل بلخ، قدم علينا حاجا فقال لى: يا أبا يزيد ما حد الزهد عندكم؟ قلت: إذا وجدنا أكلنا، وإذا فقدنا صبرنا، فقال: هكذا عندنا كلاب بلخ، فقلت له: وما حد الزهد عندكم؟ قال: إذا فقدنا شكرنا، وإذا وجدنا آثرنا.

وقال ذو النون: من علامة الزاهد المشروح صدره ثلاث: تفريق المجموع، وترك طلب المفقود، والإيثار بالقوت.

روى عبد الله بن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ يوم النضير للأنصار «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وتشاركونهم فى هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم نقسم لكم شيئا من الغنيمة» فقالت الأنصار: بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها، فأنزل الله تعالى ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[1].

وروى أبو هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقد أصابه جهد فقال يا رسول الله إنى جائع فأطعمنى، فبعث النبى ﷺ إلى أزواجه هل عندكن شيء، فكلهن قلن والذى بعثك بالحق نبيا ما عندنا إلا الماء، فقال

(١) سورة الحشر: الآية ٩.

رسول الله ﷺ: ما عندنا ما نطعمك هذه الليلة، ثم قال: من يضيف هـذا هـذه الليلة رحمه الله؟

فقام رجل من الأنصار فقال أنا يا رسول الله، فأتى به منزله فقال لأهله: هذا ضيف رسول الله ﷺ فاكرميه ولا تدخرى عنه شيئا، فقالت: ما عندنا إلا قوت الصبية، فقال: فقومى علليهم عن قوتهم حتى يناموا ولا يطعمون شيئا ثم أسرجى، فإذا أخذ الضيف ليأكل قومى كأنك تصلحين السراج فأطفئيه وتعالى نمضغ السنتنا لضيف رسول الله، حتى يشبع ضيف رسول الله، فقامت إلى الصبية فعللتهم حتى ناموا عن قوتهم ولم يطعموا شيئا، ثم قامت فأثردت وأسرجت، فلما أخذ الضيف ليأكل قامت كأنها تصلح السراج فأطفاته، فجعلا يمضغان السنتهما لضيف رسول الله، وظن الضيف أنهما يأكلان معه حتى شبع الضيف وباتا طاويين فلما أصبحوا غدوا إلى رسول الله ﷺ، فلما نظر إليهما تبسم رسول الله ﷺ ثم قال: لقد عجب الله من فلان وفلانة هذه الليلة، وأنزل الله تعالى ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[1].

وقال أنس ﷺ: أهدى لبعض أصحابه رأس شاة مشوى وكان مجهودا، فوهبه إلى جار له، فتداوله سبعة أنفس ثم عادا إلى الأول، فأنزلت الآية لذلك.

وروى أنا أن الحسن الأنطاكى اجتمع عنده نيف وثلاثون رجلا بقرية بقرى الرى، وله أرغفة معدودة لم تشبع خمسة منهم، فكسروا الرغفان وأطفأوا السراج وجلسوا للطعام، فلما رفعوا الطعام فإذا هو بحاله لم يأكل أحد منهم إيثارا منه على نفسه.

وحكى عن حذيفة العدوى قال: انطلقت يوم اليرموك لطلب ابن عم لى ومعى شيء من ماء وأنا أقول إن كان به رمق سقيته ومسحت وجهه، فإذا

---

(١) سورة الحشر: الآية ٩.

انـا بـه فقلت اسـقيك؟ فاشـار إلى نعـم، فـإذا رجـل يقـول آه، فقـال ابـن عمـى: انطلق به إليه، فجئت إليه، فإذا هو هشام بـن العـاص، فقلت أسقيك؟ فسمع هشام آخر يقول: آه، فقال: انطلق به إليه، فجئت إليه فـإذا هـو قـد مـات، ثـم رجعت إلى هشام فإذا هو أيضا قد مات، ثم رجعت إلى ابن عمى، فإذا هو أيضا قد مات.

وسئل أبو الحسين البوشنجى عن الفتوة، فقال: الفتوة عندى ما وصف الله تعالى به الأنصار فى قوله ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَـٰنَ ﴾[1].

قال ابن عطاء: يؤثرون على انفسهم جودا وكرما ﴿ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌ ﴾[2]. يعنى جوعا وفقرا.

قال أبو حفص: الإيثار هو أن يقدم حظوظ الإخوان على حظوظه فى امر الدنيا والآخرة.

وقال بعضهم: الإيثار لا يكون عن اختيار إنما الإيثار أن تقدم حقوق الخلق اجمع على حقك، ولا تميز فى ذلك بين أخ وصاحب وذى معرفة.

وقال يوسف بن الحسين: من رأى لنفسه ملكا لا يصح منه الإيثـار، لأنـه يرى نفسه احق بالشـيء برؤيـة ملكـه، إنمـا الإيثـار ممـن يـرى الأشـياء كلها للحق، فمن وصل إليه فهو احق به، فإذا وصل شيء من ذلك إليه يـرى نفسه ويده فيه يد أمانة يوصلها إلى صاحبها أو يؤديها إليه.

وقال بعضهم: حقيقة الإيثار أن تؤثر بحظ آخرتـك علـى إخوانـك، فـإن الدنيا أقل خطرا من أن يكون لإيثارها محل أو ذكر.

ومن هذا المعنى ما نقل أن بعضهم رأى أخـا لـه فلـم يظهر البشـر الكثـير فى وجهه، فأنكر أخوه ذلك منه، فقال: يـا أخـى سمعت أن رسـول الله ﷺ قـال

---

(١) سورة الحشر: الآية ٩.
(٢) سورة الحشر: الآية ٩.

«إذا التقى المسلمان ينزل عليهما مائة رحمة تسعون لأكثرهما بشرا وعشرة لأقلهما بشرا» فأردت أن أكون أقل بشرا منك ليكون لك الأكثر.

أخبرنا الشيخ ضياء الدين أبو النجم إجازة قال أنا أبو حفص عمر بن الصفار النيسابورى قال أنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازى قال أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى قال سمعت أبا القاسم الرازى يقول سمعت أبا بكر بن أبى سعدان يقول: من صحب الصوفية فليصحبهم بلا نفس ولا قلب ولا ملك، فمن نظر إلى شيء من أسبابه قطعه ذلك عن بلوغ مقصده.

وقال سهل بن عبد الله: الصوفى من يرى دمه هدرا، وملكه مباحا.

وقال رويم: التصوف مبنى على ثلاث خصال: التمسك بالفقر والافتقار، والتحقق بالبذل والإيثار، وترك التعرض والاختيار.

قيل: لما سعى بالصوفية وتميز الجنيد بالفقه، وقبض على الشحام والرقام والنورى، وبسط النطع لضرب رقابهم، تقدم النورى فقيل له: إلى ماذا تبادر؟ فقال: أوثر إخوانى بفضل حياة ساعة.

وقيل: دخل الروذبارى دار بعض أصحابه فوجده غائبا وباب بيته مغلق، فقال: صوفى وله باب مغلق، اكسروا الباب، فكسروه وأمر بجميع ما وجدوا فى البيت أن يباع، فأنفذوه إلى السوق واتخذوا رفقا من الثمن وقعدوا فى الدار، فدخل صاحب المنزل ولم يقل شيئا، ودخلت امرأته وعليها كساء فدخلت بيتا فرمت بالكساء وقالت: هذا أيضا من بقية المتاع فبيعوه، فقال الزوج لها: لم تكلفت هذا باختيارك؟ قالت: اسكت مثل الشيخ يباسطنا ويحكم علينا، ويبقى لنا شيء ندخره عنه.

وقيل: مرض قيس بن سعد، فاستبطأ إخوانه فى عيادته، فسأل عنهم، فقالوا: إنهم يستحيون بمالك عليهم من الدين، فقال: أخزى الله مالا

يمنع الإخوان عن الزيارة، ثم أمر مناديا ينادى: من كان لقيس عليه مال فهو منه فى حل، فكسرت عتبة داره بالعشى لكثرة عواده.

وقيل: أتى رجل صديقا له ودق عليه الباب، فلما خرج قال: لماذا جئتنى؟ قال: لأربعمائة درهم دين لى، فدخل الدار ووزن أربعمائة درهم وأخرجها إليه ودخل الدار باكيا، فقالت امرأته، هلا تعللت حين شق عليك الإجابة؟ فقال: إنما أبكى لأنى لم أتفقد حاله حتى احتاج أن يفاتحنى به.

وأخبرنا الشيخ أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسى قال أنا محمد بن محمد إمام جامع أصفهان قال حدثنا أبو عبد الله الجرجانى قال أنا أبو طاهر محمد بن الحسن المحمداباذى قال حدثنا أبو البحترى قال حدثنا أبو أسامة قال حدثنا بريدة بن أبى بردة عن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ «إن الأشعريين إذا أرملوا فى الغزو وقل طعام عيالهم جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد ثم اقتسموا فى إناء واحد بالسوية، فهم منى وأنا منهم».

وحدث جابر عن رسول الله ﷺ أنه إذا أراد أن يغزو قال: «يا معشر المهاجرين والأنصار إن من إخوانكم قوما ليس لهم مال ولا عدة، فليضم أحدكم إليه الرجل والرجلين والثلاثة، فما لأحدكم من ظهر جمله إلا عقبة كعقبة أحدكم» قال: فضممت إلى اثنين أو ثلاثة ما لى إلا عقبة كعقبة أحدهم من جمله.

وروى أنس قال: لما قدم عبد الرحمن بن عوف المدينة آخى النبى عليه السلام بينه وبين سعد بن الربيع، فقال له: أقاسمك مالى نصفين، ولى امرأتان فأطلق إحداهما، فإذا انقضت عدتها تتزوجها، فقال له عبد الرحمن: بارك الله لك فى أهلك ومالك.

فما حمل الصوفى على الإيثار إلا طهارة نفسه، وشرف غريزته. وما جعله الله تعالى صوفيا إلا بعد أن سوى غريزته لذلك. وكل من كانت

غريزته السخاء والسخى يوشك أن يصير صوفيا، لأن السخاء صفة الغريزة، وفى مقابلته الشح، والشح من لوازم صفة النفس. قال الله تعالى ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1]. حكم بالفلاح لمن يوقى الشح، وحكم بالفلاح لمن أنفق وبذل فقال ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[2]. ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾[3]. والفلاح اجمع اسم لسعادة الدارين.

والنبى عليه السلام نبه بقوله «ثلاث مهلكات وثلاث منجيات» فجعل إحدى المهلكات شحا مطاعا، ولم يقل مجرد الشح يكون مهلكا، بل يكون مهلكا إذا كان مطاعا، فأما كونه موجودا فى النفس غير مطاع فإنه لا ينكر ذلك، لأنه من لوازم النفس مستمدا من أصل جبلتها الترابى، وفى التراب قبض وإمساك، وليس ذلك بالعجب من الآدمى وهو جبلى فيه، وإنما العجب وجود السخاء فى الغريزة، وهو لنفوس الصوفية الداعى لهم إلى البذل والإيثار.

والسخاء أتم وأكمل من الجود، ففى مقابلة الجود البخل، وفى مقابلة السخاء الشح، والجود والبخل يتطرق إليهما الاكتساب بطريق العادة، بخلاف الشح والسخاء إذا كان من ضرورة الغريزة. وكل سخى جواد وليس كل جواد سخيا.

والحق سبحانه وتعالى لا يوصف بالسخاء، لأن السخاء من نتيجة الغرائز، والله تعالى منزه عن الغريزة. والجود يتطرق إليه الرياء ويأتى به الإنسان متطلعا إلى عوض من الخلق أو الحق بمقابل ما من الثناء وغيره من الخلق والثواب من الله تعالى.

---

(١) سورة الحشر: الآية ٩.
(٢) سورة البقرة: الآية ٣.
(٣) سورة البقرة: الآية ٥.

والسخاء لا يتطرق إليه الرياء، لأنه ينبع من النفس الزكية المرتفعة عن الأعواض دنيا وآخرة، لأن طلب العوض مشعر بالبخل لكونه معلولا بطلب العوض، فما تمحض سخاء، فالسخاء لأهل الصفاء، والإيثار لأهل الأنوار.

ويجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝ ﴾[1]. إنه نفى فى الآية الإطعام لطلب الأعواض حيث قال (لا نريد) بعد قوله (لوجه الله) فما كان لله لا يشعر بطلب العوض، بل الغريزة لطهارتها تنجذب إلى مراد الحق لا لعوض، وذلك أكمل السخاء من أطهر الغرائز.

روت أسماء بنت أبى بكر قالت قلت: يا رسول الله ليس لى من شيء إلا ما أدخل على الزبير، فأعطى؟ قال: «نعم لا توكى فيوكى عليك».

ومن أخلاق الصوفية التجاوز والعفو، ومقابلة السيئة بالحسنة.

قال سفيان: الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، فإن الإحسان إلى المحسن متاجرة كنقد السوق خذ شيئا وهات شيئا.

وقال الحسن: الإحسان أن تعم ولا تخص، كالشمس والريح والغيث.

وروى أنس قال: قال رسول الله ﷺ «رأيت قصورا مشرفة على الجنة، فقلت يا جبرائيل لمن هذه؟ قال: للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس».

روى أبو هريرة ﷺ أن أبا بكر ﷺ كان مع النبى ﷺ فى مجلس فجاء رجل فوقع فى أبى بكر وهو ساكت والنبى عليه السلام يتبسم، ثم رد أبو بكر عليه بعض الذى قال، فغضب النبى وقام، فلحقه أبو بكر فقال: يا رسول الله شتمنى وأنت تتبسم ثم رددت عليه بعض ما قال فغضبت وقمت، فقال «إنك حيث كنت ساكتا كان معك ملك يرد عليه، فلما تكلمت وقع

---

(١) سورة الإنسان: الآية ٩.

الشيطان فلم أكن لأقعد فى مقعد فيه الشيطان. يا ابا بكر ثلاث كلهن حق: ليس عبد يظلم بمظلمة فيعفو عنها إلا اعز الله نصره، وليس عبد يفتح باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله قلة، وليس عبد يفتح باب عطية أو صلة يبتغى بها وجه الله إلا زاده الله بها كثرة».

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا الكروخى قال أنا الترياقى قال أنا الجراحى قال أنا المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا أبو هشام الرفاعى قال حدثنا محمد بن فضيل عن الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبى الطفيل عن حذيفة قال قال رسول الله ﷺ «لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس احسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤا فلا تظلموا».

وقال بعض الصحابة: يا رسول الله الرجل امر به فلا يقرينى ولا يضيفنى، فيمر بى أفأجزيه؟ قال: «لا، اقره».

وقال الفضيل: الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان.

وقال رسول الله ﷺ «ليس الواصل المكافئ، ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها».

وروى عن رسول الله ﷺ «من مكارم الأخلاق: أن تعفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك، وتعطى من حرمك».

ومن أخلاق الصوفية البشر وطلاقة الوجه.

الصوفى بكاؤه فى خلوته، وبشره وطلاقة وجهه مع الناس. فالبشر على وجهه من آثار أنوار قلبه، وقد تنازل باطن الصوفى منازلات إلهية، ومواهب قدسية، يرتوى منها القلب، ويمتلئ فرحا وسرورا ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾[1].

---

(١) سورة يونس: الآية ٥٨.

والسرور إذا تمكن من القلب فاض على الوجه آثاره. قال الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾[1]. أى مضيئة مشرقة ﴿ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ أى فرحة. قيل: أشرقت من طول ما اغبرت فى سبيل الله. ومثال فيض النور على الوجه من القلب كفيضان نور السراج على الزجاج والمشكاة. فالوجه مشكاة، والقلب زجاج، والروح مصباح، فإذا تنعم القلب بلذيذ المسامرة ظهر البشر على الوجه.

قال الله تعالى: ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾[2]. أى نضارته وبريقه، يقال: أنضر النبات إذا ازهر ونور ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[3]. فلما نظرت نضرت.

فأرباب المشاهدة من الصوفية تنورت بصائرهم بنور المشاهدة، وانصقلت مرآة قلوبهم، وانعكس فيها نور الجمال الأزلى. وإذا أشرقت الشمس على المرآة المصقولة استنارت الجدران. قال الله تعالى: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾[4]. وإذا تأثر الوجه بسجود الظلال وهى القوالب فى قول الله تعالى: ﴿ وَظِلَالُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾[5]. كيف لا يتأثر بشهود الجمال.

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا الكروخى قال أنا الترياقى قال أنا الجراحى قال أنا المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا قتيبة قال حدثنا المنكدر بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ «كل معروف صدقة، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق، وأن تفرغ من دلوك فى إناء أخيك».

---

(١) سورة عبس: الآية ٣٨.
(٢) سورة المطففين: الآية ٢٤.
(٣) سورة القيامة: الآيات ٢٢ - ٢٣.
(٤) سورة الفتح: الآية ٢٩.
(٥) سورة الرعد: الآية ١٥.

وقال سعد بن عبد الرحمن الزبيدى: يعجبنى من القراء كل سهل طلق مضحاك. فأما من تلقاه بالبشر ويلقاك بالعبوس كأنه يمن عليك فلا أكثر الله فى القراء مثله.

ومن أخلاق الصوفية السهولة، ولين الجانب، والنزول مع الناس إلى أخلاقهم وطباعهم، وترك التعسف والتكلف. وقد روى فى ذلك عن رسول الله ﷺ أخبار. وأخلاق الصوفية تحاكى أخلاق رسول الله ﷺ. وكان يقول عليه الصلاة والسلام «أما إنى أمزح ولا أقول إلا حقا».

وروى أن رجلا يقال له زاهر بن حرام، وكان بدويا، وكان لا يأتى إلى رسول الله إلا جاء بطرفة يهديها إلى رسول الله، فجاء يوما من الأيام فوجده رسول الله ﷺ فى سوق المدينة يبيع سلعة له، ولم يكن أتاه ذلك اليوم، فاحتضنه النبى عليه السلام من ورائه بكفيه، فالتفت فأبصر النبى ﷺ فقبل كفيه ، فقال النبى عليه السلام: من يشترى العبد فقال: إذا تجدنى كاسدا يا رسول الله، فقال ولكن عند الله ربيح. ثم قال عليه السلام: لكل أهل حضر بادية، وبادية آل محمد زاهر بن حرام.

وأخبرنا أبو زرعة طاهر بن الحافظ المقدسى عن أبيه قال أنا المطهر بن محمد الفقيه قال أنا أبو الحسن قال أنا أبو عمرو بن حكيم قال أنا أبو أمية قال حدثنا عبيد بن إسحاق العطار قال حدثنا سنان بن هارون عن حميد عن انس قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله احملنى على جمل، فقال أحملك على ابن الناقة، قال أقول لك احملنى على جمل وتقول احملك على ابن الناقة؟ فقال عله السلام: فالجمل ابن الناقة.

وروى صهيب فقال: أتيت رسول الله ﷺ وبين يديه تمر يأكل فقال: أصب من هذا الطعام، فجعلت آكل من التمر، فقال: أتأكل وأنت رمد فقلت: إذا أمضغ من الجانب الآخر، فضحك رسول الله ﷺ.

وروى انس ان رسول الله ﷺ قال له ذات يوم: يا ذا الأذنين.

وسئلت عائشة رضى الله عنها كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا فى البيت؟ قالت: كان ألين الناس، بساما ضحاكا.

وروت أيضا أن رسول الله ﷺ سابقها فسبقته، ثم سابقها بعد ذلك فسبقها؟ فقال: هذه بتلك.

واخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الحافظ الترمذى قال حدثنا عبد الله بن الوضاح الكوفى قال حدثنا عبد الله بن إدريس عن شعبة عن أبى التياح عن أنس ﷺقال: إن كان رسول الله ﷺ ليخالطنا حتى إنه كان يقول لأخ لى صغير: يا أبا عمير ما فعل النغير؟ والنغير عصفور صغير.

وروى أن عمر سابق زبيرا ﷺ فسبقه الزبير، فقال: سبقتك ورب الكعبة، ثم سابقه مرة أخرى فسبقه عمر، فقال عمر: سبقتك ورب الكعبة.

وروى عبد الله بن عباس قال قال لى عمر: تعال أنافسك فى الماء أينا أطول نفسا، ونحن محرومون.

وروى بكر بن عبد الله قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يتمازحون حتى يتبادحون بالبطيخ، فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال. يقال بدح يبدح إذا رمى، أى يترامون بالبطيخ.

واخبرنا أبو زرعة عن أبيه قال أنا الحسن بن احمد الكرخى قال حدثنا أبو طالب محمد بن إبراهيم قال حدثنا أبو بكر محمد بن محمد بن عبد الله قال حدثنى إسحاق الحربى قال حدثنا أبو سلمة قال حدثنا حماد بن خالد قال انبأنا محمد بن عمرو بن علقمة قال حدثنا أبو الحسن بن محصن الليثى عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب بن أبى بلتعة قال: إن عائشة

رضى الله عنها قالت: اتيت النبى ﷺ بحريرة طبختها له وقلت لسودة والنبى ﷺ بينى وبينها: كلى فابت، فقلت لها: كلى فابت، فقلت لتاكلن او لألطخن بها وجهك، فأبت، فوضعت يدى فى الحريرة فلطخت بها وجهها، فضحك النبى ﷺ، فوضع فخذه وقال لسودة الطخى وجهها، فلطخت بها وجهى، فضحك النبى ﷺ، فمر عمر ﷺ على الباب فنادى يا عبد الله يا عبد الله، فظن النبى ﷺ أنه سيدخل، فقال: قوما فاغسلا وجهكما، فقالت عائشة رضى الله عنها: فما زلت أهاب عمر لهيبة رسول الله ﷺ إياه.

ووصف بعضهم ابن طاوس فقال: كان مع الصبى صبيا ومع الكهل كهلا، وكان فيه مزاحة إذا خلا.

وروى معاوية بن عبد الكريم قال: كنا نتذاكر الشعر عند محمد بن سيرين وكان يقول ونمزح عنده ويمازحنا، وكنا نخرج من عنده ونحن نضحك، وكنا إذا دخلنا على الحسن نخرج من عنده ونحن نكاد نبكى.

فهذه الأخبار والآثار دالة على حسن لين الجانب، وصحة حال الصوفية، وحسن أخلاقهم فيما يعتمدونه من المداعبة فى الربط، وينزلون مع الناس على حسب طباعهم، لنظرهم إلى سعة رحمة الله، فإذا خلوا وقفوا موقف الرجال، واكتسوا ملابس الأعمال والأحوال. ولا يقف فى هذا المعنى على حد الاعتدال إلى صوفى قاهر للنفس، عالم بأخلاقها وطباعها، سائس لها بوفور العلم، حتى يقف فى ذلك على صراط الاعتدال بين الإفراط والتفريط.

ولا يصلح الإكثار من ذلك للمريدين المبتدئين، لقلة علمهم ومعرفتهم بالنفس، وتعديهم حد الاعتدال. فللنفس فى هذه المواطن نهضات ووثبات تجر إلى الفساد، وتجنح إلى العناد. فالنزول إلى طباع الناس

يحسن بمن صعد عنهم، وترقى لعلو حاله ومقامه، فينزل إليهم وإلى طباعهم، حتى ينزل بالعلم.

فأما من لم يصعد بصفاء حاله عنهم، وفيه بقية مزج من طباعهم ونفوسهم الجامحة الأمارة بالسوء إذا دخلت فى هذه المداخل أخذت النفس حظها، واغتنمت مآربها، واستروحت إلى الرخصة، والنزول إلى الرخصة يحسن لمن يركب العزيمة غالب أوقاته، وليس ذلك شأن المبتدى.

فللصوفية العلماء فيما ذكرناه ترويح يعلمون حاجة القلب إلى ذلك، والشيء إذا وضع للحاجة يتقدر بقدر الحاجة، ومعيار مقدار الحاجة فى ذلك علم غامض لا يسلم لكل أحد.

قال سعيد بن العاص لابنه: اقتصد فى مزاحك، فالإفراط فيه يذهب بالبهاء، ويجرئ عليك السفهاء، وتركه يغيظ المؤانسين، ويوحش المخالطين.

قال بعضهم: المزاح مسلبة للبهاء، مقطعة للإخاء.

وكما يصعب معرفة الاعتدال فى ذلك يصعب معرفة الاعتدال فى الضحك، والضحك من خصائص الإنسان، ويميزه عن جنس الحيوان، ولا يكون الضحك إلا عن سابقة تعجب، والتعجب يستدعى الفكر، والفكر شرف الإنسان وخاصيته.. ومعرفة الاعتدال فيه أيضا شأن من ترسخ قدمه فى العلم، ولهذا قيل: إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب.

وقيل: وكثرة الضحك من الرعونة.

وروى عن عيسى عليه السلام أنه قال: إن الله تعالى يبغض الضحاك من غير عجب، والمشاء فى غير إرب.

وذكر فرق بين الداعبة والمزاح، فقيل: الداعبة ما لا يغضب جده، والمزاح ما يغضب جده.

وقد جعل أبو حنيفة رحمه الله القهقهة فى الصلاة من الذنب، وحكم ببطلان الوضوء بها وقال: يقوم الإثم مقام خروج الخارج.

فالاعتدال فى المزاح والضحك لا يتأتى إلا إذا خلص وخرج من مضيق الخوف والقبض والهيبة، فإنه يتقوم بكل مضيق من هذه المضايق بعض التقويم، فيعتدل الحال فيه ويستقيم، فالبسط والرجاء ينشآن المزاح والضحك، والخوف والقبض يحكمان فيه بالعدل.

ومن أخلاق الصوفية ترك التكلف، وذلك ان التكلف تصنع وتعمل وتمايل على النفس لأجل الناس، وذلك يباين حال الصوفية، وفى بعضه خفى منازعة للأقدار، وعدم الرضا بما قسم الجبار.

ويقال: التصوف ترك التكلف.

ويقال: التكلف تخلف، وهو تخلف عن شأو الصادقين.

روى أنس بن مالك قال: شهدت وليمة لرسول الله ما فيها خبز ولا لحم.

وروى عن جابر أنه أتاه ناس من أصحابه فأتاهم بخبز وخل وقالوا: كلوا فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نعم الإدام الخل».

وعن سفيان بن سلمة قال: دخلت على سلمان الفارسى فأخرج إلى خبزا وملحا وقال: كل، لولا أن رسول الله ﷺ نهانا أن يتكلف أحد لأحد لتكلفت لكم.

والتكلف مذموم فى جميع الأشياء، كالتكلف بالملبوس للناس من غير نية فيه، والتكلف فى الكلام، وزيادة التملق الذى صار دأب أهل الزمان، فما يكاد يسلم من ذلك إلا آحاد وأفراد. وكم من متملق لا يعرف أنه تملق ولا يفطن له، فقد يتملق الشخص إلى حد يخرجه إلى صريح النفاق، وهو مباين لحال الصوفى.

اخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال انبأنا ابو الفتوح الهروى قال انا ابو نصر الترياقى قال أنا ابو محمد الجراحى قال أنا ابو العباس المحبوبى قال أنا ابو عيسى الترمذى حدثنا أحمد بن منيع قال حدثنا يزيد بن هارون عن محمد بن مطرف عن حسان بن عطية عن أبى امامة عن النبى ﷺ قال «الحياء والعى شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق» البذاء الفحش. وأراد بالبيان ههنا كثرة الكلام والتكلف للناس بزيادة تملق وثناء عليهم، وإظهار التصفح، وذلك ليس من شأن أهل الصدق.

وحكى عن أبى وائل قال: مضيت مع صاحب لى نزور سلمان، فقدم إلينا خبز شعير وملحا جريشا، فقال صاحبى: لو كان فى هذا الملح سعتر كان اطيب، فخرج سلمان ورهن مطهرته واخذ سعترا، فلما اكلنا قال صاحبى: الحمد لله الذى قنعنا بما رزقنا؛ فقال سلمان: لو قنعت بما رزقك لم تكن مطهرتى مرهونة، وفى هذا من سلمان ترك التكلف قولا وفعلا.

وفى حديث يونس النبى عليه السلام أنه زاره إخوانه فقدم إليهم كسرا من خبز شعير، وجز لهم بقلا كان يزرعه ثم قال: لولا أن الله لعن المتكلفين لتكلفت لكم.

قال بعضهم: إذا قصدت للزيارة فقدم ما حضر، وإذا استزرت فلا تبق ولا تذر.

وروى الزبير بن العوام قال: نادى مناد رسول الله ﷺ يوما «اللهم اغفر للذين يدعون لأموات أمتى ولا يتكلفون، ألا إنى برئ من التكلف وصالحو أمتى».

وروى ان عمر ﷺ قرا قوله تعالى ﴿ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١ ﴾[1]. ثم قال: هذا كله قد عرفناه فما الاب؟ قال: وبيد عمر عصاة فضرب بها الأرض ثم قال: هذا لعمر الله هو التكلف، فخذوا أيها الناس ما بين لكم منه، فما عرفتم اعملوا به، ومن لم تعرفوا فكلوا علمه إلى الله.

ومن أخلاق الصوفية الإتقان من غير إقتار، وترك الادخار، وذلك ان الصوفى يرى خزائن فضل الحق، فهو بمثابة من هو مقيم على شاطئ بحر، والمقيم على شاطئ البحر لا يدخر الماء فى قربته وروايته.

روى أبو هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال «ما من يوم إلا له ملكان يناديان، فيقول أحدهما: اللهم اعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: الله اعط ممسكا تلفا».

وروى أنس قال: كان رسول الله ﷺ لا يدخر شيئا لغد.

وروى أنه أهدى لرسول الله ﷺ ثلاث طوائر، فأطعم خادمه طيرا، فلما كان الغد أتاه به، فقال رسول الله: ألم أنهك أن تخبئ شيئا لغد، فإن الله تعالى يأتى برزق كل غد.

وروى أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ دخل على بلال وعنده صرة من تمر، فقال: ما هذا يا بلال؟ فقال: ادخر يا رسول الله، قال: أما تخشى، أنفق بلالا، ولا تخش من ذى العرش إقلالا.

وروى أن عيسى بن مريم كان يأكل الشجر، ويلبس الشعر، ويبيت حيث أمسى، ولم يكن له ولد يموت، ولا بيت يخرب، ولا يخبئ شيئا لغد.

فالصوفى كل خباياه فى خزائن الله لصدق توكله، وثقته بربه.

---

(١) سورة عبس: الآيات ٢٧ - ٣١.

فالدنيا للصوفى كدار الغربة، ليس له فيها ادخار، ولا له منها استكثار.

قال عليه السلام: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا».

اخبرنا شيخنا ضياء الدين ابو النجيب قال انا ابو عبد الرحمن محمد بن ابى عبد الله المالينى قال انا أبو الحسن عبد الرحمن الداودى قال أنا أبو محمد عبد الله السرخسى قال أنبأنا أبو عمران السمرقندى قال أنا عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى قال أنا محمد بن يوسف عن سفيان عن أبى المنكدر عن جابر قال: ما سئل النبى ﷺ قط فقال لا..

قال ابن عيينة: إذا لم يكن عنده وعد.

وبالإسناد عن الدارمى قال أنا يعقوب بن حميد قال أنا عبد العزيز بن محمد عن ابن أخى الزهرى قال: إن جبريل عليه السلام قال: ما فى الأرض اهل عشيرة من أبيات إلا قلبتهم، فما وجدت أحدا أشد إنفاقا لهذا المال من رسول الله ﷺ.

ومن أخلاق الصوفية القناعة باليسير من الدنيا.

قال ذو النون المصرى: من قنع استراح من أهل زمانه، واستطال على أقرانه.

وقال بشر بن الحارث: لو لم يكن فى القناعة إلا التمتع بالعز لكفى صاحبه.

وقال بنان الحمال: الحر عبد ما طمع، والعبد حر ما قنع.

وقال بعضهم: انتقم من حرصك بالقناعة كما تنتقم من عدوك بالقصاص.

وقال أبو بكر المراغى: العاقل من دبر أمر الدنيا بالقناعة والتسويف، ودبر امر الآخرة بالحرص والتعجيل.

وقال يحيى بن معاذ: من قنع بالرزق فقد ذهب بالآخرة وطاب عيشه.

وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه: القناعة سيف لا ينبو.

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه أبى الفضل قال أنا أبو القاسم عبد الله بن الحسن الخلال ببغداد قال أنا أبو حفص عمر بن إبراهيم قال حدثنا أبو القاسم البغوى قال حدثنا محمد بن عباد قال حدثنا أبو سعيد عن صدقة بن الربيع عن عمارة بن غزية عن عبد الرحمن بن أبى سعيد عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على الأعواد يقول «ما قل وكفى خير مما كثر وألهى».

وروى عن رسول الله ﷺ انه قال «قد أفلح من أسلم وكان رزقه كفافا اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا».

وروى جابر ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال «القناعة مال لا ينفد». وروى عن عمر ﷺ أنه قال: كونوا أوعية الكتاب، وينابيع الحكمة، وعدوا أنفسكم فى الموتى، واسألوا الله تعالى الرزق يوما بيوم، ولا يضركم ألا يكثر لكم.

وأخبرنا أبو زرعة طاهر عن أبى الفضل والده أنا أبو القاسم إسماعيل بن عبد الله الشاوى قال أنا أحمد بنعلى الحافظ قال أنا أبو عمرو بن حمدان قال حدثنا الحسن بن سفيان قال حدثنا عمرو بن مالك البصرى قال حدثنا مروان بن معاوية قد حدثنا عبد الرحمن بن أبى سلمة الأنصارى قال أخبرنى سلمة بن عبد الله بن محصن عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ «من أصبح آمنا فى سربه، معافى فى بدينه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا».

وقيل فى تفسير قوله تعالى ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾[١]. هى القناعة.

فالصوفى قوام على نفسه بالقسط، عالم بطبائع النفس، وجدوى القناعة والتوصل إلى استخراج ذلك من النفس لعلمه بدائها ودوائها.

وقال أبو سليمان الدارانى: القناعة من الرضا كما أن الورع من الزهد. ومن أخلاق الصوفية ترك المراء والمجادلة إلا بحق، واعتماد الرفق والحلم، وذلك أن النفوس تثبت وتظهر فى المارين. والصوفى كلما رأى نفس صاحبة ظاهرة قابلها بالقلب، وإذا قوبلت النفس بالقلب ذهبت الوحشة، وانطفأت الفتنة. قال الله تعالى تعليما لعباده﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾[٢].

ولا ينزع المراء إلا من نفوس زكية انتزع منها الغل، ووجود الغل فى النفوس مراء الباطن، وإذا انتزع المراء من الباطن ذهب من الظاهر أيضا. وقد يكون الغل فى النفس مع من يشاكله ويماثله لوجود المنافسة. من استقصى فى تذويب النفس بنار الزهادة فى الدنيا ينمحى الغل من باطنه، ولا يبقى عنده منافسة دنيوية فى حظوظ عاجلة من جاه ومال. قال الله تعالى فى وصف أهل الجنة المتقين ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾[٣].

قال أبو حفص: كيف يبقى الغل فى قلوب ائتلفت بالله، واتفقت على محبته، واجتمعت على مودته، وانست بذكره، فإن تلك قلوب صافية من هواجس النفوس، وظلمات الطبائع، بل كحلت بنور التوفيق، فصارت إخوانا.

فهكذا قلوب أهل التصوف والمجتمعين على الكلمة الواحدة، ومن التزم بشروط الطريق والانكباب على الظفر بالتحقيق.

---

(١) سورة النحل: الآية ٩٧.

(٢) سورة فصلت: الآية ٣٤.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٧.

والناس رجلان:

رجل طالب ما عند الله تعالى، ويدعو إلى ما عند الله نفسه وغيره، فما للمحقق الصوفى مع هذا منافسة ومراء وغل، فإن هذا معه فى طريق واحد، ووجهة واحدة، وأخوه ومعينه والمؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضا.

ورجل مفتتن بشيء من محبة الجاه والمال والرياسة ونظر الخلق، فما للصوفى مع هذا منافسة، لأنه زهد فيما فيه رغب. فمن شأن الصوفى أن ينظر إلى مثل هذا نظر رحمة وشفقة حيث يراه محجوبا مفتتنا فلا ينطوى له على غل، ولا يماريه فى الظاهر على شيء، لعلمه بظهور نفسه الأمارة بالسوء فى المراء والمجادلة.

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفتح الهروى قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا زياد بن أيوب قال حدثنا المحاربى عن ليث عن عبد الملك عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال «لا تمارى أخاك، ولا تعده موعدا فتخلفه».

وفى الخبر «من ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت فى ربض الجنة، ومن ترك المراء وهو محق بنى له فى وسطها، ومن حسن خلقه بنى له فى أعلاها».

وأخبرنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب قال أنا أبو عبد الرحمن السهروردى محمد بن أبى عبد الله الماليني قال أنا أبو الحسن عبد الرحمن الداودى قال أنا أبو محمد عبد الله بن أحمد الحموى قال أنا أبو عمران عيسى السمرقندى قال أنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى قال حدثنا يحيى ابن بسطام عن يحيى بن حمزة قال حدثنى النعمان بن مكحول عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ «من طلب العلم ليباهى به

العلماء، أو يمارى به السفهاء، أو يريد أن يقبل بوجوه الناس إليه، أدخله الله تعالى جهنم».

انظر كيف جعل رسول الله ﷺ المماراة مع السفهاء سببا لدخول النار، وذلك بظهور نفوسهم فى طلب القهر والغلبة، والقهر والغلبة من صفات الشيطنة فى الآدمى.

وقال بعضهم: المجادل الممارى يضع فى نفسه عند الخوض فى الجدال أن لا يقنع بشيء، ومن لا يقنع إلا أن لا يقنع فما إلى قناعته سبيل. فنفس الصوفى تبدلت صفاتها، وذهب عنه صفة الشيطنة والسبعية، وتبدل باللين والرفق والسهولة والطمأنينة.

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال «والذى نفسى بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه».

انظر كيف جعل النبى ﷺ من شرط الإسلام سلامة القلب واللسان.

وروى عنه عليه السلام «أنه مر بقوم وهم يجدون حجرا قال ما هذا؟ قالوا: هذا حجر الأشداء، قال: «ألا أخبركم بأشد من هذا؟ رجل كان بينه وبين أخيه غضب فأتاه فغلب شيطانه وشيطان أخيه فكلمه».

وروى أنه جاء كلام لأبى ذر وقد كسر رجل شاة، فقال أبو ذر: من كسر رجل هذه الشاة؟ فقال أنا؟ قال ولم فعلت ذلك؟ قال عمدا فعلت، قال ولم؟ قال أغيظك فتضربنى فتأثم، فقال أبو ذر: لأغيظن من حضك على غيظى، فأعتقه.

وروى الأصمعى عن أعرابى قال: إذا أشكل عليك أمران لا تدرى أيهما أرشد فخالف أقربهما إلى هواك، فإن أكثر ما يكون الخطأ من متابعة الهوى.

اخبرنا ابو زرعة عن ابيه ابى الفضل قال انا ابو بكر محمد بن احمد بن على قال انا خورشيد قال حدثنا إبراهيم بن عبد الله قال حدثنا احمد بن محمد بن سليم قال حدثنا الزبير بن بكار قال حدثنا سعيد بن سعد عن اخيه عن جده عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات، فأما المنجيات فخشية الله فى السر والعلانية، والحكم بالحق عند الغضب والرضا، والاقتصاد عند الفقر والغنى، وأما المهلكات فشح مطاع، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه».

فالحكم بالحق عند الغضب والرضا لا يصح إلا من عالم ربانى، أمير على نفسه، يصرفها بعقل حاضر، وقلب يقظان، وتنظر إلى الله يحسن الاحتساب.

نقل إنهم كانوا يتوضأون عن إيذاء المسلم يقول بعضهم: لأن أتوضأ من كلمة خبيثة أحب إلى من أتوضأ من طعام طيب.

وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: الحدث حدثان: حدث من فرجك، وحدث من فيك.

فلا يحل حبوة الوقار والحلم إلا الغضب، ويخرج عن حد العدل إلى العدوان بتجاوز الحد. فبالغضب يثور دم القلب، فإن كان الغضب على من فوقه مما يعجز عن إنفاذ الغضب فيه ذهب الدم من ظاهر الجلد، واجتمع فى القلب، ويصير منه الهم والحزن والانكماد، ولا ينطوى الصوفى على مثل هذا، لأنه يرى الحوادث والأعراض من الله تعالى، فلا ينكمد ولا يغتم، والصوفى صاحب الرضا صاحب الروح والراحة. والنبى عليه السلام أخبر أن الهم والحزن فى الشك والسخط.

سئل عبد الله بن عباس رضى الله عنهما عن الغم والغضب قال: مخرجهما واحد واللفظ يختلف، فمن نازع من يقوى عليه أظهره غضبا،

ومن نازع من لا يقوى عليه كتمه حزنا. الحرد غضب أيضا، ولكن يستعمل إذا قصد المغضوب عليه. وإن كان الغضب على من يشاكله ويماثله ممن يتردد فى الانتقام منه يتردد دم القلب بين الانقباض والانبساط، فيتولد منه الغل والحقد، ولا يأوى مثل هذا إلى قلب الصوفى. قال الله تعالى ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾[1].

وسلامة قلب الصوفى وحاله يقذف زبد الغل والحقد كما يقذف البحر الزبد، لما فيه من تلاطم أمواج الأنس والهيبة. وإن كان الغضب على من دونه ممن يقدر على الانتقام منه ثار دم القلب، والقلب إذا ثار دمه يحمر ويقسو ويتصلب، وتذهب عنه الرقة والبياض، ومنه تحمر الوجنتان، لأن الدم فى القلب ثار وطلب الاستعلاء، وانتفخت منه العروق، فظهر عكسه وأثره على الخد، فيتعدى الحدود حينئذ بالضرب والشتم، ولا يكون هذا فى الصوفى إلا عند هتك الحرمات والغضب لله تعالى، فأما فى غير ذلك فينظر الصوفى عند الغضب إلى الله تعالى، ثم تقواه تحمله على أن يزن حركته وقوله بميزان الشرع والعدل، ويتهم النفس بعدم الرضا بالقضاء.

قيل لبعضهم: من أقهر الناس لنفسه؟ قال: أرضاهم بالمقدور.

وقال بعضهم: أصبحت وما لى سرور إلا مواقع القضاء.

وإذا اتهم الصوفى النفس عند الغضب تداركه العلم، وإذا لاح علم العلم قوى القلب وسكنت النفس، وعاد دم القلب إلى موضعه ومقره، واعتدل الحال، وغاضت حمرة الخد، وبانت فضيلة العلم.

قال عليه السلام: «السمت الحسن والتودد والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزء من النبوة».

---

(١) سورة الأعراف، الآية ٧.

وروى حارثة بن قدامة قال: قلت يا رسول الله أوصنى وأقلل لعلى أعيه، قال «لا تغضب» فأعاد عليه كل ذلك يقول «لا تغضب» قال عليه السلام «إن الغضب جمرة من النار، ألم تنظروا حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه، من وجد ذلك منكم فإن كان قائما فليجلس، وإن كان جالسا فليضطجع».

اخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال انبأنا ابو الفتح الهروى قال أنا ابو النصر التریاقى قال أنا الجراحى قال أنا المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا محمد بن عبد الله قال حدثنا بشر بن المضل عن قرة بن خالد عن ابى حمزة عن ابن عباس رضى الله عنهما ان النبى ﷺ قال لأشج عبد القيس «إن فيك خصلتين يحبهما الله تعالى: الحلم والأناة».

ومن اخلاق الصوفية التودد والتآلف والموافقة مع الإخوان وترك المخالفة. قال الله تعالى فى وصف أصحاب رسول الله ﷺ ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[1]. ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾[2].

والتودد والتآلف من ائتلاف الأرواح على ما ورد فى الخبر الذى أوردناه، فما تعارف منها ائتلف. قال الله تعالى ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[3].

وقال سبحانه تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾[4].

وقال عليه السلام «المؤمن آلف مألوف، لا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف».

وقال عليه السلام «مثل المؤمنين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى، وما التقى مؤمنان إلا استفاد أحدهما من صاحبه خيرا».

---

(١) سورة الفتح: الآية ٢٩.
(٢) سورة الأنفال: الآية ٦٣.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.
(٤) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

وقال أبو إدريس الخولانى لمعاذ: إنى أحبك فى الله، فقال أبشر ثم أبشر، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ينصب لطائفة من الناس كراسى حول العرش يوم القيامة، وجوههم كالقمر ليلة البدر، يفزع الناس وهم لا يفزعون، ويخاف الناس وهم لا يخافون، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، قيل من هؤلاء يا رسول الله؟ قال المتحابون فى الله».

وقيل: لو تحاب الناس وتعاطوا أسباب المحبة لاستغنوا بها عن العدالة.

وقيل: العدالة خليفة المحبة، تستعمل حيث لا توجد المحبة.

وقيل: طاعة المحبة أفضل من طاعة الرهبة، فإن طاعة المحبة من داخل، وطاعة الرهبة من خارج.

ولهذا المعنى كانت صحبة الصوفية مؤثرة من البعض فى البعض، لأنهم لما تحابوا فى الله تواصوا بمحاسن الأخلاق، ووقع القبول بينهم لوجود المحبة، فانتفع لذلك المريد بالشيخ، والأخ بالأخ، ولهذا المعنى أمر الله تعالى باجتماع الناس فى كل يوم خمس مرات فى المساجد، أهل كل درب وكل محلة، وفى الجامع فى الأسبوع مرة أهل كل بلد، وانضمام أهل السواد إلى البلدان فى الأعياد فى جميع السنة مرتين، وأهل الأقطار من البلدان المتفرقة فى العمر مرة للحج، كل ذلك لحكم بالغة، منها تأكيد الألفة والمودة بين المؤمنين. وقال عليه السلام «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا».

اخبرنا ابو زرعة قال أنا والدى ابو الفضل قال أنا أبو نصر محمد بن سلمان العدل قال أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادى قال أنا أبو العباس عبد الله بن يعقوب الكرماتى قال حدثنا يحيى الكرمانى قال حدثنا حمادبن زيد عن مجالد بن سعد عن الشعبى عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «ألا إن مثل المؤمنين فى توادهم وتحابهم

وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائره بالسهر والحمى».

والتآلف والتودد يؤكد أسباب الصحبة، والصحبة مع الأخيار مؤثرة جدا.

وقبل قيل: لقاء الإخوان لقاح.

ولا شك أن البواطن تتلقح ويتقوى البعض بالبعض، بل بمجرد النظر إلى أهل الصلاح يؤثر صلاحا، والنظر فى الصور يؤثر أخلاقا مناسبة لخلق المنظور إليه، كدوام النظر إلى المخزون يحزن، ودوام النظر إلى المسرور يسر.

وقد قيل: من لا ينفك لحظه لا ينفك لفظه. والجمل الشرود يصير ذلولا بمقارنة الجمل الذلول، فالمقارنة لها تأثير فى الحيوان والنبات والجماد، والماء والهواء يفسدان بمقارنة الجيف. والزروع تنفى عن أنواع العروق فى الأرض والنبات لموضع الإفساد بالمقارنة. وإذا كانت المقارنة مؤثرة فى هذه الأشياء، ففى النفوس الشريفة البشرية أكثر تأثيرا.

وسمى الإنسان إنسانا لأنه يأنس بما يراه من خير وشر.

والتآلف والتودد مستجلب للمزيد، وإنما العزلة والوحدة تحمد بالنسبة إلى أراذل الناس وأهل الشر، فأما أهل العلم والصفاء والوفاء والأخلاق الحميدة فيغتنم مقارنتهم، والاستئناس بهم استئناس بالله تعالى، كما أن محبتهم محبة الله، والجامع معهم رابطة الحق، ومع غيرهم رابطة الطبع.

فالصوفى مع غير الجنس كائن بائن، ومع الجنس كائن معاين. والمؤمن مرآة المؤمن، إذا نظر إلى أخيه يستشف من وراء أقواله وأعماله وأحواله تجليات إلهية، وتعريفات وتلويحات من الله الكريم خفية، غابت عن الأغيار، وأدركها أهل الأنوار.

ومن أخلاق الصوفية شكر المحسن على الإحسان، والدعاء له، وذلك منهم مع كمال توكلهم على ربهم، وصفاء توحيدهم، وقطعهم النظر إلى الأغيار، ورؤيتهم النعم من المنعم الجبار، ولكن يفعلون ذلك اقتداء برسول الله ﷺ على ما ورد أن رسول الله ﷺ خطب فقال «ما من الناس أحد آمن علينا فى صحبته وذات يده من ابن أبى قحافة، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا».

وقال «ما نفعنى مال كمال أبى بكر».

فالخلق حجبوا عن الله بالخلق فى المنع والعطاء.

فالصوفى فى الابتداء يفنى عن الخلق، ويرى الأشياء من الله حيث طالع ناصيته التوحيد، وخرق الحجاب الذى منع الخلق عن صرف التوحيد، فلا يثبت للخلق منعا ولا عطاء، ويحجبه الحق عن الخلق، فإذا ارتقى إلى ذروة التوحيد يشكر الخلق بعد شكر الحق، ويثبت لهم وجودا فى المنع والعطاء، بعد أن يرى المسبب أولا، وذلك لسعة علمه وقوة معرفته يثبت الوسائط، فلا يحجبه الخلق عن الحق كعامة المسلمين، ولا يحجبه الحق عن الخلق كأرباب الإرادة والمبتدئين، فيكون شكره للحق، لأنه المنعم والمعطى والمسبب، ويشكر الخلق لأنهم واسطة وسبب. قال رسول الله ﷺ «أول ما يدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله تعالى فى السراء والضراء».

وقال عليه السلام «من عطس أو تجشأ فقال الحمد لله على كل حال، دفع الله تعالى بها سبعين داء أهونها الجذام».

وروى جابر ﷺ قال قال رسول الله ﷺ «ما من عبد ينعم عليه بنعمة فحمد الله إلا كان الحمد أفضل منها».

فقوله عليه السلام «كان الحمد أفضل منها» يحتمل أن يرضى الحق بها شكرا،ويحتمل أن الحمد أفضل منها نعمة، فتكون نعمة الحمد أفضل من

النعمة التى حمد عليها، فإذا شكروا المنعم الأول يشكرون الواسطة المنعم من الناس ويدعون له.

روى عن انس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا افطر عند قوم قال «افطر عندكم الصائمون، واكل طعامكم الأبرار، ونزلت عليكم السكينة».

اخبرنا أبو زرعة عن ابيه قال أنا أحمد بن محمد بن أحمد البزار قال أنا أبو حفص عمر بن إبراهيم قال حدثنا عبد الله بن محمد البغوى قال أنا عمرو بن زرارة قال حدثنا عيينة بن يونس عن موسى بن عبيدة عن محمد بن ثابت عن أبى هريرة ﷺ قال قال رسول الله ﷺ «من قال لأخيه: جزاك الله خيرا فقد أبلغ فى الثناء».

ومن اخلاق الصوفية بذل الجاه للإخوان والمسلمين كافة، فإذا كان الرجل وافر العلم، بصيرا بعيوب النفس وآفاتها وشهواتها، فليتوصل إلى قضاء حوائج المسلمين ببذل الجاه والمعاونة فى إصلاح ذات البين. وفى هذا المعنى يحتاج إلى مزيد علم لأنها أمور تتعلق بالخلق ومخالطتهم ومعاشرتهم، ولا يصلح ذلك إلا لصوفى تام الحال عالم ربانى.

روى عن زيد بن أسلم أنه قال: كان نبى من الأنبياء يأخذ بركاب الملك يتألفه بذلك لقضاء حوائج الناس.

وقال عطاء: لأن يرانى الرجل سنين فيكتسب جاها يعيش فيه مؤمن اتم له من ان يخلص العمل لنجاة نفسه.

وهذا باب غامض لا يؤمن أن يفتتن به خلق من الجهال المدعين، ولا يصح هذا إلا لعبد اطلع الله على باطنه، فعلم منه الا رغبة له فى شيء من الجاه والمال. ولو أن ملوك الأرض وقفوا فى خدمته ما طغى ولا استطال ولو دخل إلى أتون يوقد ما ظهرت نفسه بصريح الإنكار لهذا الحال.

وهذا لا يصلح إلا لآحاد من الخلق وافراد من الصادقين ينسلخون عن إرادتهم واختيارهم، ويكاشفهم الله تعالى بمراده منهم، فيدخلون فى الأشياء بمراد الله تعالى، فإذا علموا أن الحق يريد منهم المخالطة وبذل الجاه يدخلون فى ذلك بغيبة صفات النفس.

وهذا لأقوام ماتوا ثم حشروا، واحكموا مقام الفناء ثم رقوا إلى مقام البقاء، فيكون لهم فى كل مدخل ومخرج برهان وبيان وإذن من الله تعالى، فهم على بصيرة من ربهم، وهذا ليس فيهم ارتياب لصاحب قلب مكاشف بصريح المراد فى خفى الخطاب، فيأخذ وقته أبدا من الأشياء، ولم تأخذ الأشياء من وقته، ولا يكون فى قطر من الأقطار إلى واحد متحقق بهذا الحال.

قال ابو عثمان الحيرى: لا يكمل الرجل حتى يستوى قلبه فى أربعة أشياء: المنع، والعطاء، والعز، والذل، ولمثل هذا الرجل يصلح بذل الجاه والدخول فيما ذكرناه.

قال سهل بن عبد الله: لا يستحق الإنسان الرياسة حتى تجتمع فيه ثلاث خصال: يصرف جهله عن الناس، ويحتمل جهل الناس، ويترك ما فى أيديهم، ويبذل ما فى يده لهم.

وهذه الرياسة ليست عين الرياسة التى زهد فيها وتعين الزهد فيها لضرورة صدقه وسلوكه، وإنما هذه رياسة اقامها الحق لصلاح خلقه، فهو فيها بالله يقوم بواجب حقها وشكر نعمتها لله تعالى.

الباب الحادي والثلاثون
في ذكر الأدب ومكانه من التصوف

روى عن رسول الله ﷺ انه قال «ادبنى ربى فأحسن تاديبى».

فالأدب تهذيب الظاهر والباطن، فإذا تهذب ظاهر العبد وباطنه صار صوفيا أديبا.

وإنما سميت المأدبة مأدبة لاجتماعهما على اشياء.

ولا يتكامل الأدب فى العبد إلا بتكامل مكارم الأخلاق. ومكارم الأخلاق مجموعها فى تحسين الخلق، فالخلق صورة الإنسان، والخلق معناه. فقال بعضهم: الخلق لا سبيل إلى تغييره كالخلق. وقد ورد: فرغ ربكم من الخلق والخلق والرزق والأجل. وقال تعالى ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾[1]. والأصح ان تبديل الأخلاق ممكن مقدور عليه بخلاف الخلق.

وقد روى عن رسول الله ﷺ انه قال «حسنوا اخلاقكم» وذلك أن الله تعالى خلق الإنسان وهيأه لقبول الصلاح والفساد، وجعله أهلا للأدب ومكارم الأخلاق. ووجود الأهلية فيه كوجود النار فى الزناد، ووجود النخل فى النوى. ثم إن الله تعالى بقدرته ألهم الإنسان ومكنه من إصلاحه بالتربية إلى أن يصير النوى نخلا، والزناد بالعلاج حتى تخرج منه نار، وكما جعل فى نفس الإنسان صلاحية الخير جعل فيها صلاحية الشر حال الإصلاح والإفساد.

فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ ﴾[2]. فتسويتها بصلاحيتها للشيئين جميعا. ثم قال عز وجل ﴿

---

(١) سورة الروم: الآية ٣٠.

(٢) سورة الشمس: الآيات ٧ - ٨.

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝﴾[1]. فإذا تركت النفس تدبرت بالعقل، واستقامة أحوالها الظاهرة والباطنة، وتهذبت الأخلاق، وتكونت الآداب.

فالأدب استخراج ما فى القوة إلى الفعل، وهذا يكون لمن ركبت السجية الصالحة فيه، والسجية فعل الحق لا قدرة للبشر على تكوينها، كتكون النار فى الزناد، إذ هو فعل الله المحض، واستخراجه بكسب الآدمى، فهكذا الآداب منبعها السجايا الصالحة، والمنح الإلهية.

ولما هيأ الله تعالى بواطن الصوفية بتكميل السجايا فيها، توصلوا بحسن الممارسة والرياضة إلى استخراج ما فى النفوس مركوز بخلق الله تعالى إلى الفعل، فصاروا مؤدبين مهذبين. والآداب تقع فى حق بعض الأشخاص من غير زيادة ممارسة ورياضة، لقوة ما أودع الله تعالى فى غرائزهم، كما قال رسول الله ﷺ «أدبنى ربى فأحسن تأديبى».

وفى بعض الناس من يحتاج إلى طول الممارسة، لنقصان قوى أصولها فى الغريزة، فلهذا احتاج المريدون إلى صحبة المشايخ، لتكون الصحبة والتعلم عونا على استخراج ما فى الطبيعة إلى الفعل. قال الله تعالى ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾[2]. قال ابن عباس رضى الله عنهما: فقهوهم وأدبوهم.

وفى لفظ آخر قال رسول الله ﷺ «أدبنى ربى فأحسن تأديبى، ثم أمرنى بمكارم الأخلاق فقال ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝﴾[3].

(١) سورة الشمس: الآيات ٩ - ١٠.
(٢) سورة التحريم: الآية ٦.
(٣) سورة الأعراف: الآية ١٩٩.

قال يوسف بن الحسين: بالأدب يفهم العلم، وبالعلم يصح العمل، وبالعمل تنال الحكمة، وبالحكمة يقام الزهد، وبالزهد تترك الدنيا، وبترك الدنيا يرغب فى الآخرة، وبالرغبة فى الآخرة تنال الرتبة عند الله تعالى.

قيل: لما ورد أبو حفص العراق، جاء إليه الجنيد فرأى أصحاب أبى حفص وقوفا على رأسه يأتمرون لأمره، لا يخطئ أحد منهم، فقال يا أبا حفص: أدبت أصحابك أدب الملوك، فقال: لا يا أبا القاسم، ولكن حسن الأدب فى الظاهر عنوان الأدب فى الباطن.

قال أبو الحسين النورى: ليس لله فى عبده مقام ولا حال ولا معرفة تسقط معها آداب الشريعة، وآداب الشريعة حلية الظاهر، والله تعالى لا يبيح تعطيل الجوارح من التحلى بمحاسن الآداب.

قال عبد الله بن المبارك: أدب الخدمة أعز من الخدمة.

حكى عن أبى عبيد القاسم بن سلام قال: دخلت مكة فكنت ربما أقعد بحذاء الكعبة، وربما كنت أستلقى وأمد رجلى، فجاءتنى عائشة المسكينة فقالت لى: يا أبا عبيد يقال إنك من أهل العلم، اقبل منى كلمة، لا تجالسه إلا بأدب وإلا فيمحى اسمك من ديوان القرب. قال أبو عبيد: وكانت من العارفات.

وقال ابن عطاء: النفس مجبولة على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة الأدب، والنفس تجرى بطباعها فى ميدان المخالفة، والعبد يردها بجهده إلى حسن المطالبة، فمن أعرض عن الجهد فقد أطلق عنان النفس، وغفل عن الرعاية، ومهما أعانه فهو شريكها.

وقال الجنيد: من أعان نفسه على هواها فقد أشرك فى قتل نفسه، لأن العبودية ملازمة الأدب، والطغيان سوء الأدب.

اخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال انا ابو الفتح الهروى قال انا ابو النصر الترياقى قال انا ابو محمد الجراحى قال أنا العباس المحبوبى أنا ابو عيسى الترمذى قال حدثنا قتيبة قال حدثنا يحيى بن يعلى عن ناصح عن سماك عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ «لأن يؤدب الرجل ولده خير له من ان يتصدق بصاع».

وروى ايضا انه قال عليه السلام «ما نحل والد ولدا من نحلة افضل من ادب حسن».

وروت عائشة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ قال «حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه، ويحسن موضعه، ويحسن أدبه».

وقال ابو على الدقاق: العبد يصل بطاعته إلى الجنة، وبأدبه فى طاعته إلى الله تعالى.

قال أبو القاسم القشيرى رحمه الله: كان الأستاذ ابو على لا يستند إلى شيء، فكان يوما فى مجمع فأردت ان اضع وسادة خلف ظهره لأنى رأيت غير مستند، فتنحى عن الوسادة قليلا، فتوهمت أنه توقى الوسادة لأنه لم يكن عليها خرقة أو سجادة، فقال: لا أريد الاستناد، فتأملت بعد ذلك فعلمت أنه لا يستند إلى شيء أبدا.

وقال الجلالى البصرى: التوحيد يوجب الإيمان، فمن لا إيمان له لا توحيد له، والإيمان يوجب الشريعة، فمن لا شريعة له لا إيمان له ولا توحيد له، والشريعة توجب الأدب، فمن لا ادب له لا شريعة له ولا إيمان ولا توحيد.

وقال بعضهم: الزم الأدب ظاهرا وباطنا، فما اساء احد الأدب ظاهرا إلا عوقب ظاهرا، وما أساء أحد الأدب باطنا إلا عوقب باطنا.

قال بعضهم، هو غلام الدقاق: نظرت إلى غلام امرد، فنظر إلى الدقاق وانا انظر إليه، فقال لتجدن غبها ولو بعد سنين. قال فوجدت غبها بعد عشرين سنة أن نسيت القرآن.

وقال سرى: صليت وردى ليلة من الليالى ومددت رجلى فى المحراب، فنوديت: يا سرى هكذا تجالس الملوك. فضممت رجلى ثم قلت وعزتك لا مددت رجلى أبدا. وقال الجنيد: فبقى ستين سنة ما مد رجله ليلا ولا نهارا.

قال عبد الله بن المبارك: من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن، ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة.

وسئل السرى عن مسألة فى الصبر، فجعل يتكلم فيها، فدب على رجله عقرب فجعلت تضربه بإبرتها، فقيل له الا تدفعها عن نفسك؟ قال: أستحى من الله أن أتكلم فى حال ثم أخالف ما أعلم فيه.

وقيل: من أدب رسول الله ﷺ أنه قال «زويت لى الأرض فرايت مشارقها ومغاربها» ولم يقل رأيت.

وقال يس بن مالك: الأدب فى العمل علامة قبول العمل.

وقال ابن عطاء: الأدب الوقوف مع المستحسنات. قيل: ما معناه؟ قال: أن تعامل الله سرا وعلنا بالأدب، فإذا كنت كذلك كنت اديبا وإن كنت أعجميا، ثم أنشد:

إذا نطقت جاءت بكل مليحة ... وإن سكتت جاءت بكل مليح

وقال الجريرى: منذ عشرين سنة ما مددت رجلى فى الخلوة، فإن حسن الأدب مع الله أحسن وأولى.

وقال أبو على: ترك الأدب موجب للطرد، فمن أساء الأدب على البساط رد إلى الباب، ومن أساء الأدب على الباب رد إلى سياسة الدواب.